الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشعبيّة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلاميّة

كليّة أصول الدّين

الرقم التسلسلي:.....

رقم التسجيل:.....

فاعليّة الإنسان في الفكر الإسلامي

جودت سعيد أنموذجا

مذكّرة مكمّلة لنيل شهادة الماجستير في العقيدة.

تخصّص: فكر إسلامي.

إعداد الطالبة:

سعاد ووفاني

إشراف الدكتور:

صالح نعمان

الموسم الجامعي: 2012م-2013م

1433هـ-1434هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وعرفان

الآن وقد وصل البحث إلى نهايته لا يسعني إلّا التقدّم بجزيل الشّكر والامتنان إلى زوجي عبد الحميد عتراوس نظير إضاءته السّديدة لخطو البحث على الدّرب الصّحيح، وجميل صبره وتفهّمه لكلّ جهد بذلته فما ضاع سدى... ووقوفه الدّائم على كلّ صغيرة وكبيرة حتّى خرج هذا العمل من حيّز الوجود بالقوّة إلى حيّز الوجود بالفعل.

شكر وعرفان

أتقدّم بخالص التّقدير والشّكر لأستاذي الدّكتور صالح نعمان على تفضّله بقبول الإشراف على هذا العمل، فشمله برعايته، وأفادني موجّها ومرشدا بصبر ورحابة صدر.

مقدمة

إنّ وقفة الإنسان مع التّاريخ تجعله يدرك عناءه الشديد في بحثه عبره عن نفسه، وكيف أنّه كان يقترب منها حينا ويبتعد أحيانا ، ويقترب من نور خالقه، آخذا بهدي الأنبياء، وما أتوه به من وحي يعرفه بنفسه، وبوظيفة في الحياة ثمّ هدفه فيها، ومصيره بعدها؛ ليتحقق له الاستقرار، ويهدأ لينطلق في تؤدة يحقق وظيفته في الوجود وهي العبادة بمعناها الواسع من صالح الأقوال والأفعال، والّتي على قدر تحقيقها يحقق إنسانيته وكماله، ويزداد قربا من خالقه الّذي أكرمه ونعمه وجعله في الأرض خليفة، وزوّده بكلّ ما يحتاجه لممارسة هذه الخلافة، من فطرة تنبعث من داخله ليعلن توحيده لله، وعقل يمكنه من إدراك آيات خالقه في الآفاق، وفي نفسه ليصل إلى الحق ويتمسك به، ويترجمه إلى إيمان صادق وعمل دؤوب ينشر الفضيلة والخير والحق، ويحارب الشر والفساد حسب قدرته وطاقته.

وهي فاعلية تتحقّق له بقدر إيمانه بخالقه، ويقينه بمهمته الّتي هي خلافة يمارس على أساسها سيادته على الكون الّذي سخر له؛ لأجل هذه المهمة، والّتي بغيابها يغيّب نفسه، ويتخلى عن سبب عزته وعلو مرتبته، فاعليّة ارتقى بها في سلم الكمال، ومضى بها إلى إدراك قمم شامخات، لا يزال التّاريخ شاهدا له بها على مستواه، كفرد مسلم أو على مستوى الأمّة، الّتي بلغت بها درجة الخيرية والأفضلية والشهادة على الأمم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ اخْرِجَتْ للنَّاسِ تَامُرُونَ بِالمعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ، وَتُومِنُونَ بِاللهِ﴾؛[1] لأنّها أمّة تشرّبت آيات الوحي، وتشبّعت بهدي النبوّة، وترجمتها إلى واقع حياة مثالية في مثالية واقعية.

فاعلية غابت عن المسلمين حينا من الدهر فتأخروا بعد سيادة، وغابوا بعد شهود كبير، وما فتئت جهود المفكرين المسلمين تحاول استرجاعها في نفس المسلم، لتوقظ بها همّته وترجع له بها مجده ورفعته، وقد حاولت تسليط الضوء عليها في الفكر الإسلامي عموما وعند **جودت سعيد** خصوصا، متنقّلة في هذا البحث بين حقيقة الإنسان من منظور القرآن الكريم، والفكر الإسلامي، ثمّ حقيقة الفاعليّة كما يراها **جودت سعيد**، ومستوياتها وشروطها، ولعلّ هذا البحث يجيب عن الأسئلة التالية:

[1] سورة آل عمران، الآية: (110).

الإشكالية:

إنّ موضوع البحث بطبيعة محتوياته يتناول مسألة حسّاسة في حياة المسلمين، وتمثّل إحدى الزّوايا الّتي بتوضيحها وبيانها، تتوضّح بعض آليات حلّ أزماتها وهي الفاعليّة، وذلك يفرض عدّة إشكالات فكريّة تقتضي الاستقصاء والبحث من أهمها:

✷ كيف ذهل المسلم عن حقيقة الإنسان؟ وما سبب هذا الغبش في الرؤيا؟ والقرآن الكريم بين يديه؟ ✷ وما هو تصوره لحقيقة الفاعليّة؟ وما مدى انعكاس هذا التّصوّر على أفعاله وسلوكه، وحياته كلها؟ ✷ ثمّ هل يمكن حصرها في مستوى معيّن، أم أنّها تتحقّق في مستويات متعددة؟

✷ وما هي شروطها كي تتحقّق؟ ✷ وبناء على ذلك إلى أيّ مدى تحققت هذه الفاعليّة في تاريخ المسلمين سواء على مستوى الأفراد أو الجماعات؟

أسباب اختيار الموضوع:

لقد شدّني إلى موضوع بحثي أسباب منها:

الذاتية:

فهو اهتمام شخصي بالدّراسات الّتي تتناول الإنسان عامّة، والمسلم خاصّة كموضوع لها، والمسؤولية الّتي يجب أن تتظافر الجهود في تحمّلها لعودة المسلم إلى الوعي بالذات، وتبوأ المكانة اللائقة به، ولما كان **جودت سعيد** امتدادا لفكر أستاذه **مالك بن نبي**، أردت أن أتناول بالطرح فكره حول الإنسان والفاعليّة بالذات.

الموضوعية:

1. الوضع الّذي تعيشه الأمّة وما يتطلّبه من جهود الإصلاح.
2. استمرار الرّكود العام الّذي يميّز واقع المسلمين.
3. عدم توصّل محاولات النّهوض إلى النتائج الرجوّة.
4. ظهور مبادرات إصلاحيّة عبر التّاريخ على الصّعيد الفردي، كمحاولة الأمير عبد القادر ومحمّد إقبال، أو على الصّعيد الجماعي، كالحركات مثل: حركة الإخوان المسلمين، وجمعية العلماء المسلمين، أو الدّول مثل: التجربة التركيّة والماليزيّة.

5. حياة الأمّة في تخلّف وغياب عن التّأثير والفعل، رغم امتلاكها لعوامل النّهوض.

أهداف الدّراسة:

إن مثل هذه الدراسة تعدّ مجالا خصبا للدّعوة إلى الله على الوجه الصحيح؛ إذ إنّ ميدان الفكر الإسلامي، والعقدي بالذات تميز بمركزية الإنسان، وارتباط كلّ الأحكام بحياته، فيكون من الأهميّة التّركيز على ما تستقيم به أحواله عبر:

1. تتبّع تاريخ المسلمين واستنتاج أسباب الرّكود الّذي تعاني منه الأمّة، والوصول إلى تصوّر الحلول الممكنة لأزمات المسلمين.

2. بيان إمكانيّة النّهوض من جديد وتحقيق الانبعاث مرّة أخرى إذا ما اجتمعت الأسباب والعوامل المؤديّة إليه، وعرض بعض النّماذج الّتي جسّدت الفاعليّة بما يحيي الأمل ويجعل البعيد ممكنا.

3. غياب تصوّر شامل للمسلم عن حقيقة نفسه ووظيفته.

4. عدم إفادة المسلم من القرآن الكريم وهو بين يديه.

5. ضرورة تفعيل الإيمان وترجمته إلى عمل وسلوك لتحصل به الفائدة المرجوّة.

6. غياب الفاعليّة عن حياة المسلم؛ لانعدام شروطها ووسائلها.

الدّراسات السّابقة:

بعنوان البحث لا توجد دراسات سابقة، لكنّ الدّراسات الّتي لها علاقة بأحد جوانبه، فقد وجدت بعض الدّراسات الّتي تدور حول فكر أو كتب **جودت سعيد**، منها:

الدّراسة الأولى: قراءة في كتاب «**مفهوم التغيير**»، يقول **محمّد نفيسة**:• إنّ الكتاب الّذي نحن بصدده يدور حول التّغيير، ويبحث فيه **جودت سعيد** مواضيع كثيرة، وهو الحلقة الأولى في سلسلة «**مجالس بئر عجم**»، الّتي أجراها مع شرائح المجتمع المختلفة، ويبدأ الكتاب

• **محمّد نفيسة**: محرّر في قسم الدّراسات في دار «دار الفكر المعاصر»، حرّر سلسلة مؤلفات لـ**جودت سعيد** بعنوان: «بئر عجم».

بمقدمة، ثمّ خمسة مجالس هي: تأمّلات في اللّغة، سياسة الإسلام، الرّشد شريعة الله، والغي شريعة الطّاغوت، القانون، الإسلام ومفهوم التّغيير.

ويُعلّق في الأخير أنّ الكتاب خطوة رائدة ومهمّة نحو تعميم الوعي والثقافة والعلم وممارسة الانفتاح على الأمّة والتّواصل مع النّاس من خلال المسجد، ويرى أنّه يتميّز ببساطة عباراته وشرحه للمفاهيم الكبيرة بأسلوب سهل، وأنّه يفيد في منهجية التّفكير والبحث والحوار.

الدّراسة الثانية: حول كتاب «حتّى يغيّروا ما بأنفسهم»، تقول كاتبة المقال نور الهدى الّذي نشر في *04* سبتمبر *2009*: إنّ جودت سعيد اهتمّ بإعادة الحياة للمصطلحات القرآنية، مثل: التغيير، السنن.

والكتاب يدور حول: مفهوم التغيير، كيفيّة التّغيير، سنّة التّغيير في القرآن، الترتيب في مجالي التّغيير، ما بالقوم نتيجة لما بأنفسهم مع بيان سبب تعطيل العقل، وقضية المنهج والتّطبيق، وجانب تعميم السّنة، ويخلص إلى أنّه على المسلمين إن أرادوا التّغيير إدراك جوانب النّقص في أنفسهم، وسبل إصلاحها، وعدم إلقاء اللّوم على الآخرين.

الدّراسة الثالثة: تناول فيها **عادل التّل** أعمال **جودت سعيد** في مقالات نشرها في «**مجلّة البيان**» الأعداد: *63*، *64*، *65*، *66* صنّفها ضمن أخطار النّزعة الماديّة في العالم الإسلامي محذّرا من خطر هذا التيار، الّذي يشكّل تحديا اعتقاديا خطيرا يرفض أصحابه الامتثال لأوامر الله، ويغيّرون معاني الآيات بما يخدم أفكارهم الهدّامة ويصنّف مع **جودت سعيد** صهره **خالص الجلبي**، ويعتبره تلميذا مخلصا له.

وهذه الدّراسات حول فكر جودت سعيد لها علاقة بموضوع البحث من حيث كونها تعرض أفكاره، والّتي لها علاقة بعناصر جزئيّة في البحث.

خطّة البحث:

بغية الإلمام بموضوع البحث، رسمت خطّة حاولت من خلالها الإحاطة بأهمّ عناصره؛ حيث قسّمت البحث إلى مقدمة مهّدت بها للموضوع، لأقسّم العمل بعد ذلك إلى أربعة فصول، كان أوّلها فصلا تمهيديا وقد اندرج تحته مبحثين اثنين دار أوّلهما حول حقيقة الإنسان في القرآن الكريم من حيث المبدأ والوظيفة والمصير؛ للوقوف على ما يساعدني على طرق موضوع

فاعليّة المسلم، في حين دار الآخر حول حقيقة الإنسان في الفكر الإسلامي المعاصر، من حيث النّقاط ذاتها، وقد اخترت بعض المفكّرين المعاصرين حسب ما رأيته يخدم الموضوع.

أمّا الفصل الأوّل فقد كان المبحث الأوّل منه حول حقيقة الإنسان عند **جودت سعيد**، في حين دار المبحث الثاني حول الفاعليّة كما يراها **جودت سعيد**.

أمّا الفصل الثاني فيتناول شروط الفاعليّة ومستوياتها كما يراها **جودت سعيد**؛ حيث تناول المبحث الأوّل الشّروط، والآخر المستويات.

ليسلّط الفصل الثالث الضّوء على بعض النّماذج التطبيقيّة، وقد قُسّم إلى مباحث ثلاث، تطرّق الأوّل إلى شخصية اعتبرها المؤرّخون شخصية المجدّد على رأس المائة الأولى، وهو **عمر بن عبد العزيز**، ليشمل الآخر حركة لها من الوزن ما جعلها ممتدّة الجذور في الزّمان والمكان في القرنين الثامن والتّاسع عشر الميلادي، وهي **الحركة السنوسيّة**، وختمتُ بحركة إصلاحيّة معاصرة نعايشها، يقودها **محمّد فتح الله كولن**، الّذي انتشرت تجربته الإصلاحيّة في تركيا، وامتدت لتشمل القارات كلّها.

المنهجيّة:

إنّ هدفي من الدّراسة هو كشف فاعليّة الإنسان وحقيقتها في الفكر الإسلامي، وعند جودت سعيد؛ لهذا سأعتمد على الآليات الإجرائيّة للمنهجين الوصفي والتّحليل؛ لبيانها والوصول في النهاية إلى توضيح مستوياتها وشروطا.

المصادر والمراجع:

لقد اشتغلت هذه الدّراسة على ستة كتب لـ**جودت سعيد**، وهي:

«الإنسان كلّاً وعدلا»، «العمل قدرة وإرادة»، «كن كابن آدم»، «مذهب ابن آدم الأوّل»، «حتّى يغيّروا ما بأنفسهم» و«الإنسان والحقّ»، وشكّلت هذه الكتب مصادر الدّراسة.

كما اعتمدت مراجع متنوّعة، منها كتب التّفسير أذكر منها: «التّحرير والتّنوير» لـ **الطّاهر بن عاشور**، «في ظلال القرآن» لـ **سيّد قطب**، وكتب الفكر، ومنها: «شروط النّهضة»

و«وجهة العالم الإسلامي»... لـ **مالك بن نبي**، و«خلافة الإنسان بين الوحي والعقل» لـ **عبد المجيد النّجار**، «طرق الإرشاد في الفكر والحياة» لـ **محمّد فتح الله كولن**.

صعوبات البحث:

- لقد واجهتني صعوبات متعدّدة أثناء القيام بهذه الدّراسة، ولعلّ أبرزها هو اتّساع الموضوع، وخاصّة الفصل الأوّل منه إلا أنّه تمّ التّغلّب عليها بحصر الفصل على أنّه فصل تمهيدي كمدخل للبحث، وليس هو البحث في حدّ ذاته.
- وطبعا جمع المصادر، وقلّتها باعتبار **جودت سعيد** مفكر معاصر، وكتبه غير متوفرة عندنا إلا القليل منها.
- ولا أخفي صعوبة البداية للدّخول في البحث والدّرس، وما يعتري الإنسان من تهيب، وعدم الرّضا بالجهد المبذول.

وختاما أتقدّم بالشّكر الجزيل إلى الأستاذ المشرف على جميل إشرافه على هذا العمل.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل التمهيدي:

الإنسان في القرآن الكريم والفكر الإسلامي

المبحث الأوّل: الإنسان في القرآن الكريم.

تمهيد:

يقول الله ﷻ مخاطبا الأمّة الإسلاميّة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونَ الرَّسُول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾،[1] وهي آية تخاطب ضمير المسلم، وتبثّ فيه معاني القوّة والحضور ليحقّق العزّة لنفسه ولأمّته، فتكون فعلا أمّة وسطا، لتستحق الخيريّة والشّهادة على النّاس، والّتي ليست راجعة لعنصر أو لعرق أو للون معيّن، بل لما تقوّمت به هذه الأمّة، وهو الإسلام، وما تشرّف بحمل أمانته الإنسان فكان خير المخلوقات، وأجلّها على الإطلاق.

وهو الّذي لم يحفل القرآن الكريم بمخلوق سواه، ونلاحظ ذلك في تعدّد آياته وسياقاتها البديعة، واضعة يدّ الإنسان على أرضية صلبة لينطلق بخطى رصينة، وزادٍ كافٍ من الحقائق والمعارف نحو تحقيق ذاته، والنّجاح في أداء المهمّة الّتي خلق لأجلها، وتشرّف بتكليفه بها.

والله ﷻ أنعم على الإنسان بما يعجز عن حصره من النّعم، وأكرمه كما لم يكرم أحدا غيره، ولم يتركه جاهلا تتقاذفه أوهامه وخيالاته، ويحيط به الهوى والانحراف، بل ركّب فيه فطرة نقيّة تميل إلى الحقّ وتعاف الظّلال، ثمّ زوّده بعقل كان سببا في تكريمه، وعلى أساسه كان التّكليف، وكان التّمييز بينه وبين المخلوقات الأخرى، وهّديه بالوحي الّذي حمله إليه المصطفون الأخيار عليهم السّلام، فعرّفوا الإنسان بخالقه، ودلّوه على سبل الفلاح في الدّنيا والآخرة، كما دلّوا الإنسان على ما يحقّق له التّوازن والاستقرار بأن عرّفوه بحقيقة نفسه، ومنزلته بين الموجودات؛ ليكون دافعا له على الاستعلاء عن الموجودات المحيطة به، فلا يستقرّ في ذهنه أن يعظمها أو يعبدها على الإطلاق، وإذا قلنا إنّ الوحي عرف الإنسان بنفسه، فإنّ هذا التّعريف كان شرحا لحقائق الوجود الإنساني كاملة، من حيث الأصل والمأتى وما تخلّله من تفصيل دقيق لمشهد الخلق، ومادّته، وغيرها ومن حيث بيان قيمته في الوجود، وما يتبع ذلك من ضبط للعلاقات حتّى يلتزم الإنسان بهذا الضّبط، فيعرف خالقه، وواجبه نحوه، ويعرف وظيفته في الوجود وعلاقاته المختلفة فيه، وكذلك من حيث مصيره وهو الأهمّ؛ لأنّه لم يتوضّح إلاّ بالرّسالة الخاتمة على اعتبار أنّ الرّسالات السّابقة حُرّفت حقائق الوحي فيها، أمّا القرآن الكريم فقد فصّل في هذه القضيّة

---

[1] سورة البقرة، الآية: (143).

بشكل لا يذر لبسا، فكيف وضّح للإنسان حقيقة نفسه؟ وكيف بصّره بمنزلته ووظيفته في الوجود، وهل وضع أمامه تصوّرا كاملا لمصيره بعد الموت؟

لم يحفل القرآن الكريم بمخلوق كما حفل بالإنسان، ودليل ذلك تعدّد آياته وسياقاتها المختلفة، والّتي وضعت يد الإنسان على زمام الانطلاق بخطى رصينة، وزادٍ كافٍ من الحقائق والمعارف نحو تحقيق ذاته، والنّجاح في أداء المهمّة الّتي خُلِقَ لأجلها، والله ﷻ لم يتركه جاهلا محتارا تتقاذفه أوهامه وخيالاته، ويحيط به الهوى والانحراف، بل أنزل إليه كتابا مفصّلا غير ذي عوج، بسط أمامه حقيقة نفسه، وحقيقة أصله، وخالقه، والكون المحيط به، وبيّن له وظيفته في الحياة، ثمّ مصيره بعدها، وقد كان أوّل ما نزل من الوحي على سيّدنا محمّد ﷺ مفسّرا لقضايا الوجود كلّه، فقد قال ﷻ في محكم تنزيله: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الاكْرَمُ. الّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ. عَلَّمَ الانْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. كَلاَّ إِنَّ الانْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى. إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾.[1]

هذا ما سأجيب عنه في عناصر هذا المبحث بإذن الله.

1. أصل ومبدأ الإنسان:

يصعب على الإنسان إنْ لم نقل يستحيل عليه الاضطلاع بمهمّته الوجوديّة ما لم يعرف من هو؟ من خالقه؟ كيف خلقه؟ ولِمَ خلقه؟ فإذا أدرك ذلك وعرف حجم نفسه سَهُل عليه التّعامل معها، ومع خالقه، ومع ما حوله من الموجودات.

وآيات القرآن متعدّدة وكثيرة، ما يجعل قارئها يعجب من دقّتها، وحقائقها، وسياقاتها المتنوّعة في سرد المعلومات وبسطها أمام العقول، لتتلقّفها وتكون لها نورا، وقد كان اهتمام القرآن الكريم بالإنسان متميّزا، ومنفردا؛ حيث عرض قصّة خلقه كاملة، مفصّله، تتسلسل مشاهدها تسلسلا بديعا، وقد ساق القرآن مشهد الإعلام الإلهي للملأ الأعلى بمقدم وافد جديد في قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الارْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيْهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.[2]

---

[1] سورة العلق، الآيات من: (1 –8).

[2] سورة البقرة، الآية:(30).

وساقت الآيات مشهد الخلق الأوّل بتفاصيل الحوار بين الله ﷻ وملائكته الكرام من جهة، وبينه ﷻ وإبليس من جهة أخرى، ما يتيح للقارئ تخيّل المشهد.

وتتعدّد الآيات الّتي تذكر أصل الإنسان، فتذكر تارة أنّه خُلق من تراب، كما في قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾،[1] وتارة أخرى تذكر أنّه خُلق من طين كما في قوله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ﴾،[2] وتارة ثالثة تذكر الآيات أنّ الله تعالى خلقه من صلصال فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾.[3] والحقيقة أنّ ما ذُكر في هذه الآيات، وغيرها ليس تعارضا، بل هو تنوّع؛ لأنّ التراب إذا اختلط بالماء صار طينا، والطّين إذَا يبس صار صلصالا، وإذَا بقي رطبًا رَاكدًا لمدّة طويلة نتن ريحه، واسودّ لونه وصار حمأً، وهذا التنوّع راجع إلى تقرير الطّبيعة الماديّة للإنسان، فهو مخلوق من طينٍ، والمقصود آدم ﷺ، أمّا ذريته فقد خلقت كما قال ﷻ: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الانْسَانِ مِنْ طِيْنٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾.[4]

والملاحظ هنا بساطة أصل الإنسان، إن لم نقل وضاعته، لكنّ هذا المخلوق حظيَ بالتّكريم الإلهي – كما سبقت الإشارة إليه– فكيف نفسّر، أو نجمع بين وضاعة أصله، واستحقاقه لهذا التّكريم؟ خاصّة إذا عرفنا أنّه سيكون خليفة في الأرض، وسيحمل أمانة عجزت مخلوقات أعتى وأقوى منه على حملها، وهي أمانة الدّين والتّكليف، ومن البديهي أنّ استحقاقه لهذه المنزلة في الوجود سببه شيء فيه من الرّفعة ما يستقيم به معنى التّشريف، وإلاّ كان عبثا وصفه كذلك، لكنّ مخلوقا استهانت به المخلوقات الّتي وُجدت قبله، وأقصد الملائكة وإبليس، لما علموا من وضاعة مادّة خلقه، لا بدّ أن يكون متميّزا بشيء زائد على المادة موضع الاحتقار، فهل وُجد ما ميّزه، وأقنع الملأ الّذي شهد قصّة خلقه؟ وما هو البعد الآخر في حقيقة الإنسان، والّذي بسببه صار أكرم المخلوقات؟

[1] سورة الحجّ، الآية: (05).

[2] سورة ص، الآية: (71).

[3] سورة الحجر، الآية: (26).

[4] سورة السجدة، الآيات: (7 –8).

إنّ الّذي ميّز الإنسان، وجعله يستحق هذا التّكريم والتّفضيل على سائر المخلوقات، هو شقّه الثاني؛ أي نفخة الرّوح الإلهيّة فيه، وقد قال ﷻ: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾.[1] فكان بهذه النّفخة محور الكون كلّه، وله خُلِقَ وسُخِّرَ.

ونحن بصدد ثنائيّة قرّرها القرآن الكريم، وهو يبصّر الإنسان بحقيقته وأصله، وأنّه يجمع بين طبيعتين، طبيعة أولى مادية تمثّلها كتلة طين لازب، ثمّ سلالة من ماء مهين، يكون بها مخلوقا يبدأ ضعيفا وينتهي إلى الضّعف لقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الارْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا اشُدَّكُمْ وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ الَى أَرْذَلِ العُمْرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾.[2]

هذه طبيعته الماديّة، أمّا الطّبيعة الأخرى فعلى العكس من الأولى، روحانية سامية، جعلت من الإنسان مخلوقا مكرَّمًا فضّله الله ﷻ على سائر المخلوقات، فسوّاه بيده، ونفخ فيه من روحه، وأسجد له ملائكته، وشرّفه بخلافته في الأرض، وكرّمه بالعقل، والقدرة، والإرادة؛[3] حيث قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾،[4] وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الارْضِ خَلِيْفَةً﴾،[5] وقال: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الاسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ انْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.[6] ثمّ بعد هذا التّفضيل، وهذا التّكريم بإسجاد الملائكة له، حمل الأمانة الّتي عجزت عنها المخلوقات الأخرى، فاستحقّ الرّفعة والسموّ، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الامَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالارْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الانْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾؛[7] أي إنّه كان كذلك قبل تحمّل الأمانة،

---

[1] سورة الحجر، الآية: (29).

[2] سورة الحج، الآية: (05).

[3] محمّد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانيّة في القرآن، ط7، 1426 هـ - 2005م، دار الفكر، دمشق/ سوريا، ص: 43.

[4] سورة الإسراء، الآية: (70).

[5] سورة البقرة، الآية: (30).

[6] سورة البقرة، الآيتان: (31 و32).

[7] سورة الأحزاب، الآية: (72).

يغلب على طبيعته هذا الوصف، أمّا وأنّه تحمّل أمانة الدّين وما فيها من أحكام تُكوّن منهجا شاملا يستغرق الحياة على امتدادها ويقوّمها بنظام إلهي يوجّه الإنسان إلى سبيل الهداية والرّشاد، والرّقي في مراتب الكمال والصّلاح، من خلال منظومة عقديّة تشريعيّة، أخلاقيّة شاملة جليلة المصدر، واضحة المعالم، مضمونة العواقب لمن التزم بها، ولم يحد عنها، وهو موضع جهد الإنسان نحو الصّلاح، ومناط المسؤوليّة والجزاء يوم القيامة.

إنّه مظهر من مظاهر قدرة الله ﷻ في عظمته، وإبداع صنعه في تحويل مادّة مهينة إلى مخلوق عجيب، وفي ذلك يقول الطّاهر بن عاشور في إشارة منه إلى أصله المادي في تفسيره «التّحرير والتّنوير»، وذكر التراب والطّين والصلصال وغيرها، أنّها من مظاهر قدرة الله ﷻ، فيقول: «والمقصود من ذكر هذه الأشياء، التنبيه على عجيب صنع الله تعالى، إذ أخرج من هذه الحالة المهينة، نوعا، هو سيّد أنواع عالم المادّة ذات الحياة».[1]

وهي قدرة الله ﷻ الّتي يقف أمامها الإنسان ليزداد يقينا في ضعفه هو وعظمة خالقه، والإنسان في الحياة العاديّة إذا أراد أن يصنع شيئا، يختار له أجود وأفضل المواد الأوليّة؛ ليضمن إمكانيّة نجاحه فيه، ومع هذا فإمكانية الفشل هي الغالبة، فإنّ كان هذا التّركيب البسيط يعتبره الإنسان قدرة معينة، ويعتدّ بها مع احتمالات الفشل، أو عدم الوصول إلى المبتغى، فكيف ينظر إلى هذا الإبداع الّذي يدل على أنّ الله واحد، ولا إله غيره؟ ثمّ إنّ المظهر الآخر للقدرة الإلهيّة في هذه النّقطة، هو ما أشار إليه الطّاهر بن عاشور في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾،[2] يقول الطّاهر بن عاشور: «وإنّما ذكر للملائكة المادّة الّتي منها خُلِقَ البشر ليعلموا أنّ شرف الموجودات بمزاياها لا بمادّة تركيبها»؛[3] وهو إعلام للإنسان أيضا، حتّى يعرف أنّ البشر جميعا متساوون في مبدإ الخلق، وفي مادّته، فيمنعه هذا من الاستكبار على بني جنسه من جهة، ومن جهة أخرى يكون باعثا له على التّركيز على ما به يرقى إلى مراتب أسمى، فيكون مجالا للتّنافس، ولبذل المزيد من الجهود لإدراكها.

فنفخة الرّوح إذن هي سبب تكريم الإنسان، وهي الّتي استتبعت سجود الملائكة لآدم عليه السلام؛ حيث يقول ﷻ: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِين فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ

[1] محمّد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ط1، 1420 هـ-2000م، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ج 13، ص 34.

[2] سورة الحجر، الآية: (26).

[3] محمّد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج 13، ص 33.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فِيهِ من رُوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾،[1] وسجود الملائكة كان طاعة وامتثالا لأمر الله ﷻ، وهم المجبولون عليها، ومن جهة أخرى إدراكا منهم لشرف ورفعه الإنسان بالرّوح، أمّا إبليس وقد كان مع الملائكة فرفض الامتثال لأمر الله، في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِين﴾،[2] يستعرض الطّاهر بن عاشور مشهد إباء إبليس ورفضه السّجود، وهو ما أوخذ عليه؛ لأنّ رفضه كان استعلاء وغروراً، فقال: «والله تعالى لما أمر الملائكة بالسّجود لآدم قد علم استحقاق آدم ذلك بما أودع فيه من القوّة الّتي قد تبلغ به إلى مبلغ الملائكة في الزّكاء والتّقديس، فأمّا إبليس فغرّه زكاء عنصره، وذلك ليس كافيا في التّفضيل وحده، ما لم يكن من ذلك العنصر مهيّئاً إياه لبلوغ الكمالات؛ لأنّ العبرة بكيفية التّركيب».[3]

وقد ترتّب على مسألة السّجود مصير كلّ من الملائكة وإبليس تباعا للقبول أو الرّفض، وهي مسالة أثبتت مرّة أخرى منزلة الإنسان في الوجود، وبين الموجودات بدءًا بالّتي شهدت خلقه، وما ترتّب عنه من أحداث وتغيّرات، إذ كشف الله ﷻ للإنسان طبيعة الملائكة، وما هي عليه من أدب وطاعة لتكون قدوة للإنسان، وطبيعة إبليس من غرور ومعصية ليكون تحذيرا له من هذا السّلوك حتّى لا يكون سببا في هلاكه، وحتّى يعلم الإنسان حقيقة الشّيطان، فلا يستجيب لوسوسته فيما سيأتي، وإلى هذا التغيير أشار سيّد قطب في تفسيره «في ظلال القرآن» أي أثر خلق آدم عليه السلام على الموجودات آنذاك؛ حيث أصبحت معه ثلاثة نماذج فيقول: «وكذلك نجد في المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله: نموذج الطّاعة المطلقة والتّسليم العميق، ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت، وطبيعة ثالثة هي الطّبيعة البشريّة».[4]

ولا يتوقّف سيّد قطب عند هذا البيان والتّصنيف، بل يزيد قائلا: «فأمّا الطّبيعة الأولى فهي خالصة لله، وقد انتهى دورها في هذا الموقف بهذا التّسليم المطلق، وأمّا الطّبيعتان الأخريان فسنعرف كيف يتجهان»،[5] ويرى سيّد قطب أنّ معصية إبليس واستكباره يظهران طبيعته الشّريرة، فيقول: «وتظهر هنا خليقة الشّر متمثّلة في إبليس الّذي عصى أوامر الخالق، وامتنع عن

[1] سورة ص، الآية: (71 –72).

[2] سورة الأعراف، الآية:(11).

[3] محمّد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ج 13، ص 34.

[4] سيّد قطب، في ظلال القرآن، ط3، 1397 هـ –1977م، دار الشّروق، بيروت، ج1، ص 56.

[5] المرجع نفسه، ج1، ص 57.

تنفيذها غرورا واستكبارا».[1] ثمّ يذكر الإنسان وهو الصّنف الثّالث أو الطّبيعة الثّالثة ممثّلة في آدم، ومنزلته بين المخلوقات عامّة، وبين الطّبيعتين السّابقتين، فيقول: «ثمّ يأتي التّكريم في أعلى صوره لهذا المخلوق الّذي يفسد ويسفك لكنّه وُهِبَ من القدرات والمؤهّلات ما رفعه على الملائكة، فإلى جانب سرّ المعرفة، وهب الإنسان سرّ الإرادة، وحريّة الاختيار، وازدواج طبيعته، وحمله لأمانة الهداية إلى الله».[2]

ويمكننا أن نستنتج من إيراد القرآن لحقيقتي الإنسان، أو لطبيعتيه الماديّة والرّوحيّة، وما تشير إليه الأولى من ضعف، والأخرى من قوّة واستعلاء، وأنّه أراد له أن يكون مخلوقا متوازنا يجمع بين الضّعف أمام خالقه، والقوّة والسّيادة على الكون في الوقت ذاته، وهو توازن من شأنه أن يرتفع بالمستضعفين من مناخ الذّل والخضوع، وينزل بالجبابرة من علياء الطّغيان والتكبّر، ليلتقي الجميع على الصّراط المستقيم، وكلّ يسعى إلى الهدف ذاته، وهو عمارة الأرض، وتحقيق الخلافة فيها، بعدما عرف الإنسان حقيقة نفسه، وحقيقة ونِسَبَ الموجودات من حوله، وأدرك حجم قدراته، وهي معرفة من شأنها أن تحقّق له النّجاح فيما هو مقبل عليه، والّتي بدونها سيكون إمّا ضعيفا خانعا، أو طاغية مستكبرا عاليا.

2. وظيفة الإنسان:

إنّ هذا المخلوق الّذي حضي بالتّكريم الإلهي، وبتغيير نسب الموجودات بعد مقدمه، لا بدّ أن يكون له دور في الوجود، ووظيفة تليق بالحفاوة، والمنزلة الّتي خصّه بها، لا سيما وأنّ لكلّ شيء في الوجود وظيفة، سواء في ذلك الجماد والنبات والحيوان، والكون كلّه، وطبعا للإنسان وظيفة أيضا، فكلّ كائن في الوجود يخدم من هو أعلى منه مرتّبة، لتجتمع الكائنات كلّها لخدمة الإنسان، من حيث كونها مسخّرة له، ومخلوقة لأجله، وستكون وسائل يستخدمها للقيام بوظيفته هو، فما هي هذه الوظيفة؟ وما دامت الموجودات يخدم فيها كلّ كائن من هو أعلى منه، فمن يخدم الإنسان؟ ومن هو الأعلى منه مرتّبة؟

---

[1] سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج1، ص 57.

[2] المرجع نفسه، ص 57.

إنّه الخالق ﷻ، الّذي خلق الإنسان، وكلّفه بالعبادة والطّاعة، ولذلك خلقه، فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونْ﴾.[1] فالعبادة هي الغاية الّتي خُلق لأجلها الإنسان، وهي بمفهومها الشّامل تعني تعلّق الحكم الإلهي بكلّ فعل من أفعال الإنسان، فيكون الإنسان محقّقا للعبادة إذا تحرى ذلك الحكم في كلّ أفعاله، فما من حكم إلاّ وكتاب الله ينطوي عليه؛ لقوله ﷻ: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾،[2] وهي: «فعل اختياري مُنَافٍ للشهوات البدنيّة، تصدر عن نيّة يُراد بها التقرّب إلى الله تعالى».[3] وهي بمعنى أشمل: تطهير النّفس، وتزكيتها، بما فيها مباشرة الكون بإقامة العمران، ومخالفة النّفس والهوى بطاعة الله.

والعبادة – بهذا– هي وسيلة تحقيق الخلافة الّتي ارتضاها الله ﷻ للإنسان، فهو خلقه خليفة ابتداءً، لكن لم يجبره أن يكون خليفة له، وإلاّ لن يكون معنى –حينئذ– للعبادة والاجتهاد في الطّاعة، إنّما خلق فيه الاستعداد ليكون خليفة، ثمّ ترك له حريّة الاختيار، وهو موضع التّكليف، فمن أخطأ طريق العبادة، وتركه فقد فشل في الاختيار الّذي يحقّق له غاية وجوده، وهو بهذا أخطأ غاية وجوده، وسيكون عندها خليفة لغير الله باتّباع الهوى، أمّا إن سلك طريق العبادة، فإنّه سيحقّق حتما وظيفته في الوجود، وهي الخلافة على الوجه الصّحيح، وسوف يكون حينئذ خليفة لله ﷻ باتّباع الهدى، والسّير في طريق الطّاعة.

ويربط الشّيخ ابن عاشور بين قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الارْضِ خَلِيفَةً﴾،[4] وما قبلها في أنّ الله تعالى عطف بحرف «الواو» قصّة خلق آدم عليه السلام بذكر خلق السّموات والأرض لبيان وحدانيّة الله وعظمته، ثمّ الاستدلال على بطلان الشّرك «وتخلّصا من ذكر خلق السّموات والأرض إلى خلق النّوع الّذي هو سلطان الأرض والمتصرّف فيها»،[5] ثمّ ينتقل إلى تحليل معنى كلمة خليفة، فيقول: إنّها تحتمل معنيين:

–أحدهما: «المعنى المجازي: والمراد هو الّذي يتولى عملا يريده المستخلِف، مثل: الوكيل، والوصي، وهو استعارة أو مجاز مرسل وليس بحقيقة؛ لأنّ الله ﷻ لم يكن حالا في الأرض ولم

---

[1] سورة الذاريات، الآية:(56).

[2] سورة الأنعام، الآية:(38).

[3] الرّاغب الأصبهاني، تفصيل النّشأتين وتحصيل السعادتين، تحقيق: د. عبد المجيد النجار.ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، (1407 هـ –1988م)، ص 157.

[4] سورة البقرة، الآية:(30).

[5] محمّد الطّاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص 381.

يكن يعمل عملا ثمّ أوكله إلى الإنسان»،[1] وهو الرأي الّذي يرجحه ابن عاشور حسب سياق كلامه.

-أمّا المعنى الآخر: ويقصد به المعنى الحقيقي، فيقول: «وإمّا أن يراد من الخليفة معناه الحقيقي إذا صحّ أنّ الأرض كانت معمورة من قبل بطائفة من المخلوقات».[2]

ويخلص الشيخ ابن عاشور إلى أن معنى الخلافة هو قيام الإنسان بتنفيذ أوامر الله ونواهيه متبعا في ذلك الوحي الّذي يأتيه من عند الله، أو بما يلهمه به من هداية نحو الخير والصّلاح.

ثمّ يختم مسألة إخبار المولى تبارك وتعالى الملائكة بمقدم الخليفة، على أنّها إعلام للملائكة، وإخبار لهم بما خفي عليهم من فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما خالط نفوسهم من سوء ظنّ به، وليكون كالاستشارة لهم على وجه التّكريم فيكون كما يقول: «تعليما في قالب تكريم، ولتنبيه الملائكة على ما دقّ وخفي من حكمة خلق آدم كذا ذكر المفسّرون».[3]

ولما كانت العبادة هي سبيل الإنسان الوحيد لتحقيق إنسانيته، فإنّه متى كان عابدا مطيعا لله، فإنّه يكون محقّقا لها، ومتى تقاعس عن العبادة، تسفل إلى درجة أقل من درجة الأنعام، قال ﷻ: ﴿أَرَأيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾،[4] وما دام خُلق لغاية فإنّه ما م يحققها لم يكن إنسانا، وذكر الله تعالى العقل في الآية للدّلالة على أنّ العقل من أوجه تكريم الإنسان وتفضيله، لكنّه لا يكون عقلا موديا لغرض الوصول إلى الحقّ إلاّ إذا اهتدى بالشّرع، وما الاهتداء بالشّرع إلاّ عبادة الله تعالى، وما العبادة إلاّ تحقيق للخلافة. وإن كانت طبيعة الإنسان الماديّة تعينه على التكيّف والانسجام مع الأرض الّتي خلق منها، والّتي جعلها الله تعالى مسرحا لخلافته، وجعلها مسخّرة له، فإنّ الشّق الآخر من طبيعته، وهو الجانب الرّوحي يعينه على السّمو إلى الأفق الأعلى، ويمكنه من تلقي أوامر الله ونواهيه، ليستطيع تحقيق الخلافة، وبترقيه في مجالات العبادة يزداد قربا من مستخلِفِه وهو الله ﷻ، الّذي جعل الخلافة أحد أوجه تكريم الإنسان، والّذي تعهد الإنسان بما يساعده ويمكنه من تحقيقها منذ خلقه؛ إذ علّمه الأسماء كلّها، وأثبت للملائكة

---

[1] محمّد الطّاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، ص 385، ج1.

[2] المرجع نفسه، ج1، ص 385.

[3] المرجع نفسه، ج 1، ص 386.

[4] سورة الفرقان، الآيتان: (43– 44).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

عجزهم عن ذلك، ثمّ تعهد ذريته بالوحي والأنبياء تترا، وختمه برسالة للعالمين، وهدي باق إلى قيام السّاعة، ثمّ زوّده بعقل قادر على الفهم والإدراك، وأراده أن يبقى مستندا مستنيرا بالوحي الخالد حتّى يضبط بذلك علاقاته، ويرسم له منهاج حياته، بما يعينه على أداء وظيفته الّتي تحدّدت قبل خلقه، وهذا ما يُستفاد من كلمة «جاعل»، وله بعد وجوده في الحياة كامل الحريّة والاختيار في السّعي لتحقيقها، إمّا لله أو لغير الله حتّى يترتب على ذلك مصيره، وجزاؤه العادل يوم القيامة.

وفي الحقيقة أنّ من يختار خلافة الله ﷻ — وهو طبعا من أحسن الاختيار— سيسعى جاهدا في تحقيق عبوديته لله تعالى، ولا يرضى أن يكون عبدا لسواه، فكلّ ما سواه مخلوق، والإنسان هو أفضل المخلوقات، وأكرمها، وهي الّتي خلقت وسخرت له، أمّا إن اختار أن يكون خليفة لغير الله، انحطّ إلى أسفل سافلين ونزل من علياء التّكريم الّذي خُصّ به؛ لأنّ التّوحيد هو السبيل الوحيد للمحافظة على مراتب التّكريم، وعلى إنسانيته وأفضليته على الموجودات.

3. مصير الإنسان:

كما حدّد القرآن الكريم للإنسان حقيقته وأصله، وبيّن له وظيفته، لم يغفل تحديد مصيره له، وإلاّ وقع في العبث الّذي صارت إليه معظم الفلسفات، والمذاهب الفكريّة وخاصّة الماديّة منها، والّتي غابت عنها حقيقة مصير الإنسان، واكتفت بالعدم الّذي قضى على طاقات الخير في الإنسان، وخارت به جميع قواه ما دام صائرا إليه، بينما القرآن الكريم، وضح بما لا يدع مجالا للغموض أو الشكّ مصير الإنسان، وكانت حقائقه واقعيّة، منطقيّة وجد فيها الإنسان ضالّته، وانطلق بها إلى نشر قيم الخير والحقّ، وتفانى في طاعة الله، والعمل الصّالح، ما دام يؤمن بأنّه هناك يوم يجازى فيه عن كلّ ما قدّم، وهو من مقتضيات الإيمان بالله، وشرط من شروط عهد الأمانة الّذي قطعه على نفسه، وأساس من أسسه، والّذي يجعل عمر الإنسان مدّة للابتلاء، والأرض مسرحا لنشاطه، واليوم الآخر هو يوم الأوبة والرّجوع إلى الله لينال جزاءه بعد الامتحان، ويعرف مصيره بعد الجزاء.

وبهذا ينفرد الإسلام عن باقي الدّيانات — وهي محرّفة — بربط الدّنيا بالآخرة، رباطا وثيقا، يحدّد للإنسان مأتاه ومصيره ويحذّر من يضيّع دنياه ويفسدها، أو يعيش حياته بلا هدف، أو يوجّه فاعليّته، وجهده في حياته إلى تحقيق أهداف قريبة، ماديّة، فيخسر خسرانا مبينا، على خلاف من يعرف هدفه وغاية خلقه، ويعرف حقيقة نفسه، وكذلك يعرف مصيره الّذي يحدّده

بيده، وباختياره الحرّ، وبما يقدّمه في فترة الابتلاء، فيكون دافعا له على الانطلاق بثبات واطمئنان نحو النّهوض بالتّكاليف، والقيام بأعباء الخلافة، وتحقيق إنسانيته مثبتا بذلك أهليته للتّكريم والتّفضيل الإلهي، وقدرته على أداء الأمانة الّتي حملها، ودافعه يقينه بمصيره بعد الموت ورجوعه إلى الله ﷻ وهو القائل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونْ﴾،[1] كما قرّر ﷻ أنّ للإنسان مستقراً ومتاعاً إلى حين؛ أي لا بدّ من رجوع ومصير، فقال: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الارْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ الَى حِيْنٍ﴾؛[2] ولمعرفة المصير أثر كبير على الإنسان، وهو ما نستنتجه من تكرار ذكر القيامة والحساب في القرآن الكريم؛ إذْ إنّ الله ﷻ وهو أعلم بما خلق يعرف حاجة الإنسان إلى هذا التّذكير حتّى يكون حافزًا له على العمل الصّالح، والامتثال لأوامر الله وحسن عبادته، كما يكون تحذيرا له من المعصية، والتّكاسل عن أداء الفرائض، فيتحقّق له التّوازن بين الرّجاء والخوف، بما يضمن له الإقبال على الحياة، يحذوه في ذلك الشّعور بالمسؤوليّة لوجود الجزاء والحساب بعد انتهاء الحياة الدّنيا، الّتي كانت مدارًا للصّراع بين الخير والشّر خلال حياة البشر يتجاذب الإنسان فيها استعداده للتّرقي نحو الكمال بطاعة الله واجتناب الهوى والشّيطان، أو للتسفّل نحو الدّونيّة بالمعاصي وطاعة الشّيطان، وهو في هذا يحقّق خلافته لله أو لغير الله، يقول سيّد قطب في «الظّلال»: «لقد هبطوا جميعا إلى الأرض، آدم وزوجه، وإبليس وقبيله، هبطوا ليصارع بعضهم بعضا وليعادي بعضهم بعضا، ولتدور المعركة بين طبيعتين وخليقتين: إحداهما ممحضة للشّر، والأخرى مزدوجة الاستعداد للخير والشّر»،[3] وفي هذا تمام البلاء، وصيرورة الأمور لتجري كما أرادها الله ﷻ، ويواصل سيّد قطب: «وكُتب على آدم وذريّته أن يستقروا في الأرض، ويمكثوا فيها، ويستمتعوا بما فيها إلى حين، وكتب عليهم أن يحيوا فيها ويموتوا، ثمّ يخرجوا منها فيبعثوا.. ليعودوا إلى ربّهم فيدخلهم جنّته أو ناره في نهاية الرّحلة الكبرى».[4]

---

[1] سورة العنكبوت، الآية:(57).

[2] سورة الأعراف، الآية: (24).

[3] سيّد قطب، في ظلال القرآن، ج 3، ص 1270.

[4] المرجع نفسه، ج 3، ص 1270.

وهذه العودة تكون بعد إتمام الإنسان «الحين» المذكور سابقا في الآيات الكريمة من سورة الأعراف ﴿ولَكُمْ فِي الارْضِ مُسْتَقَرٌ وَمَتَاعٌ الىَ حِيْنٍ﴾؛ أي إلى نهاية المهلة، والمدّة المحدّدة لكلّ إنسان طالت أو قصرت حسب تقدير العزيز الحكيم.

وغياب هذا الأمر على الإنسان يغيّر مسار حياته، وأهدافه فيها؛ إذْ نلاحظ فرقا كبيرا بين من يعيش الحياة على أساس مصير معلوم محدّد، يدفعه إلى الاجتهاد في الطّاعة والعبادة، ويرى الموت جسرا يربط بينها وبين حياة أخرى بيده أن يجعل منها متعة دائمة، وتنعما لا يبلى أبدا، ودليله في ذلك الوحي الإلهي الصّادق، والعقل الّذي يفرض وجود حياة أخرى، وآخر يعيش الحياة على أساس أنّها كلّ شيء، ولا يعلم لها نهاية محتومة إلاّ الموت الّذي يراه بداية العدم، ونهاية العبث الّذي سيطر على أفكاره، واستقرّ في نفسه، بسبب غياب حقيقة المصير عنه.

وقد تكرّر ذكر القيامة، والسّاعة كثيرا في القرآن الكريم، وما ذلك إلاّ لعظم الأمر؛ حيث يقول القرطبي: «فالقيامة لما كثرت أهوالها، سمّاها الله ﷻ في كتابه، بأسماء عديدة، ووصفها بأوصاف كثيرة».[1]

كما دلّت السنّة النّبويّة في أحاديث كثيرة جداً على العودة والمصير إلى الله ﷻ، فقال ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيْهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيْهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيْهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ إلاَّ يَوْمُ الجُمُعَةِ».[2]

وبيان المصير للإنسان دال على حكمة الخالق الّتي تقتضي بعث العباد للحساب والجزاء، وتتنزّه عن العبث، وهو دال أيضا على عدله ﷻ، فهو خلق الخلق لعبادته، وجعل وظيفة الإنسان في الأرض خلافة، وحمّله أمانة، وأرسل الرّسل، وأنزل الوحي لينير به طريق عباده، وبعد ذلك خيّر الإنسان وجعله حرًّا في أن يسلك أيّ الطّريقين شاء، ومن النّاس من استقام على طاعة الله، ومنهم من جانب الصّواب والحقّ، وأغواه الشّيطان فحاد عن الصّراط المستقيم، وغرق في المعاصي والشّهوات، ثمّ بعد ذلك يتساويان!؟ ولا يتميّز الصّالح عن الطّالح! وقد قال ﷻ: ﴿أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾،[3] وهذا ظنّ الكفّار الضّالين الّذين يقنعون أنفسهم بأنّ الكون خلق عبثا وباطلا، ولا بعث بعد الموت ولا مصير، ومنه فلا فرق بين الكافر

[1] محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، التّذكرة في أحوال المولى وأمور الآخرة، طبعة المكتبة السّلفيّة، المدينة المنوّرة، ص 214.

[2] صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة، ج2، رقم الحديث 854، ص 585.

[3] سورة القلم، الآيتان: (35 - 36).

والمؤمن، ولا بين المصلح والمفسد، ولا التّقيّ والفاجر، بينما يقول ﷻ: ﴿أَمْ نَجْعَلُ الّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالمُفْسِدِيْنَ فِي الارْضِ أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ﴾.[1]

وشتّان بين المآلين، بين الفوز العظيم والخسران المبين، ولعلّ دور هذا التّحديد، وهذه العاقبة عظيم على الإنسان بحيث يجعله يحيا ليجني ثمار هذه الحياة، وكلٌّ يتمناها ثمارًا زكيّة.. ومصيرا سعيدا، فيكون دافعا لفاعليته حتّى تبلغ ذروتها في إعمار الأرض طاعة لله، ورجاء في رحمته ونيل رضوانه.

وهو في ذلك يسير مطمئنا، مركّزا جهده في استثمار نعمة الحياة من أجل غاية سامية، وتكون نظرته إليها نظرة الإنسان إلى جسر يوصله إلى بيته، وممر لا تَحَوُّل عنه. ولا ركون إليه كما لا ينبغي احتقاره وشطبه، بل وجب فهمه على حقيقته، واستعماله على وجهه لأهميته والحاجة إليه كمعبر، وكمزرعة لحياة أخرى، أو كفرصة لأداء مهمة ما يجعلها وسيلة إلى الهدف، وليست هدفا في حدّ ذاتها..

وهذا يتحقّق للإنسان متى عرف ربّه فعرّفه بحقيقة نفسه، ومنزلته بين الموجودات، حتّى يعصمه من عبادتها واحتقار نفسه أمامها، كما يقيه من تأليه نفسه والاغترار بما أنعم الله ﷻ، فيصل بهذا الغرور إلى نسيان حقيقته وضعفه وحاجته إلى خالقه.

ومن هنا ندرك قيمة المنهج القرآني في إعطاء الإنسان ما يحتاج من معرفة غيبيّة، وما يساعده منها على معرفة نفسه، ومعرفة دوره في الوجود حتّى تتوضّح نسب الموجودات لديه، ويتمكّن من ضبط علاقاته المتعدّدة، بدءًا، بعلاقته بخالقه، والّتي يجب أن تنضبط على مسألة العبوديّة لله، وتتلخّص في طاعة أوامره واجتناب نواهيه، ثمّ علاقته بالوجود من حيث كونه المخلوق المحوري فيه، والّذي لأجله خلق الكون كلّه، فيترسّخ في حسّه شرفه بين الموجودات، والّذي لا كسب له فيه، بل هو منّة وتفضّل من خالقه الّذي يستحق أن يعبد ويحمد، ثمّ علاقته بالإنسان، والّتي يجب أن تحكمها وحدة الخالق، ووحدة المصدر، ووحدة المصير، فتتحقّق بذلك الأخوّة الإنسانيّة الّتي أرادها القرآن ركيزة من ركائز مجتمع إنساني صالح، قائم على المودّة والمحبة بين النّاس.

---

[1] سورة ص، الآية: (28).

المبحث الثّاني: الإنسان في الفكر الإسلامي.

سيكون هذا المبحث كسابقه مجرّد بيان وتوضيح لزوايا معيّنة، ولن يكون بحثا متخصّصا في الإنسان؛ لأنّني أردته وسابقه والفصل الأوّل كلّه مدخلا إلى صلب الموضوع، وهو فاعلية الإنسان، لذا سأتناول النّقاط ذاتها الّتي تناولتها في المبحث الأوّل وسأعرض بعض النّماذج الّتي تطرّقت إلى بيان حقيقة الإنسان، من حيث مأتاه ووظيفته ومصيره من خلال أبحاث أو آراء بعض المفكّرين الإسلاميين.

ولئن لاحظنا أبحاث المفكّرين المسلمين في قضيّة الإنسان من جهة العناصر المذكورة، نجدها تعتمد على مرجعيته الخالدة، وهي الوحي قرآنا وسنّة، وعلى اختلاف الطّرح يبقى الأصل والعمدة في ذلك، وهو الّذي حلّ كثيرا من الألغاز الّتي حيّرت فكر الإنسان وشغلته على مرّ الزّمن، والّتي لم يتوصّل إليها اعتمادًا على العقل وحده ليكون في ذلك دلالتان هامّتان، هما:

– عجز العقل عن إدراك الأمور الغيبيّة، وهذا ثابت بالتّجربة، وبإقرار الإنسان نفسه، وبالنتائج الّتي لم تقنع الإنسان يوما، ومنها حاجة الإنسان إلى مصدر خارجي يزوّده بهذه الحقائق.

– حاجة الإنسان إلى معرفة هذه الأمور الضّروريّة الّتي لا يستطيع التّحرّك بدونها، فهي الّتي تمكنه من تحديد معالم طريقه، ومنهج حياته.

ورغم ما وصل عقل الإنسان إليه من إبداع، وكشوفات استحقّ لأجلها أن يكون موضع التّكريم في الإنسان، إلاّ أنّه لم يسعف المفكّرين، ولا الفلاسفة ولا العلماء من التّوصّل إلى تعريف الإنسان بنفسه، ولا بحكمة خلقه، ولا بمصيره بعد الموت، وهي كما أشرت سابقا معرفة تولى الوحي تزويد الإنسان بها، ببيان لا حاجة معه إلى توضيح أو زيادة.

فهل الفكر الإسلامي تكبّد جانبا من المعاناة المذكورة؟ وكيف نظر المفكّرون الإسلاميون إلى هذه القضايا الّتي فصل فيها القرآن؟ وهي أصل الإنسان ووظيفته ومصيره؟

وفيما يلي تفصيل ذلك.

1. أصل ومبدأ الإنسان:

لم يخرج الفكر الإسلامي عمّا قرّره الوحي حول الإنسان، وذلك راجع إلى أمور لعلّ أهمّها، وأوّلها أنّه من عند الله العليم الحكيم؛ ولأنّه كذلك فإنّ ما أخبر به من حقائق كان فريدا، ولم يوجد في غيره، ولم يكن العقل وحده ليصل إلى ما أعطاه الوحي لمحدوديته، ولحاجته إلى جهة عليا تلقّنه ما عجز عن إدراكه والوصول إليه، ولعلّ الفلسفات جميعها، قديمها وحديثها، والّتي زجّت بالعقل في متاهات بحث الإنسان وهو لا قِبَلَ له بها، ولا حول له في الخوض فيها، قد منيت في معظمها بالفشل؛ لأنّها لم تؤسس على علم حقيقي بالإنسان، ولم تستند إلى مموِّل يقيني بما غاب عن العقل من حقائق، أمّا الفكر الإسلامي، ونظراً إلى انطلاقه من الوحي واستناده عليه فإنّه نجح إلى حدٍّ بعيد في بيان أصل الإنسان، ووظيفته ثمّ مصيره، فما هو أصله ومأتاه في الفكر الإسلامي؟

يرى الرّاغب الأصفهاني في كتابه «تفصيل النّشأتين» أنّ آدم عليه السلام هو أبو بشر، والبشريّة انحدرت من سلالته، فقال: «والإنسان إنسانان، أحدهما آدم الّذي هو أبو البشر ويجري من سائر النّاس مجرى البذر الّذي منه أنشئ غيره»،[1] وفي هذا إثبات منه، بما لا يدع مجالا للشّك، أنّ الإنسان الأوّل هو آدم عليه السلام، وعلى صورته باقي البشر، حتّى يكون ردّا دامغا على نظرية التّطوّر والارتقاء، ثمّ يواصل الرّاغب في بيان أنّ الله سبحانه وتعالى تولّى خلق الإنسان بيده فقال: «والبارئ تعالى قد تولّى بنفسه إيجاده وتربيته وتعليمه، كما نبّه عليه بقوله عزّ وجلّ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[2]»،[3] والرّاغب هنا يتكلّم عن آدم عليه السلام باعتباره الإنسان الأوّل، ثمّ يذكر أنّ بنيه، وهم البشر بعده، أوجدهم الله سبحانه وتعالى أيضا لكن بطريقة مغايرة، فيقول: «والثاني بنوه، وموجدهم أيضا البارئ عزّ وجلّ، ولكن جعل إنشاءهم، وترتيبهم، وتعليمهم بوسائط جسمانيّة وروحانيّة»،[4] ويقصد بالوسائط الجسمانيّة الأبوين، والوسائط الرّوحانيّة الملائكة، الّذين يتولون إنشاء الجنين في رحم أمّه، كما ورد في الخبر أنّ: «الولد يكون أربعين يوما نطفة، ثمّ يصير علقة، ثمّ يصير مضغة، ثمّ

---

[1] الرّاغب الأصفهاني، تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين، ص 71.

[2] سورة ص، الآية:(75).

[3] الرّاغب الأصفهاني، تفصيل النّشأتين، ص 71.

[4] المرجع نفسه، ص 71.

يبعث الله ملكا فينفخ فيه الرّوح»،[1] وقد استدّل بهذا الحديث لتأكيد ما قرّره سابقا في تقسيم الإنسان إلى آدم وإلى بنيه، ثمّ يمضي في كتابه ليذكر العناصر الّتي خلق منها آدم عليه السلام، وقد أشار إليها القرآن، وذكر أنّ الله سبحانه وتعالى جعل آدم في سبع درجات، فقال في موضع أنّه خلقه من تراب إشارة إلى المبدأ الأوّل، كما في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾،[2] ثمّ أشار إلى مبدإ آخر إلى الطّين الّتي هي جمع بين الماء والتراب، كما في قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِيْنٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾،[3] وإلى آخر في إشارة إلى الحمإ المسنون الّذي كان طينا، لكنّه تغيّر بمخالطة الهواء أدنى تغيّر، فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾،[4] وقال في آخر من طين لازب، كقوله جل جلاله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِيْنٍ لاَزِبٍ﴾،[5] وإشارة أخرى إلى الصّلصال الّذي كان طينا أو حمأ مسنونا، ثمّ ييبس فتسمع له صلصلة، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الانْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾،[6] والفخّار هو الصلصال الّذي أصلح بالنّار لهذا حصل للإنسان شيء من الشيطنة بقدر ما في من أثر النّار، ثمّ يتابع الرّاغب في بيان أصل الإنسان، وينتقل إلى بيان شقّه الرّوحاني بعدما ذكره بشقّه المادي، والّذي لاحظنا أنّه ذكر فيه الدّرجات الّتي لا تفيد حسب كلامه التّرتيب والانقلاب، بل هي تعابير قرآنيّة مختلفة لشيء واحد هو المادّة الّتي سوى الله تعالى منها آدم، ثمّ أكملها بنفخة الرّوح فيه ليكون إنسانا بعد ذلك.

وجمعُ الإنسان لهذه الطّبيعة المزدوجة جعله يكون صالحا للدّارين، كما يقول الرّاغب: «فالإنسان واسطة بين جوهرين، وضيع هو الحيوانات، ورفيع هو الملائكة»،[7] وذلك؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى خلق الأحياء على ثلاثة أصناف: صنف للدّنيا وهو الحيوان، وصنف ثانٍ للآخرة، وهم الملائكة والملأ الأعلى، ونوع ثالث للدّارين، وهو الإنسان الّذي رشّحه الله عز وجل لخلافته، وعمارة أرضه في الدّنيا ومحاسبته في الآخرة.

---

1 الرّاغب الأصفهاني، تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين، ص *71*.

2 سورة آل عمران، الآية: (*59*).

3 سورة الأنعام، الآية: (*02*).

4 سورة الحجر، الآية:(*26*).

5 سورة الصافات، الآية: (*11*).

6 سورة الحجر، الآية:(*26*).

7 الرّاغب الأصفهاني، تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين، ص *90*.

وبعد الرّاغب نعرّج على عبد المجيد النّجار الّذي تناول قضية وجود الإنسان في كتابه «خلافة الإنسان» الّذي بيّن من خلاله كيف جاء الوحي الإلهي لبيان حقائق الوجود على لسان الرّسل جميعا حتّى ختمه بمحمّد ﷺ، وأجاب بوضوح على هذه القضايا، وفصّل بما لا يدع مجالا للتّساؤل ولا للشّك.

والوجود الإنساني جزء من القضيّة باعتبار الإنسان واحدا من المخلوقات، الّذي يتميّز عنها جميعا، من حيث الخلق والتكوين والمنزلة، ثمّ من حيث الوظيفة، في الوجود، ومن الطّبيعي أن تختصّ ببيان عقدي في نطاق المنظومة الوجوديّة، كما شرحتها العقيدة الإسلاميّة.

ويتكلّم عبد المجيد النّجار عن أسبقية ماهية الإنسان في علم الله على وجوده العيني، الّذي ما هو إلاّ تحقيق لهذه الماهية، أمّا وجوده العيني فبدأ بلحظة خلق آدم عليه السلام خلقا متكاملا ليس للتطوّر والانقلاب من حالة إلى حالة مكانا، وهذا ما بيّنته سابقا، وما دلّت عليه الآيات القرآنيّة.

ولما كان الإنسان جزءاً من العالم، ويكوّن معه طرفا في ثنائية الوجود؛ أي وجود الخالق، ووجود العالم، ويشمل كلّ ما سوى الله سبحانه وتعالى. يذكر الدكتور النّجار وحدة الإنسان والكون في مظاهر عديدة، من حيث كونهما طرف الثنائيّة الوجوديّة، كما أنّهما يشتركان في الأصل والمصير، فكلاهما مخلوق من عدم وصائر إلى الله عزّ وجلّ، إلاّ أنّ الإنسان أرفع الموجودات كلّها بتقرير الله سبحانه وتعالى حين قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيْرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾.[1]

وهذا التفضيل للإنسان ظهر مع قصّة خلقه، وما أحدثته لحظتها من تغيير في النسب بين الموجودات، إذ تميّز بقطبيّة بينها، وكان سببا في فوز الملائكة برضا الله لما سجدوا له، ونيل إبليس غضب الله ولعنته بامتناعه عن ذلك.

وإلى جانب التّفضيل والتّكريم يذكر تسخير الكون للإنسان الّذي هو دلالة واضحة على رفعة الإنسان وعلوّ شأنه؛ إذ سخّر الله كلّ الموجودات، وهيّأ الكون ليكون صالحا لاستقبال الإنسان، ويكون ملائما لوظيفته الوجوديّة فيه.

ولعلّ إشعار الإنسان بوحدته مع الكون يبعث في نفسه الاطمئنان، والقرب من الكون فيكون دافعا له على الانطلاق فيه لتحقيق وظيفة الخلافة في الأرض، كما أنّ إحساسه بالعلوّ

[1] سورة الإسراء، الآية: (70).

والرّفعة يدفعه ليكون فعّالا مؤثّرا، دون وحشة أو خوف، ودون تعظيم أو عبوديّة لمظهر من مظاهره وهو المسخّر له، وما يساعده على الحفاظ على الخلافة، وعدم تضييعها بالشّرك والإحساس بالصّغار أمام جبروتها.

وهذا التفات – من عبد المجيد النّجار – واضح إلى بيان أصل وحقيقة الإنسان، والّتي بمعرفتها يعرف ما حوله، ويدرك تمام الإدراك حجم الموجودات، وعلاقاتها، ومن ثمّ يحدّد علاقاته هو بها، ويعطي لكلّ منها حقّها، ويعرّف بعد ذلك كلّه ما له وما عليه.

فيستعدّ لأداء ما عليه، وكلّه يقين في خيريته على الموجودات وصغاره أمام خالقه.

ولم أشأ الإطالة في عرض آراء مفكرين آخرين؛ لأنّ الكلام كلّه سوف يعود إلى المصدر الأوحد لهم جميعا، وهو القرآن الكريم والسّنة النّبويّة، وخارج الوحي لن يجد الإنسان شيئا عن أصله على اعتبار أنّه غيب لا طاقة للعقل به. كما أنّه لم يثبت من يخالف هذه الحقيقة.

2. الوظيفة:

وبعد التطرّق إلى أصله ومأتاه نمرّ إلى بيان الوظيفة الّتي أنيطت به، والمهمة الّتي لأجلها خلق، ولقد مرّت بنا في المبحث الأوّل، فكيف نظر إليها المفكّرون في الإسلام؟

ولعلّ الرّاغب الأصفهاني قال كلمته وفصّل تفصيلا جيّدا في «تفصيل النّشأتين»، وقد ذكر الغرض الّذي لأجله وُجد الإنسان، فقال: «الغرض منه أن يعبد الله ويخلفه وينصره ويعمر أرضه كما نبّه الله تعالى عليه بآيات في مواضع مختلفة».[1]

وكلام الرّاغب يؤكّد أنّ مرجعية الفكر الإسلامي في قضايا الوجود هي الوحي، وما تضمّنه من يقينيات وحقائق.

ونستنتج من كلامه وإشاراته أنّ الغاية الّتي خلق لأجلها الإنسان هي الخلافة في الأرض، والّتي تتم بالعبادة عن طريق تطبيق أوامر الله – المسْتَخْلِفْ – ونواهيه، والّتي تحقّق في النّهاية مصالح الإنسان الشّاملة، والّتي يرى الرّاغب أنّها – الخلافة – هي سبب كون الإنسان خير الخليقة، وزبدة العالم، ولم يكن فضله على المخلوقات بقوّة الجسم، أو بطول العمر، أو بشدّة البّطش، ولا بحسن القوام واللّباس، ولا بالطّين الّتي خُلق منها، بل بجعله خليفة، وذلك في قوله:

---

[1] الرّاغب الأصفهاني، تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين، ص 104.

«بل ذلك بما خصّه الله تعالى به من المعنى الّذي ضمّنه فيه والأمر الّذي رشّحه له (ويقصد به الخلافة)»،[1] الّتي تقوّم بها الإنسان، واستحقّ التّكريم والتّفضيل على باقي الموجودات، والخلافة لا تعني الطّاعة المجرّدة؛ لأنّ الملائكة في ذلك هم خير الطّائعين والمسبّحين، لا يفترون عن العبادة والذّكر، ومع هذا لم يرقوا إلى مرتبة الإنسان لشيء لم يوجد فيهم، فعبادتهم وطاعتهم فطرة جبلوا عليها، ولا إرادة لهم في فعلها، بل هم مفطورون عليها، أمّا الإنسان فعبادته قائمة على الإرادة، وعلى الاختيار الحرّ، كما أنّ طريقه إلى هذا الاختيار محفوف بالشّهوات، وكيد الشّيطان يتربّص به في كلّ حين، فإنّ تغلّب على كلّ هذه العوائق، واختار عباده الله ﷻ ونهى النّفس عن الهوى، وتصدى للشّيطان وكيده، استحقّ بكلّ جدارة القرب من الله، والتّكريم الّذي هو أهل له.

أمّا عبد المجيد النّجار في كتابه «خلافة الإنسان بين الوحي والعقل»، فيرى أنّ مسألة تحديد الهدف للوجود الإنسانيّ قد حسمتها العقيدة الإسلاميّة، وتكفّل الوحي بإجابة الإنسان عن أسئلته الفطريّة حول مأتى الموجودات، ومصيرها، وحقيقة الحركة فيما بين المأتى والمصير، ويقصد بالوحي الوحي الممتدّ طول حياة البشريّة إلى الوحي الخاتم، الّذي جاء مفسّرا لمسائل الوجود تفسيرا واضحا، وكافيا لإشباع خواطر الإنسان وتساؤلاته في هذه القضية، كما في غيرها.

ودليل ذلك أنّ أوّل ما نزل من الوحي بيّن المأتيّ ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾،[2] ثمّ بيّن المصير فقال: ﴿إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾،[3] ويرى عبد المجيد النّجار أنّ القرآن الكريم «يُبصّر الإنسان بغاية وجوده كما يبصّره بالمنهاج الخلافي المؤدّي إلى تلك الغاية»،[4] ويحمل العقل مسؤولية الفهم والتّنزيل والإنجاز، الّذي هو التّكليف الّذي يترتب عليه الجزاء إحسانا أو إساءة، ويقصد بالمهمة الوجوديّة: الخلافة والّتي تعني عنده: «تنفيذ مراد الله في الأرض وإجراء أحكامه فيها»،[5] ويستدل بحديث الرّسول ﷺ الّذي رواه ثوبان؛ إذ قال: «من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر فهو خليفة لله في الأرض، وخليفة كتابه وخليفة رسوله».[6]

---

1 الرّاغب الأصفهاني، تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين، ص *101*.

2 سورة العلق، الآيتان: (*1* و*2*).

3 سورة العلق، الآية:(*8*).

4 عبد المجيد النّجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط*3*، *1428* هـ -*2005*م، طبعة دار الغرب الإسلامي، ص *29*.

5 المرجع نفسه، ص *61*.

6 أورده المتقي الهندي في كنز العمال، رقم *5564*.

ويركز عبد المجيد النّجار على معنى الخليفة، ويراه عنصرًا أساسيا تنبني عليه مهمّة الإنسان الوجوديّة، ويقول إنّ معناها هو الخلفيّة عن الله ﷻ، والّتي تقتضي أن يكون همّ الخليفة الأكبر هو ترقيه نحو مستخلفه، وأن يحصر جهده، وهمّه في ترقية ذاته، وتنميتها، والعمل الدّؤوب من أجل هذا التقرّب وهذا التّرقي، ولا يكون له ذلك إلاّ عبر منهاج العبادة تطبيقا لبيان الله القطعي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾،[1] ومنهاج العبادة يقتضي من الإنسان التّعامل مع الأرض الّتي هي مسرح خلافته، لتكون طريقه إلى تعظيم الله وإكباره، والخضوع له، والسّعيّ الدّائم إلى نيل مرضاته.

وهذه المهمّة اقتضت ثنائيّة المادّة والرّوح في الإنسان، والّتي جعلته الوحيد المضطلع، والصّالح لأداء هذه المهمة، وجوهرها وضع الإنسان على قمّة الكون وتكريمه بنفخه الرّوح ليكون قادرا على تلقي الأمر الإلهي بهذه الطّبيعة الرّوحيّة، وينفّذه في الواقع على الأرض بطبيعته الماديّة، وهذه هي العبادة الّتي هي روح الخلافة، والّتي هي ترقٍ دائم عبر التّفاعل مع الكون، وتعميره في خطّ العبوديّة لله تعالى.

كما تظهر قيمة تحديد هذه الوظيفة، أو الهدف الوجودي فيما تعانيه البشريّة من ارتكاس إلى مهاوي الهلاك؛ لانعدام هذا الهدف، وصيرورة الحياة عندهم إلى العبث والعدم.

ويشير عبد المجيد النّجار إلى أنّ الله قد أرشد هذا الخليفة منذ الخلق الأوّل إلى منهاج هذه الخلافة، وسبيل تحقيقها القائم على دعامتين:

الأولى: وهي الوحي، والنّور الإلهي الهادي إلى الحقّ.

الثانية: وهي مكمّلة للدّعامة الأولى، وهي العقل الّذي هو منبع ثانٍ للحقيقة، ويكون مكمّلا لما وقف عنده الوحي، لا سيما وأنّ حياة الإنسان متقلبة عبر الزّمن ممّا ينشئ فيها من الأوضاع المستجدة، والأحوال المستأنفة ما لا يكون مشتملا في أحكام الوحي.

ولما كان تأسيس منهج الخلافة راجعا إلى الوحي، فإنّ تنفيذه راجع إلى العقل، الّذي هو أساس التّكليف، وما التّكليف إلاّ تحقيق وإنجاز لمهمّة الخلافة.

ويشير عبد المجيد النّجار إلى نقطة مهمّة جدًّا، وهي تنزيل نصوص الوحي على الواقع، وهو الّذي يعبّر عنه بالوصل بين الوحي والواقع، والّذي يكون تنفيذ الخلافة عبره، ويتم به ترقي المستخلَف نحو المستخلِف طاعة وعبوديّة لنيل رضوانه، والفوز بمجاورته في الجنّة. ويضرب مثلا

---

[1] سورة الذّاريات، الآية: (56).

لنجاح التّنزيل بالرّعيل الأوّل الّذين فهموا النّصوص، وتمكّنوا من تنزيلها في واقع الحياة كأحسن ما يكون التّنزيل، ووفّقوا في تحقيق الفاعليّة بنجاح باهر، إلاّ أنّ واقع المسلمين اليوم ليس كذلك؛ لأنّه يقتضي فقها مستأنفا للتّنزيل، وفهم مقاصد الشّرع لتحقيق مصالح الإنسان، وهو السّاعي إلى تحقيق مهمّة وجوده وهي الخلافة.

أمّا عبد الحميد أبو سليمان فيرى في كتابه «الإنسان بين شريعتين»، أنّ تحديد الهدف ووضوح الرؤية هو جادّة الطريق وطوق النجاة للأفراد والأمم، فمن لا يعرف ذاته، ولا يدرك حقيقة وجهته ضائع، كحال التّائه في الصّحراء، الّذي لم يحدّد لنفسه وجهة يسير عليها، وهدفا يأمل الوصول إليه عبر هذا الطّريق، فإنّ الهلاك هو مصيره، وإن لم يهلك استهلك عمره في تغيير الطّرق وتجريب المسالك، والسّبل دون فائدة؛ [1] لأنّ معرفة الذّات، واليقين بحقيقة الوجهة الصّحيحة الّتي تقوده إلى المصير، يجعله يمضي فيها بعزم وثبات، ويرسم معالم سير، وأهدافا يُلْزِمُ نفسه بتحقيقها، والاجتهاد في بلوغ غاياته المرسومة له سلفا بوحي خالقه الأعلم بما يصلح له ويصلحه، مطمئنا إلى منطلقاته ضمن رؤية عقديّة حضاريّة لا غبش ولا تشوّش فيها، واضحة المعالم، والغايات، والوسائل، والّتي توصله إلى أن يكون خليفة مصلحا، يبني حضارة تشبع حاجات الإنسان الرّوحيّة والماديّة، قانونها شريعة الحقّ والعدل.

وفعلا معرفة الإنسان لأصله، ثمّ لوظيفته، ولمصيره تحدّد له رؤيا واضحة، وتعفيه من عناء التّيه والبحث وتحديد الوجهة بعد الاقتناع بوجود أو عدم وجود مصير يصير إليه بعد الحياة، والّذي على أساسه يكون سلوكه وتعامله مع الكون والموجودات والحياة نفسها.

وأرى أنّ المسلم، وهو يحضى بالتّكريم كإنسان فإنّه كذلك يحضى بالتّكريم كمسلم، دلّه دينه وكتابه على الطّريق، ووضع قدميه على الصّراط المستقيم الّذي يحقّق له السّعادة في الدّارين، في الدّنيا بما حقّق له من التّوازن والاستقرار النّفسي، والآخرة بما جعله يعرف ما له وما عليه، وما يجب فعله، وما يجب تركه، وهو في هذا كلّه سيّدا مسخّرًا للموجودات كلّها، وفي الوقت ذاته عبدا طائعا لله وحده.

ومنه فإنّ تحديد الوحي لمهمّة الإنسان، ووظيفته في الوجود، خير وراحة للإنسان، وإعفاء له من عناء البحث والتّجريب، وحفظ له من التّيه والضياع، ووضع يديه على بداية الطّريق ليبدأ دون تضييع العمر فيما لا ينفع.

---

[1] عبد الحميد أحمد أبو سليمان، الإنسان بين شريعتين، ط2، 1428 هـ - 2008م، دار السّلام، مصر، ص73.

أمّا فاروق الدّسوقي فيرى في كتابه «استخلاف الإنسان في الأرض»[1] أنّ مسألة خلافة الإنسان في الأرض أصل من أهمّ الأصول الاعتقاديّة في الإسلام، ويربطها بالتّوحيد، فيقول: «فإذا كان التّوحيد الإسلامي هو إفراد الله عزّ وجل بالألوهيّة والرّبوبيّة، فإنّ تفرّد الإنسان بخلافته لله عزّ وجل في الأرض هو التّطبيق العملي للتّوحيد الإسلامي على جميع المستويات المختلفة».[2]

وهو هنا يجعل الخلافة، الجانب التطبيقي للتّوحيد، ويُلفت الانتباه في استنتاجه من مسألة سجود الملائكة لآدم ورفض إبليس، أنّ الملائكة بسجودهم يُقرُّون لآدم بالفضل، وأنّهم مستعدون لمساعدته على أداء مهمته، أمّا موقف إبليس فهو عدم الاعتراف بل ورفضٌ لهذه الأفضليّة، ثمّ توجيه فاعليته وقدرته، وفترة مكوثه في الأرض لمنع الإنسان من تحقيق خلافته لله في الأرض حسب ما جهر به في القرآن؛ حيث قال: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ المسْتَقِيمَ. ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ وعَنْ ايْمَانِهُمُ وَعَنْ شَمَائِلِهُمْ ولاَ تَجِدَ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾.[3]

والخلافة حسب طرح فاروق الدسوقي تحدّد للإنسان علاقتين: الأولى بينه وبين الله وهو مُستخلفه، وهي علاقة طاعة وخضوع، وعبوديّة، واستجابة لأوامر ونواهي المستخلِف، أمّا الأخرى فذات طبيعة مغايرة؛ إذ هي علاقة سيطرة، وتسخير، وهيمنة، واستغلال من طرف الخليفة لكلّ ما جُعِلَ مستخلفا فيه، وهو الكون، وبهذا المعنى يكون الخليفة عبدا وسيّدا في آن واحد، وتكون الخلافة بذلك عبوديّة وسيادة في الوقت ذاته، فلزم من كلّ هذا أن تكون كلّ من العبادة والسّيادة وجهان لحقيقة واحدة، وهما قائمان كشيء واحد في الذّات الإنسانيّة، ولا يمكن الفصل بينهما، ويكون تحقق الأولى ملزما لتحقق الأخرى، والإخفاق في الأولى إخفاق في الأخرى.

وهذه الآراء وغيرها تجتمع على أنّ لمعرفة الإنسان دوره ووظيفته في الحياة أثر كبير على مردوده فيها، وتحقيق لفاعليته المنشودة في عمارة الكون وتحقيق الخلافة، بما يبعده عن العبثيّة الضّاربة في الفلسفات الغربيّة، وما أوقعت فيه الإنسان من غبش في الرّؤيا وحيرة لا يجد ما يزيلها عنه سوى إغراقه نفسه في ماديّة قضت على روحانيته، وعلى منظومة القيم الكفيلة بإصلاح الإنسان وإخراجه من الإفساد والشّر، وما حياة الإنسان المعاصر اليوم، إلاّ دليل على هذا؛ حيث

---

[1] فاروق الدّسوقي، استخلاف الإنسان في الأرض، ط2، (1406 هـ - 1986م)، المكتب الإسلامي، بيروت، ص 6.

[2] المرجع نفسه، ص 6.

[3] سورة الأعراف، الآية: (16 – 17).

يعيش في فراغ روحي رهيب، وغَرَقٍ في أوحال المادّة والشّهوات، والّتي لم يجد فيها ضالّته، وكثرة حالات الانتحار، والأمراض النّفسيّة شاهد على ذلك مادام لا يعرف من هو؟ وما وضعه في الوجود؟ وما دوره فيه؟

من هنا ندرك دور الوحي في حياة الإنسان، وأثره في توضيح الرؤية الكّونيّة، وضبط العلاقات فيها بما يضمن له المعرفة اليقينيّة لقضايا الكون الخفيّة، والبعيدة في آن واحد عن إدراك عقله؛ لكونه المرجع والمصدر لفهم الكليات والعلاقات الكّونيّة، ودور العقل هو التفكر والتّدبر في الوحي؛ لفهم قضايا الكون، وقضايا الإنسان وتحديد منظومة معرفيّة متكاملة تغني الإنسان عن البحث والضياع، وتزوّده بكلّ ما يحتاجه من وسائل التّرقي والتّسامي نحو خالقه محقّقا مهمته الّتي خلق لأجلها على خطّ العبوديّة، والطّاعة لله عبر التّعمير والبناء والعمل الصّالح.

3. مصير الإنسان:

إنّ الكلام عن مصير الإنسان لا ينفصل عن ما ذكر في العنصر السّابق؛ أي الوظيفة، بل التلازم بينهما دائم لا ينقطع؛ لأنّ المصير مبني على مدى نجاح أو فشل الإنسان في مهمته الّتي أنيطت به، وبوظيفته الخلفية الّتي كلّف بها، والّتي جعلت المصير بمثابة الحصاد بعد الزّرع والكدّ، أو النّدم والحسرة بعد الكسل والبوار، ولئن كان الفكر الإسلامي قد نجا من تخبّط الفلسفات عامّة، والماديّة خاصّة في مسألة البعث بعد الموت، والمصير بعد القضاء، فإنّه ما كان لينجو لولا مرجعية الوحي، الّذي فصل في مسألة الموت والبعث، كما لم تفصل فيه الفلسفات أو كتب الوحي الأخرى؛ إذ حسم مسألة الموت، وحقيقة البعث، وخلود الإنسان، وقد جاءت آياته وسوره ببيانها، وبيان الجزاء الأخروي المبني على ما قدّمه بعد الحياة الفانية، وأثناء فترة ابتلائه في الحياة الدّنيا، يقول ﷻ في محكم تنزيله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾،[1] وقال في الّذين خاب سعيهم في الحياة الدّنيا:﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالاخْسَرِينَ اعْمَالاً. الّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُوْلَئِكَ الّذينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ اعْمَالهُمُ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا﴾.[2]

---

[1] سورة الكهف، الآية:(107).

[2] سورة الكهف، الآيات:(103، 104، 105).

وقد أشار الرّاغب في «تفصيل النّشأتين» إلى هذه القضية؛ حيث اعتبر من ينكرون البعث من الطبيعيين جماعة من النّاس، عميت أبصارهم وبصائرهم، وشغلهم عن الحق شغفهم بالشّهوات والملذات المختلفة، وغرقوا فيها، ويعتبرهم أناسا تخلوا عن خواصهم، فمن خاصية الإنسان النّظر في العواقب الّتي توصّل الإنسان إلى إدراك حتمية وجود مصير بعد هذه الحياة الدّنيا، ويقول: «فلو لم يكن للإنسان عاقبة ينتهي إليها غير هذه الحياة الخسيسة المملوءة نصبا، وهما، وحزنا، ولا يكون بعدها حال مغبوطة لكان أخس الحيوانات أحسن حالا من الإنسان».[1]

ويواصل الرّاغب طرحه لهذه المسألة، فيقول إنّ السّفه والعبث نهاية المطاف، إذا كان مصير الخلق المحكم، والبنية البديعة للإنسان، هو الفناء والزّوال، ويستدل بقوله ﷻ: ﴿كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ انْكَاثًا﴾.[2]

ويزيد طرحه بعدا وعمقا إذا ما استعرضنا رأيه في قضية الموت؛ حيث يعتبر الموت بوابة الإنسان وطريقه إلى الخلود، وإلى النّعيم الأبدي، ولا غرابة في أن يحبه من وثق بمآله عند الله، فقال: «ولم يكرهه إلاّ أحد رجلين: أحدهما من لا يؤمن بالآخرة، وعنده أنّ لا حياة، ولا نعيم إلاّ في الدّنيا»،[3] ثمّ يواصل: النّوع الآخر: «والثّاني من يؤمن به لكن يخاف ذنبه فيكره الموت لأنّه سبب يوصله إلى ما قدّمه»،[4] وقد لخّص ذلك قوله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ».[5]

بل ويزيد على بيان حقيقة الموت، باعتباره نعمة؛ لأنّ الحياة الأخرويّة نعمة لا يتوصّل إليها إلاّ بالموت، وما أدّى إلى النّعمة نعمة.

والرّاغب إذا يعتبر الموت سببا من أسباب الكمال يعطي لهذا المفهوم العقدي بعدا كبيرا في حياة المسلم، ويجعله متشوّقا إلى الخلود، متحمّسا إلى الاستعداد للموت، وما بعده، ببذل الوسع والطّاقة في تعمير الكون، ونشر قيم الخير والصّلاح، والاستكثار من العمل الطيّب، وهي الفاعليّة المنشودة والغائبة بغياب هذا الفهم الرّاقي، والنّظر الثّاقب البعيد.

---

1 الرّاغب الأصفهاني، تفصيل النّشأتين، ص 198.

2 سورة النّحل، الآية:(92).

3 الرّاغب الأصفهاني، تفصيل النشأتين، ص 200.

4 المرجع نفسه، ص 200.

5 في سنن الترمذي، كتاب الجنائز ، باب ما جاء فيمن أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه، رقم الحديث: 1066، ج1، ص 541.

جمعية الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

أمّا بديع الزّمان النّورسي فيعبر عن المصير بعد الموت بالحسّ الآخروي، والرّكون إلى الدّنيا بالحسّ الدنيوي، ويرى أنّ أهمّ أسباب بُعد المسلمين عن دينهم، وعن مراكز السّيادة في الكون، تضخّم «الحسّ الدّنيوي»، وانحسار «الحسّ الآخروي» عندهم، ويرى «أنّ صحّة الحسّ الآخروي وعافيته وفاعليته في وجدان المسلم شرط أساسي من شروط السّلوك الإيماني».[1]

وهو يردّ على منكري البعث بأنّ الخلود والامتداد اللانهائي في الزّمن، إنّما هو نتيجة نزوع روح الإنسان إلى ذلك الامتداد، والخلود، والّذي لم تضمنه للرّوح الإنسانيّة إلاّ الشّريعة الخاتمة، الّتي أعطت للإنسان الامتداد المطلوب، والبقاء المراد في زمن آخروي أبدي.

ويضرب مثالا لأثر هذا الحسّ الآخروي بالرّعيل الأوّل، والّذي كان فيه الصحابة توّاقون إلى الموت، ولقاء الله فكان دافعا، ومحفّزا لهم على رغبة الخلود عبر أعمالهم، وبطولاتهم، وأفكارهم. يقول النّورسي: «هذه الآخرويّة الّتي تمنح الوجود العام، ووجود الإنسان بشكل خاص معناه ومغزاه، وترسم له رسالته، وتُعَيّنُ مهمته في الحياة، وتبعث الأمل في الإنسان المكروب البائس»،[2] ويواصل «وتوجه أحاسيس وجدانه جميعا في اتجاه مسؤوليته أمام الله تعالى وأمام نفسه والعالم»،[3] ومن ثم يهيب النّورسي بالمفكّرين المسلمين أن يقدّموا للإنسان ما يوفره له الإسلام وحده دون سائر الفلسفات والمذاهب؛ إذ ينقده من براثن العدم، وأخطبوط العبث الّذي يخنق أنفاسه، ويشلّ تفكيره وحركته، والإسلام إذ يحل لغز الموت، إنّما يطلق أشواق الإنسان إلى الخلود، والّتي كتمت عليها الفلسفات الماديّة، فكُبِتَتْ، وترجمت إلى بديل اللّهو والعبث واللامسؤوليّة، ويضرب مثلا لها، فيقول: «شأنها في ذلك شأن الطفل يبكي، ويصخب، ويثور لأنّه عاجز عن الإفصاح عمّا يريد».[4]

ويؤكّد النّورسي أنّه بعودة الحسّ الآخروي للمسلمين ستتحلحل خيوط الأزمة، وتعود إليهم القابلية الحضاريّة، والفاعليّة المفقودة، الّتي ستعيدهم إلى التّواصل، ومواكبة الحياة بكسر قيد الزّمن الدّنيوي عن أفكارهم، وأعمالهم الّتي ستكتسب همة الامتداد في الزمن الآخروي، فيعملوا،

[1] أديب إبراهيم الدباغ، مطارحات في المعرفة الإيمانيّة عند النّورسي، ط 1، (1417 هـ -1997م)، مركز الكتاب للنشر، مصر، ص 95.

[2] المرجع نفسه، ص 102.

[3] المرجع نفسه، ص 102.

[4] المرجع نفسه، ص 104.

ويبدعوا ليحققوا شهودهم الحضاري من جديد، ويكونوا فعلا خير أمّة أخرجت للنّاس، والأمّة الشّاهدة على غيرها من الأمم بالخير، والحقّ، والعدل.

ومن خلال الواقع الّذي يعيشه الإنسان ثبت فعلا دور الوحي في بعث الأمل في الإنسان بتعريفه بحقيقة أخرى كانت غائبة، وهي مصيره، والّذي على أساسه تتحدّد حياته، وفلسفته فيها، وأثره فعلا وانفعالا بها في كلّ ما يحيط به، فالّذي عرف أنّ الموت ليس إلاّ امتدادا للحياة الخالدة الأبديّة يسعى إلى تجاوز عقبة الموت، بل واعتباره مطية إلى الحياة الآخرة الدّائمة فلا يجزع منه، ولا يرهبه، أمّا الّذي يراه نهاية وبعده يصير الإنسان إلى العدم فلن يجزع فقط، بل سيجد في نفسه مرارة هذا المصير البائس، ويلفه العبث من كلّ جوانبه، ولا أهمية لحياة مهدّدة بالفناء والعدم، ولن يعيد الهدوء النّسبي إلى نفسه إلاّ بالهروب إلى إشباع نهمه من ملذات الدّنيا الّتي سيفقدها عاجلا أم آجلا، فيؤدي به ذلك إلى الجنوح نحو الشّر والأذى والأنانية الّتي يراها من أهم الأساليب إقناعا له وإثباتا لذاته دون اعتبار العواقب ما دام الفناء والعدم هو المصير.

والنّورسي في هذه النّقطة يربط حال الأمّة، بما يراه من أهم أسباب أزمتها، وهو غياب الحسّ الآخروي، كما يصطلح عليه؛ أي غياب تصوّر كامل للمصير من حيث أثره في نفوس المسلمين، بما يدفعهم إلى طاعة الله، والالتزام بأوامره، وتحقيق العبوديّة الكّاملة لله عبر ممارسة وظيفة الشّهادة على الأمم، وتبليغ الحقّ إلى النّاس جميعا، باعتبار الشّهادة واجبا شرعيا والبلاغ أيضا، متحققان في ذمّة الأمّة الإسلاميّة صاحبة الرّسالة الخاتمة، والفتور الّذي تعاني منه الأمّة، والّذي هو سبب حالتها ناتج عن عدم انضباط المفاهيم عندها، فالدّنيا أصبحت مطلب الأفراد فيها، والموت صار حائلا بين الإنسان، ونعم الدّنيا والآخرة لم يعد مفهومها متعلّق بالدّنيا، ولا قائم عليها، فتج عن ذلك فصل بينهما، بما أحدث غبشا وقصورا في هذه المسألة عندهم، فانقلبت الموازين، وفقدت كلّ من الدّنيا والآخرة، والموت معانيها الحقيقيّة الّتي ضبطها القرآن الكريم.

ويرى فاروق الدسوقي في كتابه «استخلاف الإنسان في الأرض» أنّ اعتبار الحياة الدّنيا مقدّمة للآخرة تحقيق للخلود، الّذي يميّز الإنسان عن باقي الأحياء الأرضيّة، ووصولا إلى إعطاء الحياة الدّنيا قيمتها، وهي الّتي يتوقّف عليها مصيره الأبدي، وبعمله فيها يتحدّد خلوده إمّا في الجنّة أو في النّار.

كما أنّ غياب هذا المصير جعل الهدف الوجودي للإنسان في الحضارة الغربيّة المعاصرة، هدفا قاصرا على الحياة الدّنيا فقط، ما جعله ينحط غائيا إلى مستوى الحيوان، وجَرَّ بذلك انحطاطا في أفعاله وسلوكه وفكره، وانحصر اهتمامه بالحياة البشريّة لا الحياة الإنسانيّة؛ لأنّ غاية الحياة هي الّتي يتحدّد على أساسها أسلوبها، ووسيلتها، ومنهجها.

والإسلام على العكس من ذلك اعتنى بالحياة الإنسانيّة، من حيث الرّقي بالإنسان من صفة البشريّة إلى صفة الإنسانيّة، حين يحقّق ما به يصير إنسانا، وهنا لا بدّ من التّفريق بين البشريّة والإنسانيّة؛ إذْ إنّ الإنسانيّة أرفع مرتبة من البشريّة، وأرى أنّ الإنسانيّة تحقّقت لآدم عليه السلام بعد نفخة الرّوح فيه، وتزويده بالعقل، وفطرة التّوحيد فيه، ولا يصل إلى أحسن تقويم —وهي أعلى درجات الإنسانيّة–إلاّ بالإيمان والعمل الصّالح، وقد ينحدر إلى صفة البشريّة، إذا لم يحقّق هذه المعاني السّاميّة، ولم يترق في مراتب الكمال والطّاعة، بل ستنتكس فطرته، ويرتكس في دركات الفساد والشّرور.

والإيمان باليوم الآخر، يُبْعِدُ العبث، واللّهو عن الحياة الدّنيا ما دامت حرثا للآخرة، واختبارا وحيدا لا يتكرّر، ولا تمدد فترته، ثمّ يعقبه لا محالة فوز أو خسران، جدير بالحرص على النّجاح فيه، ويكون من العبث تضييع ساعاته وثوانيه.

ويتحقّق هذا المعنى جليا في ذمّ القرآن الكريم للدّنيا، متى صارت غاية الإنسان، كقوله عزّ وجلّ: ﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾،[1] كما يوضحها أكثر قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الانْهَارُ والّذينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَاكُلُونَ كَمَا تَاكُلُ الانْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾.[2]

ويستشهد فاروق الدسوقي بتاريخ البشريّة — على فساد الغاية والفصل بين الدّنيا والآخرة — باليهود الّذين طغت ليهم الدّنيا فباعوا بها الآخرة، وتركّزت أهدافهم عليها، وعلى حيازتها بالفساد والظّلم. وكذلك النّصارى الّذين حدثت لديهم قناعة باستحالة التوفيق، والجمع بين الدّنيا والآخرة، ولما تبرؤوا من الكنيسة، وانقلبوا عليها، غلّبوا الدّنيا على الآخرة، وأخرجوا من حياتهم كلّ ما له علاقة بسيطرة الكنيسة، والظّلام الّذي جعلتهم يتخبّطون فيه لقرون، ففسدت غايتهم مرّة أخرى، وطغت عليهم المادّة، والحياة على حساب الدّين والآخرة، ويخلص فاروق

---

[1] سورة العنكبوت، الآية:(64).

[2] سورة محمّد، الآية: (12).

الدسوقي إلى القول: «فلا بدّ إذن لمن يريد الفوز بالآخرة أن يحيا لغاية إنسانية لائقة به كإنسان، ومن ثمّ يجب عليه أن يصلح دنياه، ويوجه فاعليته وأعماله كلّها لتحقيق هذه الغاية».[1]

ثمّ يشبّه الدّنيا والآخرة كالحرث والزّرع، فإذا أصلح الفلاح أرضه، واعتنى بها وبزرعه، صلح المحصول، وكان وافرا على قدر جهده، وتعبه، وكدّه، وإذا أهمله وترك الفساد يدب فيه لم يخرج إلاّ نكدا.[2]

قال ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾،[3] وقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينْ﴾.[4]

وعلى هذا التّوافق بين حقيقة الإنسان في القرآن الكريم، والفكر الإسلامي تتحدّد الرّؤية الكّونيّة التّوحيديّة، الّتي تحدّد علاقات الإنسان بربّه وبنفسه وبالكون، وعلى هذا التّحديد تنضبط التّصوّرات، وتتوضّح الأفكار، ثمّ الوسائل والغايات، وبالفعل أزمة الإنسان عامّة والمسلم خاصّة، هي أزمة فكر وفهم، ومتى توضّحت الرؤى والأفكار سهل انضباط المنظومة الفكريّة القيميّة للإنسان، والّتي تكون منطلقا له في تحقيق غاياته، وأهدافه الواضحة وضوح أفكاره، والمبنية على الوحي وعلى الفهم السّليم لنصوصه، ممّا يساعد على تنزيلها في واقع الحياة، فتترجم إلى سلوك، وفعل محكوم بالشّرع، محدّدا إطاره بنصوصه الّتي توجّه الإنسان إلى مباشرة مهمته في الوجود، من حيث المنزلة الّتي بوّأه إياها خالقه، فيسير بها متوازن النّفس، سديد الخطى نحو ممارسة صلاحياته المخوّلة له في إطار تحقيق الخلافة لله ﷻ في الكون بالتّعمير والاستغلال الارتفاقي، والعبوديّة بالطّاعة والانقياد لخالقه ﷻ، الّذي أكرمه فلا يراه متسفّلا، مدسيا نفسه بالذّنوب والمعاصي، إنّما يراه مترقيا مزكيًّا نفسه، يسعى للخروج من طبيعة الإفساد والسّفك إلى خلافة الله ﷻ، وإصلاح الأرض، ونشر الخير في أرجائها.

1 فاروق الدسوقي: استخلاف الإنسان في الأرض، ص *103*.

2 المرجع نفسه، ص *103*.

3 سورة النحل، الآية: (*30*).

4 سورة آل عمران، الآية:(*22*).

الفصل الأول:

الإنسان عند جوديث سيمز

المبحث الأوّل: حقيقة الإنسان.

تمهيد:

إنّ فهم الإنسان يقتضي فهم الحياة من الواقع، وفهم طبيعة الكون الّذي يعيش فيه؛ لأنّه فيما مضى لم يكن يعلم عن خلقه ونموّه شيئا، وكان في رحم التّاريخ لم يخرج منه بعد، حينما كان يأخذ ما يحتاجه كما يأخذ الجنين غذاءه وهواءه عبر الحبل السّري، وطال مكوثه هناك، إلى أن حان موعد ولادته، وانفصاله عن رحم التّاريخ، ورحم الآباء، وها هو يخرج إلى أين يجب أن يتغذى بيديه ويتنفّس برئتيه، هواء نظيفا، وغذاء متنوّعا نافعا بين يدي الوحي، الّذي عرّفه بنفسه، وبالحياة من حوله، ونبهه إلى تاريخ السّابقين؛ حيث يجب عليه الاعتبار، واختصار الطّريق، والاقتصاد في الوقت والجهد للوصول إلى سبيل الحقّ والرشاد عبر أسباب العزّة والسيادة.

وأحقّ النّاس بهذا النّور هو المسلم الّذي نراه اليوم يتخبّط في الكون، ويضيع يمينا وشمالا، وهو غارق في الكلالة والذّل، وكان حَرِيًّا به أن يقود البشريّة إلى سبيل الهدى، وطريق الحقّ والسّعادة، وهي إشكالية تحتاج إلى حل، وجدلية تحتاج إلى توضيح، حتّى تتكشّف أسباب هذه المفارقة بين حال المسلم، وبين ما يملك لتخليص نفسه والإنسانية كلّها من هذا الشّقاء الّذي يطبق على الحياة.

إنّه في الواقع همّ حمله المفكّرون والمصلحون على كواهلهم، وأنفقوا كثيرًا من الجهد والعمر في سبيل فهمه والوصول إلى أسبابه؛ لإيجاد الحلول لهذه العطالة الّتي يعيشها المسلمون أفرادًا أو مجتمعات، وجودت سعيد واحد من هؤلاء حاول عبر جهوده الفكريّة في كتبه ومقالاته وخطبه أن يقدّم رؤية متكاملة لمشروع حضاري إسلامي، وفق سنن الآفاق والأنفس، وضمن سبل تغيير ما بالنّفس والمجتمع، وقد دعا المسلم إلى استخراج النّور الكامن في نفسه، والتّرقي الدّؤوب لبلوغ المرتبة الّتي خُلق ليكون فيها بإيمانه وعمله الصّالح، وتحقيقه لوظيفة الوجود الأساسيّة الموكلة إليه.

وسيتناول هذا الفصل نظرته إلى الإنسان من جوانب مختلفة تمهّد كلّها لصميم الموضوع، وهو بيان خير هذا الإنسان وتوجيهه توجيها صحيحا يصل به إلى أقصى درجات فاعليته وخيريته، وسنتتبّع هذه النّظرة من بدايات الإنسان الأولى منذ الخلق، مستعرضين مواقف المخلوقات السّابقة له.

1. موقف الملائكة:

إنّ الكلام عن هذه النّقطة بالذّات سيظهر لنا حقيقة هذا المخلوق الجديد، وما توسمته فيه المخلوقات السّابقة له – ومنهم الملائكة – من خير أو شرّ، من صلاح أو فساد، من مجرد توقعات لا تستند إلى واقع أو دليل، فالمتأمّل لقصّة خلق آدم عليه السلام في سورة البقرة في قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الارْضِ خَلِيفَةً، قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيْهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ، قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾.[1] يجد أنّ هذه القصّة تتكرّر في مواضع عديدة من القرآن الكريم، والحكمة البادية من هذا العرض المتكرّر، إنّما هي لعرض قصّة تُجلّي للإنسان كرم خالقه، ومنزلته عنده، ومنزلته بين الكائنات، ومنهم الملائكة الذين اتّهموا هذا المخلوق بالفساد، وسفك الدّماء، والله سبحانه وتعالى أبلغهم أنّه يعلم فيه ما خَفِيَ عليهم، ولم يعلموا، بأنّه سيرتقي من طبيعته الماديّة الّتي منها استنتجت الملائكة فساده وسفكه للدّماء، إلى الحياء والرّحمة والإيثار، وسيهتدي إلى خالقه بنور الله فيه وسيكون حينها أهلا للخلافة والسيادة في الأرض.

وكما كان الإعلام الإلهي للملائكة عن خلق آدم من باب الإعلان والإخبار، إلاّ أنّه لآدم عليه السلام شدّ لأزره، ودعم له لبعث الثّقة في نفسه والإشارة إلى إمكانية قيامه بمهمة الخلافة الّتي أنكرتها عليه الملائكة، وأنكرت جدارته بها واستحقاقه لها، والّذي لا يستقيم مع طبيعة الفساد فيه، ومع هذا الإنكار الّذي هو في الحقيقة استشراف وأمل في أن تكون الخلافة في الملائكة، والّذين يرون أنفسهم الأجدر والأحق بهذه المهمة، هم الطّائعون العابدون لله والّذين لا يفترون عن التّسبيح والحمد بما يجعلهم أهلا لهذا التشريف، ويقول الطاهر بن عاشور في هذا «وقول الله هذا موجه إلى الملائكة على وجه الإخبار ليسوقهم إلى معرفة فضل الجنس الإنساني على وجه يزيل ما علم الله أنّه في نفوسهم من سوء الظّن بهذا الجنس، وليكون كالاستشارة لهم تكريما لهم فيكون تعليما في قالب تكريم، ولتنبيه الملائكة على ما دقّ وخفي من حكمة خلق آدم، كذا ذكر المفسرون»،[2] فيظهر من هذا الموقف قيمة المهمة الّتي أوكلت للإنسان والّتي تطلّعت الملائكة إلى التشرّف بها.

---

[1] سورة البقرة، الآية: (30).

[2] محمّد الطّاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج 5، ص 386.

✷ علم الله والرّد على الملائكة:

إنّ المتأمّل في ردّ الله على الملائكة يجده باعثا للأمل في نفس الإنسان، وهو يعيش اليوم محققا لتوقعات الملائكة، من سفك ودماء، وتاريخ الإنسانيّة حافل بأودية من الدّماء، وجبال من الأشلاء والجماجم، وحالها اليوم في هذا التكاثر من أسلحة الدّمار الشّامل والإبادة والفتك يجعل الأمل ضئيلا في رؤية علم الله في الإنسان، وأنّه أمر صعب لبعده عن بصره، لكن يبقى الأمل قائما في أن ما علمه الله سيتحقّق، وستخرج الحياة من الموت، والصّلاح من الفساد، وإقناع النّاس بهذا الأمل مهمة صعبة ملقاة على كاهل أهل العلم والصلاح الّذين سيسيرون في الأرض، وسينظرون كيف بدأ الخلق، وسيحملون للإنسانيّة خيريّة الإنسان وأهليته؛ لأن يكون مصلحا، آمرا بالعدل وذلك برجوعه إلى أصل خلقته، وإلى حقيقة أبيه الّذي نفخ فيه الله من روحه، وسجدت له الملائكة، واختاره الله ليكون خليفة في الأرض وعَلِمَ فيه ما خَفِيَ على الملائكة من مؤهلات الخير والصّلاح.

2. دور إبليس:

إنّ ذكر إبليس لاَزَمَ مراحل القصّة ورواياتها المتعدّدة؛ لأنّه سيلازم البشر، و دوره سيكون بارزا في هذه الدّنيا، ومن حيث إخراج الإنسان من طريق الهداية، وجعله من أصحاب الجحيم.

أ. الامتناع عن السّجود:

لقد أخبر القرآن الكريم خلال ذكر قصّة الخلق أن إبليس كان مع الملأ، ولما أعلمهم الله بأنّه سيجعل في الأرض خليفة، وسيخلق آدم، كان لكلٍّ طريقته في التفاعل مع الإخبار الإلهي؛ إذ استفهمت الملائكة في أدب، وهي الّتي لا يتوقّع منها غير الطّاعة والامتثال، أمّا إبليس فأبى أن يسجد بحجّة دونية هذا المخلوق وأفضليته هو عليه، ففسق وخرج عن الطّاعة بهذه المعصية، وكان مصيره النّار، وقد تمثّلت خليقة الشّر فيه لغروره واستكباره وعصيانه، يقول سيّد قطب: «وكذلك نجد في المشهد ثلاثة نماذج من خلق الله: نموذج الطّاعة المطلقة، والتّسليم العميق، ونموذج العصيان المطلق والاستكبار المقيت.. وطبيعة ثالثة هي الطبيعة البشريّة»،[1] وفي هذا إشارة إلى

[1] سيّد قطب، في ظلال القرآن، ص 1265.

تأصّل الشّر في إبليس، والّذي تمادى به كبره إلى رفض السّجود ليس من حيث كونه أمر إلهي، بل لأنّه متعلّق بمخلوق قدّر إبليس أنّه لا يستحق هذا الإكبار والتّقدير لوضاعة أصله، وحقارة مادّة خلقه، والّتي تظهر في قوله ﷻ: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ﴾،[1] فاستحق بها غضب الله عليه، ولعنته وغضبه، وكانت بداية العداء الأبدي لآدم وذريته.

ب. إغواء آدم:

إنّ القضية الّتي تطرح هنا هي: ماذا بعد رفض السّجود؟ وجوابها هو النتيجة الحتميّة للمعصيّة، ثمّ ماذا بعد العقاب؟ وهل استسلم الشيطان بعدها؟ هل اعترف بالخطأ الّذي ارتكبه؟ وهل بادر إلى التوبة؟

كلّ هذا لم يحدث، وجرّه كبره وعناده إلى السّعي إلى معاقبة آدم وذريته، ومن أجل ذلك طلب من الله مزيدا من الوقت لا للتوبة، والسّعي إلى مرضاة الله، بل للانتقام والكيد.

وجدير بنا أن نفهم سرّ ذكر القرآن لهذه التفاصيل، وهي أن نتعلّم من هذه المواقف، وأن ندرك كيف بدأ الصّراع الأزلي ونقدر عدونا خير تقدير.

وكانت بداية موقف الشّيطان، وأوّل حلقات الصّراع مع آدم ﷺ، محاولة ناجحة في إغوائه، كما نذر في قوله ﷻ: ﴿رَبِ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لهم في الارْضِ ولأَغْوِيَنَّهُمُ أَجْمَعِينَ﴾،[2] وقد جعل عدّته التّزيين في الأرض، وتنويع وسائل الإغراء.

وفي سَوْقِ هذه القصّة بيان لأمرين: الأمر الأوّل هو قدرة الشّيطان على الإغواء، واستعداده التّام المتكامل للقيام بهذه المهمّة، والأمر الآخر هو قابليّة الإنسان للاهتداء، أو الإغواء، أو بعبارة أخرى استعداد الإنسان للاستجابة إلى هذا الإغواء، ثمّ لنعلم منها أيضا أنّ أيّ شيء مزيّن، وكلّ ما تشتهيه النّفس، وتميل إليه قد يكون للشّيطان فيه مدخل أو نصيب، وعلى الإنسان الحذر والتّسلّح بسلاح الاستعاذة بالله، والاستمساك بالعروة الوثقى.

[1] سورة ص الآية: (76).

[2] سورة الحجر، الآية: (39).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ج. آدم وإبليس والخطأ:

كي يعرف الإنسان حقيقة أمر من الأمور، فلا بُدّ من معرفة كيف بدأ؟ وليتم له ذلك لا بُدّ من الرّجوع إلى التاريخ، والقرآن الكريم يروي لنا كيف بدأ خُلُق الخطأ، وكيف كانت بدايات التعامل معه.

أخطأ إبليس وأخطأ آدم، وأخبرنا القرآن كيف تعامل كلّ منهما مع الخطأ، أمّا آدم فسارع إلى الاعتراف بالخطأ، والمبادرة إلى التوبة؛ حيث قال ﷻ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾،[1] وقد كانت منه خطوة على الطّريق الصّحيح؛ إذْ إنّ تصحيح الخطأ يبدأ عند لحظة الاعتراف به، وهي ميزة آدم عليه السلام، يقول جودت سعيد: «إنّ ميزة آدم وما أهّله أن يكون خليفة في الأرض أنّه قال بعد أن أخطأ ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ أرجع الخطأ لنفسه، وألقى اللّوم عليها وهي الّتي أهّلته للتوبة». [2]

أمّا إبليس فقد كان له موقف آخر مع الخطأ؛ إذْ أخبرنا القرآن أنّه تنصّل من المسؤوليّة، ولم يشر إلى نفسه، ولم يتراجع، بل طلب مهلة للانتقام ممّن كان سببا في انقلاب أحواله، وكان الأجدر به أن يعترف بخطئه، ويطلب من الله المغفرة والصّفح؛ لا أن يلقي التّبعة على غيره، ويقول: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾،[3] وقال أيضا: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾،[4] يقول جودت سعيد: «إنّ هذه الميزة [لوم النّفس] هي الّتي أهّلت آدم للخلافة في الأرض وإحقاق الحق، وهذا العنصر هو الّذي ميّزه عن إبليس الّذي عصا ربّه ومع ذلك قال [فبما أغويتني] أزال اللّوم عن نفسه وسعى إلى أن يبرئ نفسه ويتّهم غيره بمعصيته».[5]

ولا بُدّ من إدراك أنّ ذكر هذه المواقف المختلفة، إنّما هو تنبيه للإنسان إلى كيفية التعامل مع الخطأ، سواء بالاستفادة منه والرّجوع إلى الصّواب بإدراك الخطأ، أو بالإصرار عليه، وعدم الاكتراث بالعواقب، بل وإلقاء اللّوم والتّبعة على الغير، وهو حال المسلمين اليوم، إذْ بدل أن يبحثوا عن مكامن مشكلاتهم للبحث عن حلول لها نجدهم يسعون إلى إلقاء تبعة ما هم فيه،

---

[1] سورة الأعراف، الآية: (23).

[2] جودت سعيد، محمّد عنبر: الإنسان والحق، ط1، دار الآفاق والأنفس، دمشق (1417 هـ - 1997م)، ص 15.

[3] سورة الأعراف، الآية: (16).

[4] سورة الإسراء، الآية: (62).

[5] جودت سعيد، محمّد عنبر: الإنسان والحق، ص 15.

وما هو من عمل أيديهم على القدر تارة، وعلى الاستعمار تارة أخرى، وعلى إسرائيل مرّات كثيرة، وهو طرح خاطئ لا يزيد أمورهم إلاّ سوءًا، بينما حلّ المشكلات يبدأ ببلوغ الرّشد، وهو بدوره يبدأ عند محاسبة النّفس، وإلقاء اللّوم عليها، وإدراك الخطأ، ثمّ المبادرة إلى تصحيحه، وهو ما فعله أبو البشريّة عندما أخطا، وتاب واعترف بخطئه، وعزم بعد ذلك على السّير في طريق الله، ومعاداة الشّيطان والحذر منه.[1]

3. الإنسان والمعصية:

إنّ الإنسان مخلوق عجيب، بما رُكِّبَ فيه من استعداد وقابلية للسّموّ بنفخة الرّوح فيه إلى الهدى والرّشاد، أو للانتكاس إلى طبيعته الطّينيّة وأصله الوضيع، فيغدو بذلك أضلّ من الأنعام، وهو في نصبه الدّائم تتجاذبه طبيعته يحتاج إلى ما يُحقّق له التّوازن، وما يُساعده على اختيار الطّريق الصّحيح، والاعتبار بآيات القرآن خير معين له، خاصّة حين يعرف كيف بدأ الخطأ؟ وكيف عصى آدم وأخطأ، وما كان تصرّفه بعد الخطأ؟

1.3. آدم والمعصية:

بعد اختيار آدم للخلافة، واحتفاء العرش به، وسجود الملائكة له، تبدا المعارضة الرّافضة للوضع كلّه، متمثّلة في الشيطان الّذي لم يتوانَ في تنفيذ ما عزم عليه، وحدّد وسائله، وهو عزم لم يوجد عند آدم في قوله ﷻ: ﴿ولَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾،[2] فلم يأخذ آدم عليه السلام عداوة إبليس على ما تستحقه من تحذير، والشّيطان كان جادًا، وحدّد هدفه، ووسائله، ودقّة اختياره كانت السبب في نجاحه في إغواء آدم عليه السلام، وقد ركّز على أمرين: إغراء آدم بالملك، ثمّ الخلد وهما نزعتان متأصّلتان في نفس آدم ما دام قد أوتي عن طريقهما، وما زال الإنسان يؤتى منهما، فجلّ النزاعات والصّراعات في حياة البشريّة من أجل الملك ودوامه، قال ﷻ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾،[3] وهو في الحقيقة ملك وخلد زائفين غير اللّذين يدعو الله تعالى عباده إليهما.

---

[1] جودت سعيد، محمّد عنبر، الإنسان والحق، ص 15.

[2] سورة طه، الآية: (115).

[3] سورة طه، الآية: (120).

إلاّ أنّ آدم عليه السلام انتفع من هذا الخطأ، وضبط مفاهيم كثيرة لديه؛ حيث أدرك أوّلا أنّ له نقاط ضعف سَهُل على الشّيطان استغلالها، كما أدرك حقيقة عدوّه وقدرته على الحيلة والمكر والدّهاء، وهو ما حذّره منه الله عزّ وجلّ: ﴿فَقُلْنَا يَا آدمُ إنّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ ولِزَوْجِكَ﴾،[1] كما أدرك أيضا مِنّة الله عليه وحرصه على خيره، لما حذّره من الشّيطان، وأنّ واجبه اتّباع هديه، والرّجوع إليه عند الخطأ والاستعانة به من كيد الشّيطان، وهو في الحقيقة واجب كلّ بني آدم عليه السلام، والقصّة إنّما هي للموعظة، وليتمثلها كلّ إنسان في حياته، ويجعلها قضيته الأولى كما فعل الشّيطان، ثمّ ليعلم الإنسان أنّ الخطأ ليس في الخطأ نفسه، بل في التّعامل مع الخطأ، ورُبّ خطإ يعلّم الإنسان ما لا يتعلّمه في غيره باعتباره درسا عمليا يُقوي مناعته النّفسيّة والفكريّة، فلا يُعاود الخطأ، حتّى لا يدفع الثّمن مكرّرا، والاعتبار بهذه القصّة ضروري للإنسان؛ لأنّها قصّة بداية الصّراع الأزلي بين الحقّ والباطل، وما كان المؤمن ليقدّر حقيقة عدوّه الأوّل، ومدى كيده لو لم يعرف كيف بدأ هذا الصّراع، وكيف بدا الخلق، ونحن مطالبون بالسّير في الأرض ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الارْضِ وانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقُ﴾،[2] وكلّما عرف الإنسان بدايات الأشياء عرف تقديرها، وإعطاءها حقّها، والعمل على أساس هذا العلم وهذه المعرفة.

2.3. ابْنَي آدم والخطأ:

بعد قصّة آدم، نستعرض قصّة ابنيه؛ حيث يقول عزّ وجلّ: ﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾،[3] قصّة لصراع آخر، بين الإنسان وأخيه الإنسان، لكنّ الشّيطان حاضر فيه، ولم يغب؛ لأنّه أساس هذا الصّراع، فبعد أن زيّن لآدم المعصية، ها هو يزيّن لابنه قتل أخيه، قال عزّ وجلّ: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيْهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾،[4] والسّبب المباشر في هذه القصّة هو رفض قربانه، وقبول قربان أخيه، لكنّ السّبب الحقيقي هو إلقاء اللّوم على الغير عوض محاسبة النّفس، كما فعل إبليس، فعوض أن يبحث في نفسه عن أسباب رفض قربانه، ها هو يعاقب أخاه التّقيّ الصّالح باعتباره سبب فشله، فلولاه ولولا وجوده لما حدث هذا، وهذا هو المغزى الحيّ

---

[1] سورة طه، الآية: (117).

[2] سورة العنكبوت، الآية: (20).

[3] سورة المائدة، الآية: (27).

[4] سورة المائدة، الآية: (30).

في الآية، والّتي بقراءتها تجعلنا نتمثّل هذا الصّراع في حياتنا اليوميّة، ونعتبر من أوّل نزاع، وأوّل جريمة في التاريخ، وقد أمر الله ﷻ نبيّه أن يتلو علينا نبأها بالحقّ، دون افتراء أو زيادة، كما حدث من قبل في الأمم السّابقة؛ ولأهمية هذا النّبأ في حياة الإنسان، وجب علينا أن ننظر إليه نظرا سننيا عميقا، وندرك بعد ذلك نزعة الإنسان إلى الهروب في حلّ مشكلاته، وللجوء إلى ﴿لأَقْتُلَنّكَ﴾، وهو الخطأ الّذي يجرّ إلى خطأ آخر، وهو ما نراه متحقّقا في حياة المسلمين، وهم يصحّحون الأخطاء بالأخطاء ماداموا لم يعتبروا من نبأ ابني آدم، ومن قصّة الشّيطان مع آدم عليه السلام من قبل.

وإذا تأمّلنا في قربان ابني آدم نجده العمل في حياة المؤمن، والّذي به يكون في ديمومة تقريب القرابين إلى الله، فمنها الصّالح الّذي يتقبّل، ويُجازى عليه صاحبه، ومنها الفاسد المردود عليه.

يقال إنّ الخطأ يجرّ إلى الخطأ، وهذا القول يتضمّن حتميّة الاستمرار في الخطأ، وهذا غير صحيح، وإلاّ فما معنى التّوبة والعزم على عدم الرّجوع إلى الخطأ؟

يقول جودت سعيد: «إنّ الخطأ يجرّ إلى الخطأ إذا كان موقف الإنسان من الخطأ خطا فإن الموقف السّليم هو الّذي يجعل الخطأ الأوّل يُبعد الخطأ الآخر، وعلى هذا جاء قول رسول الله ﷺ: «لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرّتين»؛ أي الموقف السّليم يحمي الإنسان من أن يجرّه الخطأ إلى خطإ آخر، بل يحميه».[1]

وبهذا يكون الخطأ ضارًا أو نافعا حسب التّصرّف معه وبعده، فآدم أخطأ ليكوّن لنفسه مناعة ضدّ عدوّه، وإبليس أخطأ ليُرسّخ قدمه في النّار، وهما أنموذجان دالان على عدم وجود حتميّة للخطأ بعد الخطأ، وإلاّ ما فائدة إخبار القرآن لنا بآدم، ونبئه، ونبأ ابنيه، ثمّ نماذج كثيرة من السّابقين على المستوى الفردي أو الجماعي، وهي الحكمة ذاتها الّتي حملتها أحاديث الرّسول ﷺ في باب الفتن، ومنها ما رواه الإمام أحمد أنّ سعدًا بن أبي وقّاص قال عن فتنة عثمان رضي الله عنه: «أشهد أنّ رسول الله ﷺ قال: «إنّها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من السّاعي قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني فقال:

[1] جودت سعيد ومحمّد عنبر، الإنسان والحق، ص 36.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

كن كابن آدم»،[1] وهذا التّحذير من الرّسول ﷺ للصحابة، لكنّه في الحقيقة لأمّته من بعده حتّى يعرفوا ضريبة الخطأ، وما يؤدي إليه من فساد، ومن عواقب، منها الفتنة الّتي هي أشدّ من القتل. فعلى الإنسان ألاّ يستجيب للاستفزاز، ولا يقابل الخطأ بالخطإ، بل يعالجه بالصّواب، ويصحّح نفسه إن كان هو المخطئ، ولا يكون متأثّرا، بل يحاول أن يكون فاعلا مؤثرا فيما حوله.

4. الإنسان والطّاعة:

إذا حاولنا استرجاع ما سبق، ونظرنا إلى آدم عليه السلام لما أخطأ والشّيطان لما أخطأ، وابن آدم لما أخطأ، تأمّلنا كيف بدأ خلق الخطأ، وكيف تعامل كلّ واحد معه، ندرك أنّ الخطأ ليس الوقوع في الخطأ، بل فيما بعد الخطأ، ولندرك أنّ الموقف السّليم من الخطأ يجعل منه ظاهرة صحيّة، ودليلا على السلامة والعافية، وأنّ الموقف الخطأ من الخطأ هو العلّة الّتي تجرّ المخطئ إلى المزيد من الإفساد، وهو حال الأمّة الإسلاميّة، وهي تبكي أو تتباكى ضياع فلسطين، وما كان ضياعها إلى نتيجة حتميّة لضياع الرّشد وضياع الهويّة.

والمواقف المذكورة سابقا من الخطأ تعلّمنا عواقبه، فآدم عليه السلام استرشد واهتدى، حين تاب ورجع إلى الله بعزيمة الطّاعة والحذر من العدوّ، وإبليس ازداد استكبارا وبعدا عن الحقّ، وابن آدم الصّالح حافظ على خوفه من الله وتقواه، ولم تنزلق قدماه، والآخر فكّر في القتل مباشرة كحلّ يرضيه، ويعاقب به أخاه على صلاحه، عوض التّفكير في سبب رفض الله لقربانه، والبحث عن سبل الطّاعة، وأسباب القبول.

إنّ هذان الأنموذجان يعطياننا عبرة من المواقف المختلفة، وبعدها في نفس المؤمن يظهر حين يسعى إلى تلمّس الحقّ في التّاريخ؛ ليعرف به المواضع السّليمة للأقدام، ويميّز به بين الحقّ والباطل، حتّى يعرف كيف يتصرّف مع الخطأ، ويتيقّن أنّ الطّاعة هي سبيله إلى النّجاة، والسّلامة من الآثار المدمّرة له؛ ولأنّ آدم عليه السلام عرف كيف يضبط سلوكه، وكيف يلتزم بالحقّ وبالصّراط

[1] صحيح سنن الترميذي، كتاب الفتن، باب ما جاء في أنه ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، رقم الحديث 2194، ص 472 - 473.

المستقيم، بل وعرف كيف يُفَعِّلُ خطأه ويحوّله إلى مكسب، ويستبدل المعصية بالتوبة؛ لقوله ﷻ: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ﴾،[1] فاستحقّ الخلافة والتّشريف، أمّا إبليس فقد أصبح عَلَمًا على المعصية، وأصبحت وسائله إلى الإغواء ظاهرة يستطيع المؤمن تمييزها واجتنابها، كما أنّ رحمة الله بعباده تتجلّى في إخبارهم بقصص السّابقين، وكيف يضعها بين يدي عباده؛ ليدركوا قيمة ما دفعه الإنسان عبر الزّمان من ثمن لأخطاء حتّى لا يُكرّروها، ولا تكلّفهم أثمانا أخرى، لكنّ المسلمين بإهمالهم لهذه الرّحمة، وجهلهم بالعواقب فإنّهم يتخبّطون في شريعة الغاب بحثا عن المخرج، وبين أيديهم شريعة الحقّ والنّور؛ ولأنّهم لا يبصرون، يحقّقون فيهم ما رواه زياد بن لبيد، قال ذكر النّبيّ ﷺ شيئا فقال: «وذاك عند ذهاب العلم. قلنا يا رسول الله: وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن ونقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم فقال: ثكلتك أمّك يا ابن لبيد إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون ممّا فيهما بشيء؟».[2]

إنّما طريق التّوبة هو طريق الرّجوع إلى الحقّ، وطريق إبصار معالم الصّراط السّويّ الّذي سيخرج الأمّة من حال التّردي الّذي يلفّها، كما خرج آدم من محنة الخطأ إلى استحقاق الخلافة، والأهليّة لأداء هذه المهمّة العظيمة.

1.4. استحقاق آدم عليه السلام للخلافة:

إذا كان آدم عليه السلام خلق ليكون خليفة ابتداء، فما معنى الاستحقاق الّذي ذُكِرَ سابقا؟

إنّها الإرهاصات الّتي يثبت بها هذه الجدارة، وهو تأكيد ميداني لذلك، عبر ما أخبرنا به القرآن في القصّة الّتي هي مرجعيّة للإنسان، يجب أن ينطلق منها، وهي كون آدم عليه السلام عرف أنّه يخطئ، وأنّه قابل لأن يتأثّر بالخير كما الشّر، وأنّه قادر على وضع الأمور في نصابها بإرجاع الخطأ إلى أسبابه لإيجاد حلول له، وأوّلها الاعتراف الّذي هو نقلة نفسيّة تغييريّة كبيرة تمثّل الانتصار عليه. يقول جودت سعيد: «فحين تصير للمرء قدرة الهجوم على تلك الخنادق المنصوبة داخل نفسه يكون قد انتصر داخليا... وتحرّر من أعماقه».[3]

---

[1] سورة البقرة، الآية: (37).

[2] سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم، رقم الحديث: 2653، ج3، ص 58، 59.

[3] جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ط2، 1414 هـ – 1993م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ص 262.

ويقول أيضا: «وفهم الفرق ضروري بين من لا يقدر أن يسمع أحدا يتحدّث عن خطئه، وبين من هو بنفسه يعترف بالخطإ، ولكن العيب هو شعوره بالعيب عندما يعترف بالخطإ».[1] وآدم عليه السلام قدر على الاعتراف بالخطإ فسهل عليه تصحيحه والاستفادة منه، والمبادرة بالتوبة والرّجوع إلى الله تعالى، فأثبت بذلك أنّه وإن كان قادرا على الإفساد فإنّه أقدر على الإصلاح والتسامي إلى الحقّ متى لزم الأمر، وهنا مكمن القوّة فيه عندما يحقّق علم الله فيه. ومتى يذكر آدم عليه السلام فإنّ الذّكر يشمل النّوع الإنساني، والحكمة الإلـهيّة من وراء ذكر هذه القصّة وتكرارها في سور عدّة هي توجيه فهم الإنسان إلى اختيار إحدى المنزلتين، واختيار طريق تزكية نفسه أو تدسيتها، وهي الملهمة فجورها وتقواها، والاعتبار بأخطاء السّابقين، وإدراك أنّ الموقف الصّحيح من الخطإ مؤهّل للإنسان كي يرتقي إلى درجات عالية في تحقيق خلافته، وعبوديته لله سبحانه وتعالى.

2.4. سبيل الإنسان إلى الصّواب:

هناك فرق بين إدراك الصّواب منذ البداية، وبين إدراكه بعد الوقوع في الخطأ، فكما أنّ اللّقاح يُكسب الجسم مناعة ضدّ الأمراض، فكذلك الخطأ يفتح بصر المؤمن على العواقب، سواء أكان الخطأ منه أو ممن سبقوه، وحتّى لا يلدغ من الجحر الواحد مرّتين كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لبيان أنّه من غباء الإنسان أن يدفع ثمن الخطأ مضاعفا، فكيف يمكن للإنسان الاستفادة منه؟

إنّ الاعتبار والنّظر هو المقصود من إيراد هذه القصص في القرآن الكريم، ونتيجة ذلك هو العلم الّذي سيخرج الإنسان من الإفساد والسّفك إلى الإصلاح والخير، وسيحقّق علم الله فيه ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُون﴾،[2] ويتحقّق وعد الله بأنّ الأرض يرثها الصّالحون من عباده لممارسة الخلافة، وتعميرها بالحقّ والخير، لما يخرج الإنسان إلى الرّشد، ويعود إلى الصّواب، وسيحقّق ذلك على المستوى النّظري بضبط المفاهيم وإعطائها معانيها الصّحيحة، حينئذ ينبني الإيمان على بصيرة ووضوح، لما يعرف أنّ الله خلق الخلق لغاية، وأنّه ليس بظلاّم للعبيد، وأن يرجع الخير إلى أصله والشّر إلى أصله؛ لإزالة اللّبس عن المصدر الحقيقي لكلّ منهما، وهو حقا إشكال كبير، وأمر غير منضبط لدى كثيرين، فخلق الخير والشّر خلقا سننيا هو من عند الله، وترتيب النتائج

[1] جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ص *261 – 262*.

[2] سورة البقرة، الآية: (*30*).

على الأسباب من وضعه ﷻ، أمّا ما يجري من تعامل النّاس مع هذه السنن والقوانين وفق ما عندهم من عقل، ونظر إلى العواقب فإنّ النتائج المترتّبة على ذلك ممّا يصيبهم، تكون بما كسبت أيديهم، يقول ﷻ: ﴿وإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيْثاً﴾.[1]

وتوضيح هذه القضايا هي مهمة الرّاسخين في العلم، حتّى تتوضّح للنّاس هذه المفاهيم، وتنضبط في أذهانهم، ثمّ في حياتهم، فلا ينكرون خلق الله للحسنة والسيّئة خلقا سننيا، ولا في نسبة السّيّئة إلى الله، وتمليص الإنسان من المسؤولية، ويتوضّح الإيمان في النّفوس، ويُصحّح الاعتقاد بالحقّ، وتنضبط على أساسه علاقة الإنسان مع الله، وتتوضّح له واجباته نحوه.

أمّا على المستوى التّطبيقي أو العملي، والّذي يجعل الإنسان بعدما يُبصر ما يقع في ملكوت الله، ويجد معتقداته ومفاهيمه المنضبطة في واقع الأرض، سيدرك حينها أنّ الخير والأبقى هو الطّاعة والصّلاح والخير، وهو أمر من شأنه أن يحييه، ويبعث في نفسه الأمل، ويأخذ بيده إلى الكدح والسّعي إلى كسب إحدى الحسنيين، ورفع المسخ عن المفاهيم والأذهان حول القرآن، والتّاريخ، ومقام الإنسان نفسه بعدما يتوضّح دوره هو في تحديد مصيره، وصنع أحداث التّاريخ.

وقد تشتّتت جهود الإنسان بين من يعيش لأجل هذه الغاية ويسعى إلى إحياء موات الأفكار بالعلم والمعرفة؛ لأنّه عرف الحقّ وضبط المفاهيم لديه، وسيكون طريقه واضحا، ومن يختار العكس ويسعى إلى الغاية المعاكسة، فإنّه سيقع في العبثيّة، ويجرّه إلى الضياع بقتل الأمل في النجاة، وحينها ستتذبذب الجهود، ويغيب الوعي عن الأمّة، وتتعطّل قدرات الأجيال.

وكما يمكن أن تتشوّه مفاهيم الإيمان، فكذلك يمكن أن تتشوّه مفاهيم التاريخ، ويكفي للدّلالة استعراض آراء أعمدة المؤرّخين، مثل أرنولد توينبي الّذي يُقَدِّرُ في كتابه – دراسة للتّاريخ – الّذين: «يرون التّاريخ حركة منتظمة متواترة تصوّر عجلة تدور دائما بدون هدف البحث»،[2] وهي نوع من الجبريّة الماديّة الّتي صوّرها مؤرّخ آخر هو فيشر الّذي قرّر بمرارة أنّه «لم يتمكّن من أن يرى التّاريخ إلاّ لعينا يتبع لعينا آخر».[3]

[1] سورة النساء، الآية: (78).

[2] جودت سعيد ومحمّد عنْبَر: الإنسان والحق، ص 23.

[3] المصدر نفسه، ص 23.

وطبعا لا يخفى على أحد أثر هذه التّقارير على الإنسان، وما دفعته إليه من عبثيّة وعدميّة خلطت أوراقه، وأضاعت له النّظرة الصّحيحة إلى نفسه وإلى الكون، وشوّهت المفاهيم عنده، وساقته إلى جبريّة ماديّة في الغرب أثارت ردّ فعل عند المسلمين بجبريّة إيمانيّة؛ تعتبر البشر مجرّد دمى في يد الخالق يحرّكها دون إرادة منها أو اختيار.

وفي الحالتين تشوّه في الأفكار لا سبيل للخروج منه، إلاّ باستنفار القدرات الفهميّة لدى الإنسان لضبط مفاهيمه بالرّجوع إلى القرآن والتّاريخ، وقراءتهما من جديد، لعرضهما عرضا جديدا يليق بالإنسان العائد من الجهل والكلالة والعجز، الّذي أطبق عليه وجرّه إلى هذه الحالة، ويفهم من جديد قوله ﷻ: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾،[1] من حيث كونه إشارات وضعها الله تعالى أمام الملائكة، وأمام البشر تدلّ على أنّ القدرة الّتي وُهِبَها آدم عليه السلام على وضع الأسماء بعدما تعلّمها هي الّتي أهّلته للخلافة معجزة الله فيه، والّتي ستخرجه من الفساد والسّفك بالعلم والنّظر إلى كيف بدأ الله الخلق، والّذي سيوصله إلى تزكيّة نفسه، والتّرقي إلى الخير والصّلاح بعد أن يتجاوز خطيئتي احتقار الذّات وتضخيمها، وهما ببساطة خطيئتي الاستضعاف والاستكبار، واللّتان هما نتيجتان للجهل بكيف بدأ الخلق؛ أي الجهل بالماضي والتّاريخ، يقول جودت سعيد: «أي أخي وحبيبي ابن آدم: إنّك مخلوق لا تعرف نفسك ولا ما تحتويه من تراث الماضي، ولا ما أنت مهيّأ له في المستقبل من مؤهّلات الخلافة. إنّ معرفة ماضيك شيء جوهري، إنّك لن تعرف قدرك الموضوعي إلاّ بأن تتعرّف إلى ماضيك وتفتّش خفايا تاريخك».[2] ومعرفة الإنسان للتّاريخ وللعواقب ستخرجه من الاستضعاف حين يعرف أنّه قطع طريقا حافا بالتّحديات والعقبات، ولن يعجز عن ما سوف يقابله في مستقبله، وهو بهذه المؤهّلات، وسيخرج من الاستكبار حين يدرك قيمة الأثمان الّتي دفعها بسبب جهله بالتّاريخ والماضي، وبعده عن الحق.

هذه المعرفة ستمكّنه من الوصول إلى القدرة على تجنّب الخطأ وعدم تكراره، وعلى تغيير المواقف بعد كشف السنن، وإلاّ فلن يكون حينها قد فهم قوله : ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ﴾،[3] ولا قوله ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين».[4]

---

[1] سورة البقرة، الآية: (30).

[2] جودت سعيد ومحمّد عنبر: الإنسان والحقّ، ص 30.

[3] سورة البقرة، الآية: (30).

[4] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين، حديث رقم: 6133، ص 1532.

5. الإنسان والوحي:

إنّ الإنسان وهو مخلوق للعبادة، وأداء الخلافة يحتاج إلى توجيه حتّى يهتدي إلى الطّريق الصّحيح، بعد أن يعرف أصل وجوده ومهمته المنوطة به، وخالقه العظيم، ومنزلته هو في الوجود، وقد لازمه الوحي الإلـهي خلال مسيرته الطّويلة إلى أن ختمه الله بالقرآن مع الرّسالة الخاتمة، والّذي سيبقى خالدا إلى قيام السّاعة، وما هذا إلاّ دلالة على كفايته للبشريّة، لكن المتأمّل في حال الأمّة الإسلاميّة والقرآن بين يديها هو هو، الّذي أخرج من الرّعيل الأوّل قادة للبشريّة، وصناعا للحضارة الإنسانيّة الوحيدة بالمقياس الحقيقي للتحضّر فأين الخلل؟ ما الّذي حدث للأمّة حتّى فقدت تأثير الوحي فيها؟

1.5. كيف تتعامل مع النّص:

لقد حاول جودت سعيد تشخيصَ الخلل، وعرضه من زاوية فهم معيّن، وقد اعتمد على حديث النبي ﷺ الّذي أشار فيه إلى ارتفاع العلم، وأنّ الكتاب سيفقد معناه، والّذي بدا للصّحابة حينها أمرًا مستبعدًا وغريبا وعلى رأسهم زياد بن لبيد رضي الله عنه، وكان ردّ عليهم الرّسول ﷺ ردًّا ممّا يعرفون، وممّا يرون أمامهم من واقع، ومن مرجعيّة لا بدّ أن تترسّخ في الأذهان وهي التّاريخ، وذكر ﷺ اليهود والنّصارى والتوراة والإنجيل بين أيديهم يقرؤونهما، لكنّهم لا يستفيدون ممّا فيهما بشيء، وهو تصوير دقيق من ذي بصيرة نافذة مؤيّدة بالوحي يحذّر فيه الأمّة من أن يأتي عليها يوم يفقد فيه الكتّاب معانيه وهو بين يديها، لا لشيء إلاّ لأنّ الّذين يقرؤونه حينها غير الّذين قرؤوه أوّل مرّة وفهموا بسلامة عقولهم ونقاء عقيدتهم وصدق إيمانهم ما غيّر الله تعالى به أحوالهم ورفعهم إلى خير أمّة أخرجت للنّاس؛ لأنّهم عاشوا إنسانيتهم بالقدر اللازم من التوازن بين الخفض والرّفع، أمّا من جاؤوا بعدهم فقد رفعوا أنفسهم فوق المستوى البشري يهيمون في زهو أنّهم ما زالوا خير أمّة أخرجت للنّاس، وأنّها فوق مستوى الأمم الأخرى الضّالة كلّها، سواء عملت الصّالحات، وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر أو لم تفعل، وهي أمّة جعلت كتابها مهجورا في سعيها إلى إيجاد المثل الأعلى لها خارجه، هنا أو هناك، فصارت بذلك فريسة تحققت فيها نبوءة الرّسول ﷺ في ما يعرف بحديث القصعة، وحالها نتيجة حتميّة منطقيّة؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الارْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ

سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾،[1] فالكبر والغفلة حاجز يحول بين الإنسان والاهتداء، وهو حال الأمّة الّتي ضيّعت الرّشد بتضييع معاني الكتاب، وهو بين يديها، ولن تستعيده إلاّ حين تنتبه من غفلتها، وتدرك قيمة النّور الهادي، والّذي ما يزال بين يديها، ولكنّها تحتاج إلى من يحسن قراءته وتدبّر معانيه، وفهم حكمه وعِبَرِهِ، وتمتلك بذلك علما بسنن الآفاق والأنفس وتخرج به من التّيه إلى الحقّ ومن العجز إلى الفاعليّة، ومن التأثّر إلى التّأثير وصنع الأحداث، وصنع التّاريخ للشّهادة على الأمم، والتّرقي إلى مكانتها اللائقة بها، والقرآن الّذي بين يديها كفيل بهذا كلّه.

2.5. انقطاع الوحي:

كما ذكر سابقا، شاءت القدرة الإلـهيّة أن يكون القرآن خاتما للوحي، والّذي اكتمل بتمام مهمة محمّد ﷺ بنجاح في قوله ﷻ: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيْنًا﴾،[2] وهو دليل على انقطاع الوحي، وإيذان بميلاد الأمّة وخروجها من الرّحم، وانعطاف في تاريخ البشريّة كلّها، والّتي أصبحت قادرة على العيش والتنفّس والغذاء بمفردها كالجنين بعد ولادته، وكذلك البشر أصبحوا الآن قادرين على أخذ الهداية من القرآن في أيّ مكان وأيّ زمان، بعد أن تهيّؤوا مع الرّسول ﷺ وبتوجيهه، على الاعتماد على الوحي وفهمه، إلاّ أنّ الأمّة عاودت الحنين إلى الحياة الرّحميّة، وهي في عجز تام على فهم الوحي من جديد والانطلاق دون خوارقيّة أو إعجاز، بل بالأخذ بالسنن، والسّعي إلى التّغيير، وإعادة التجربة الأولى مع الرّعيل الأوّل، وكلّ عوامل النّجاح موجودة إلاّ القدرات الفهميّة، الّتي ستوفّر إن وجدت الأسباب، والشّروط الّتي ستنجح التجربة المحمّديّة مرّة أخرى، والتّاريخ ينبئنا أنّ التجربة كانت سننيّة بشريّة لا مجال فيها للخوارق، والنّجاح كان رهين الإخلاص، والقدرة الفهميّة، والتّطبيقيّة للقرآن. يقول محمّد رشيد رضا: «لو كان للبشر حاجة بعد القرآن ومحمّد ﷺ إلى الآيات كما يدعي المفتونون بالكرامات ومخترعوا الأديان، والنِّحل الجديدة لما كان لختم النّبوّة معنى».[3] وهو بهذا يتّفق مع جودت سعيد في كون انقطاع الوحي انعطاف هام في تاريخ الإنسانيّة، وأنّ نزول

---

[1] سورة الأعراف، الآية: (*146*).

[2] سورة المائدة، الآية: (*03*).

[3] محمّد رشيد رضا، الوحي المحمّدي، ط*9*، *1399* هـ - *1979*م، بيروت ص *228*.

أوّل كلمة منه، وهي «اقرأ» كانت ولادة حقيقيّة للإنسان، وخروجه من رحم التّاريخ، ورحم ما وجدنا عليه آباءنا، ليشبّ الرّعيل الأوّل، ويمثّل مرحلة الرّضاع، وهو بين يدي الرّسول ﷺ يرعاه ويتعهّده بالتّوجيه، ويكبر شيئا فشيئا، حتّى يدرك وقت الفطام، وينقطع عن ثدي أمّه، كما توقّف الوحي، وأصبح جاهزا للاعتماد على وسائله في الغذاء والتّنفس، ودائما بتوجيهات أمّه تماما كحاجة الإنسان إلى الوحي في جميع أحواله إلى قيام السّاعة.

ومسألة ختم النّبوّة اشتبهت على كثيرين مع مسألة ختم الرّسالة، وقد انتقد مرتضى مطهري في هذه القضيّة محمّد إقبال، الّذي تناول هذه المسألة في كتابه تجديد الفكر الدّيني، ورأى أنّ إقبال يخطئ خطأً فادحًا عندما يعتبر الوحي إلهاما غريزيا، وأنّه كلّما نضج العقل التّجريبي المفكر ضعفت الغريزة إلى أن اكتمل النّضج العقلي بالإسلام، وحان ختم النّبوّة، لتبدأ مرحلة ما بعد الخاتميّة المعتمدة على العقل التّجريبي، وإقبال يرى أنّ التّجربة الباطنيّة لا بدّ أن تخضع للدّراسة والنّقد والتّحليل، فيقول: «... بناء عليه فإنّه ينبغي الآن النّظر إلى التّجربة الباطنيّة مهما كانت غير عاديّة، وغير معروفة تماما كما ننظر إلى أيّة تجربة طبيعيّة وإخضاعها كسائر أشكال التّجارب البشريّة الأخرى للنّقد والدّراسة والتّحليل»،[1] ويعلّق عليه مرتضى مطهري بقوله: «الإشكال الثالث هو أنّ إقبال يعتبر الوحي نوعا من الغريزة وهذا أمر خاطئ، وقد أدّى هذا إلى بروز أخطائه الأخرى»،[2] ويظهر أنّه يأخذ عليه اعتبار الوحي نوعا من الغريزة، بينما الوحي أعلى – عنده – من الإحساس والعقل بدرجات «وأنّ المجالات الّتي يتم كشفها بواسطة الوحي هي أعرض وأوسع وأعمق من المجالات الّتي باستطاعة العقل التجريبي اكتشافها»،[3] وكلامه دال دلالة واضحة على أنّ الوحي لم ينقطع لبقاء الكشف والإلهام المتواصل، الّذي ينتقل عن طريق الأئمة والأمر واضح إذا ما وصلناه بالبعد العقدي عند صاحبه.

وعلى كلّ فقد كان انقطاع الوحي، وختم النّبوّة إيذان باكتمال الدّين وكفايته للعالمين، وإعلان عن قدرة العقل على الإفادة منه، والعمل بتوجيهاته، لقيادة الإنسان قيادة رشيدة نحو الحقّ والخير والصّلاح في الدّنيا والآخرة.

---

[1] مرتضى مطهري، نقد الفكر الدّيني، جمع وتصنيف: مهدي جهرمي ومحمّد باقري، ط1، 2011 – 1432 هـ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن – فرجينيا، الولايات م. أ، ص 19 – 20.

[2] المرجع نفسه، ص 20.

[3] المرجع نفسه، ص 21.

3.5. طريق الحقّ ودعوة الأنبياء:

إنّ القرآن الكريم قرّر الحقائق كلّها، ما توصّل إليه البشر، وما لم يتوصّلوا إليه بعد، ومن أهمّها حتميّة الهلاك لمن يخالف سنن وشروط البقاء أمما أو حضارات على السّواء، وقد وصل دارسوا التّاريخ إلى هذه الحقيقة من أمثال أرنولد توينبي الّذي وبعد وصوله إليها، تمنى للحضارة المسيحيّة أن تتمكّن من الاستجابة للتّحدي وتتجنّب الهلاك، وهو الّذي كشف قانون الحضارات في بدئها ونموّها واستطالتها ثمّ انهيارها، ثمّ تحللها، وكذلك ابن خلدون الّذي اكتشف قانون الدّولة وسنّة ولادتها ونموّها ثمّ تراخيها وفنائها، وقد قدّر دورتها بأربعة أجيال؛ أي نحو (120 – 150 سنة) بينما قدّر أرنولد توينبي دورة الحضارة الّتي يمكن أن تمتدّ إلى آلاف السّنين أو تتجمّد قبل اكتمالها، وهما دورتان تنبه إليهما الرّجلان وأبدعا أيّما إبداع في التّفصيل والدّراسة والنتائج، أمّا جودت سعيد فتنبّه إلى دورة من نوع آخر، وتتعلّق بالإنسان وكدحه فيقول: «فإنّني وبفضل القرآن ومراقبة التّاريخ تنبّهت إلى دورة غير دورة الدّولة وغير دورة الحضارة»،[1] واقترح أن يرتبط اسمها بالإنسان وتكون عنوانا لكدحه وسعيه الدّائم إلى ربّه، فيقول: «الحضارة الّتي تنبهت إليها ينبغي أن نبتكر لها اسما جديدا، قد نقول: إنّها كدح الإنسان، أو السّعي الكادح»،[2] وهو الكدح الّذي دعا إليه جميع الأنبياء من لدن آدم عليه السلام، عبر نوح وإبراهيم عليهما السّلام ووصولا إلى خاتم الأنبياء ﷺ، دعوا إلى نوع جديد من الكدح عبر النّظر والتّدقيق في التّاريخ، واكتشاف قانونه، وأخذ العبر من أحداث السّابقين، محذّرين في الوقت ذاته من عواقب إهماله، وعدم فهم قانونه، وسوف يجتمع النّاس على هذه الدّعوة وعلى طريق الأنبياء، وكلمة السّواء الّتي جاءوا بها، حينها سيزول قانون الغالب والمغلوب، وبالتالي هيمنة الإنسان على أخيه الإنسان وسيختفي الاستعباد والظّلم، وتتهيّأ النّفوس لطرد الإكراه في الدّين وفي الحياة بالرّشد لا بالإكراه والعنف، ويظهر حينها أيضا حلم آدم عليه السلام الّذي رجع إلى ربّه وإلى الحقّ بعد أن أدرك خطأه وتاب، وحلم خير ابني آدم الصّالح الّذي لم يدفع الظّلم بالعنف بل دفعه بالحِلم، ورضي أن يكون مقتولا على أن يكون قاتلا، وحلم الأنبياء وصبرهم على الأذى ومقابلتهم له بالإحسان والدّعوة إلى الحق وإلى كلمة السّواء.

---

[1] جودت سعيد، كن كابن آدم، ط1، 1997، دار الفكر، دمشق، ص 268.

[2] المصدر نفسه، ص 269.

إذن منهج الحق هو طريق آدم ﷺ، وخير ابني آدم وطريق الأنبياء جميعا، وهو الصّراط المستقيم الّذي بيّنه الله لعباده في قوله ﷻ: ﴿وأنّ هذا صراطي مستقيما فاتّبعوه ولا تتبعوا السّبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلّكم تتّقون﴾،[1] وهو السّبيل الوحيد للفوز والنجاة في الدّنيا والآخرة.

4.5. الاستعداد العجيب:

إنّها ثنائية مركبة في الإنسان جعلته مستعدا لتزكية نفسه أو تدسيتها بنفس ألهمت فجورها وتقواها، قال ﷻ: ﴿ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾،[2] استعداد مزدوج لكائن مزدوج الطّبيعة، الطّين ونفخة الرّوح، ما جعله مستعدا للخير وللشّر، للهدى والضلال، وفي الوقت ذاته هو مخلوق قادر على التّمييز بين الأمرين بما أتاه الله من قوى واعية فيه هي مناط التّكليف والمحاسبة، وبيده توجيه نفسه إلى الخير والتّقوى أو إلى الفجور والفساد، ثمّ أرسل الله إليه الرّسل بعدما ركب فيه من الاستعداد والقدرة الواعيّة، حتّى تعينه على توجيه نفسه ويكون الوحي مرجعا له.

والّذي يَلتبس على بعض النّاس هو: هل الفجور والتّقوى من الله ولا دخل للإنسان فيهما؟ والأمر واضح لمن يتأمّل قوله ﷻ: ﴿ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورُهَا وَتَقْوَاهَا﴾، فهنا تركيب الاستعداد في الإنسان، وإلهام النّفس الفجور والتّقوى من الله، لكنّ جعل هذه النّفس فاجرة أو تقيّة فمهمة الإنسان لقوله ﷻ: ﴿قَدَ افْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.[3]

والإنسان المقصود هنا هو الإنسان ببعديه الفردي ووظيفته تزكية نفسه، أو تدسيتها، أو الجماعي ووظيفة المجتمع هي إعانة الفرد على تزكية نفسه، وتعليمه الحقّ والخير والرّشد وحمايته من تدسية نفسه بنهيه عن المنكر والفساد.

وخير ما يعين الإنسان سواء فردا أو مجتمعا على تحقيق ذلك هو الوحي الّذي يزوّد الإنسان بالموازين الدّقيقة والثابتة ليكشف بها سبيل الحقّ ودلائل الهدى في نفسه وفي الآفاق من حوله وتتّضح له معالم طريقه، وهو مخيّر بعد ذلك في اختيار السير في طريق الحق أو الحياد عنه،

---

[1] سورة الأنعام، الآية: (153).

[2] سورة الشّمس، الآية: (7 -8).

[3] سورة الشّمس، الآية: (9 - 10).

في حدود مشيئة الله بالإنسان، والّذي خلق النّفس سوية مستقيمة على الفطرة مستعدة لما يختاره الإنسان لها.

والتّاريخ يسجّل في ذاكرته الحيّة تعب الإنسان من الإعراض عن سبيل الرّشد، وعن طرق تزكية نفسه، وهو بوعي أو بدون وعي يسعى إلى تدسيتها ويكرّس انصرافه عن الحقّ عقوبة له من الله ﷻ وهو القائل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الّذِيْنَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الارْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وإِنْ يَرُوا سَبِيْلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً، وإِنْ يَرُوا سَبِيلَ الغيّ يتَّخِذُوهُ سبِيلاً ذَلِكَ بِأنّهُمْ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾،[1] وسواء كان سبب ذلك تكذيبه أو غفلته فإنّهما متحقّقان في واقع الأمّة الإسلاميّة اليوم، وكذا في حالة المسلم من العجز والكلالة، وهما نتيجة سوء التّقدير والاختيار بسبب البعد عن الوحي، وتعطيل القوى الواعية في الإنسان، يقول ﷻ: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُ ولاَ يَشْقَى. وَمَنْ اعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾،[2] إنّه ضنك ولهث دون طائل في الدّنيا والعمى يوم القيامة؛ إذْ إنّه كان في الدّنيا أعمى رغم حاسّة البصر لديه، وما حلّ به من صنع يده، وعاقبة سوء اختياره.

5.5. هل إلى خروج من سبيل؟

لقد أشار جودت سعيد إلى الرّشد الّذي جاء به الأنبياء، والحقّ الّذي عاشوا وعانوا الشّدائد والمحن لأجل إيصاله إلى النّاس، والخروج بهم إلى النّور والصّراط المستقيم، وإلى الكلمة السّواء الّتي اجتمعت عليها كلّ الدّيانات واتفقت عليها مبادؤها، وتجلّت في هدي محمّد ﷺ، بإخراج أنموذج متكامل في أبعاده الرّوحيّة والقيميّة والمادية، بمجتمع قائم على العدل واحترام حقوق الإنسان وحقوق الوجود كلّه، قادر على حماية نفسه، وحماية حقوقه، وضمان حقوق من حوله، خرج فيه النّاس من شريعة الغاب إلى شريعة الحقّ والعدل، بعدما نادى محمّد ﷺ في النّاس يطلب كلمة واحدة يعطونه إياها يملكون بها العرب وتدين لهم العجم وهي كلمة «لا إله إلاّ الله» وقد لخّصَتها الكلمة السّواء الّتي يتساوى فيها البشر جميعا، ولا يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله، قال ﷻ: ﴿تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدُ إِلاَّ اللهِ، ولاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، ولاَ

[1] سورة الأعراف، الآية: (146).

[2] سورة طه، الآية: (123 – 124).

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾،[1] وقد تحقّق معنى الآية مع الرّعيل الأوّل، وها هو يتحقّق اليوم –كما يرى جودت سعيد– أمام أعيننا فيما يعرف بالاتّحاد الأوروبي الّذي يضمّ أعتى الدّول الّتي دفعت أثمانا باهضة في حربين عالميتين لم تجن من ورائهما شيئا، إلاّ العبر والدّروس الّتي جعلتها تدرك أنّ السّلام والرّشد والكلمة السّواء هي الحل فيما بينها، ووصلت إلى صنع السّلام والحفاظ على مصالح بعضها البعض، دون أن تمسّ دولة بأخرى أو تتصادم معها، مع إذكاء الفتن والحروب في مستعمراتها لتكون خطوط إمداد لها بالخامات والخيرات دون مقابل يذكر، وبذلك يربح الجميع ولا يخسر منهم أحد، أمّا المسلمون فإنّهم يتلقون الصّدمة تلو الأخرى دون أن يصلوا إلى طريق للخروج من هذه المحن، ولإيجاد سلام إسلامي عادل يخرج به الإنسان من طبيعة الفساد والسّفك وحلّ المشكلات بالعنف إلى علم الله فيه، وما يعيده إلى ما يستحق به الخلافة والتّكريم من جديد.

6.5. علاقة الإنسان بالإنسان:

إنّ الإنسان بطبعه مُحبٌ للخير ومن طبعه أيضا اختيار أقصر الطّرق إليه، وهو حبّ مشروع لكن متى أخطأ في اختيار الطّريق الأسهل يبدأ الانحراف، والحقيقة أنّ اختيار أيسر وأقصر الطّرق إلى الخير في حدّ ذاته ليس هو الخطأ لأنّه قد يكون تحديا أمام الإنسان واختبارا لذكائه وقدراته باختزال الزّمن واختصار الجهد للحصول على الخير الأعم والأعظم، لكن إهمال أسباب النّجاح وأدواته وإبعاد حكم القدرات الفهميّة عند الإنسان الّذي يكون متّجها صوب تحقيق الخير وإزالة كلّ العراقيل بطريقة جنونيّة متهوّرة هو الّذي يفسد على الإنسان سعيه، ويجعل النتائج مغايرة للتّوقعات وفرضيات الانطلاق، ثمّ إنّ ترتيب الخير حسب درجات خيريّته ونفعه، ضروري للحصول على الخير والأبقى، ولعلّ أعظم الخير يكون في معرفة كيفية تحصيل الخير الكامن في الإنسان واستثماره ليسعى إلى حبّ الخير لأخيه الإنسان، وجعل علاقته بالإنسان مختلفة عن علاقته بالوجود وبالكون، وذلك لأنّ الّذي يأتيه من بني جنسه أعظم أثرا في نفسه، كالشّر تماما فما تصيبه به الطبيعة من أذى عبر الكوارث لا يؤثّر فيه بالمقدار الّذي يصيبه به الإنسان كأثر من يموت في زلزال في نفس أحبائه ومن يموت مقتولا من طرف إنسان آخر.

---

[1] سورة آل عمران، الآية: (64).

وتحصيل أكبر قدر ممكن من الخير في الإنسان يكون باحترامه وتقديره والعدل معه، وليس بالقهر والإكراه والظّلم فالخير لا يتحقّق إلاّ بالرّشد أمّا الغي والقهر والإكراه فلا يأت بخير أبدا، ويكون سببا لردود أفعال هي في حقيقتها استكبار أو احتقار.

ويرى جودت سعيد أنّ الأمّة لم تضيّع رشدها إلاّ حين لجأت إلى الغي والإكراه، وأنّ صفّة الرّشد لم تطلق إلاّ على الخلفاء الأربعة دون سواهم لأنّهم جاؤوا إلى الحكم باختيار الأمّة وبطريق الشورى والعدل، أمّا غيرهم فقد استولى على الحكم بالإكراه والعنف، وكانت هذه نقطة التحوّل في الحياة الإسلاميّة كلّها بتحوّل الحكم الرّشيد إلى ملك عضود يتوارثه الأبناء عن الآباء، وينحر بعضهم بعضا لأجله. وما يقال على الإكراه في السياسة يقال على الإكراه في الأفكار والانحراف بها عن الحقّ والرّشد إلى الغي والطّغيان، ويقال عن الأخلاق والانحراف بها عن الخير والفضيلة إلى الشّرور والآثام، والأمّة الإسلاميّة تعيش الغيّ وتتبع سبيله وتترك سبيل الرّشد والحقّ. ولو رجعنا إلى التّاريخ وجدنا أنّ علاقة الإنسان بالإنسان انحرفت مع ابني آدم عندما ضاع الرّشد من الّذي رفض الله قربانه، فاتّبع سبيل العنف والإكراه والظّلم حتّى وصل إلى القتل والنّدم بعده، وبقيت الإنسانيّة بعد ذلك تتأرجح بين السبيلين، وسنّة الله ماضية في تلازم الحقّ والخير مع الغي والطّغيان، ليهلك من هلك عن بيّنة، ويتفطّن الإنسان إلى ضرورة الخضوع إلى قانون التّاريخ، وأخذ العبر منه والوصول إلى سنّته وفرز الصّالح من الضّار والوصول عبر هذه المرجعيّة الصّادقة إلى ما فيه خير الإنسان وما فيه فلاحه وفوزه بحياة مطمئنة في الدّنيا وسعيدة يوم القيامة.

هكذا ينظر جودت سعيد إلى الإنسان ببعديه، وبتركيبته العجيبة، وباستعداده للفجور والتّقوى، ويريده أن يقرا آيات الكتاب قراءة جديدة متعقّلة، واستخراج النّور والحقّ منها، ويجعل عينا على الماضي، تتبصّر في أحوال الماضين، وتستنتج أسباب هلاكهم أو فلاحهم لصياغة منهاج حياة على هذه الأسس، وحذف الخطأ ما أمكن، وعين أخرى على الحاضر والمستقبل لتحديد الأبعاد المختلفة للحياة الطيّبة في ضوء الوحي الّذي لا بدّ أن يترجم إلى واقع حياة، والبحث في مكامن النّفس عن ما يجب تغييره والسّعي إلى تغيير ما بالمجتمع حتّى يغيّر الله ما بالأمّة من كلالة ويتحوّل إلى إعطاء وفاعليّة تعيد للأمّة صلاحها وأهليتها للشّهادة على غيرها من الأمم، ويتحقّق علم الله في الإنسان بصلاحه وخيريته وينجز الله وعده بأنّ الأرض يرثها الصّالحون المصلحون ويملؤونها خيرا وحقا، وينجزون دورة حضاريّة جديدة تتحقّق في ظلّها الخلافة

بتعمير الكون وإصلاح الأرض، والعبادة بتنفيذ أوامر الله وتعبيد الإنسانيّة له، قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الارْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾.[1]

وجهود الرّجل كبيرة في محاولات استنهاض الهمم والأفكار، وفتح البصائر والأبصار، حتّى يتسنى النّهوض من هذا السبات القاتل للطّاقات، والمعطّل لأيّ إنجاز، إلى جانب كوكبة كبيرة من رجال الفكر والإصلاح والّذين حملوا كلّهم هذا الهمّ، وانصبّت جهودهم على إعادة بعث الأمل في النّفوس لتحيا، والضّمائر لتستيقظ والهمم لتنشط لأداء الواجب الرّباني والواجب الإنساني، الرّباني بتحقيق مهمّة الخلافة أفرادا، وتحقيق الشّهادة أمّة وجماعات، والإنساني بتكسير قيود الجهل والكسل والجبن والانطلاق لإثبات الذّات، والتّدافع بين النّاس وإيجاد حيّز عال للوجود.

وما دام الإخلاص موجودا فلا بدّ للقدرة أن توجد، وتجد هذه الجهود الحلقة المفقودة للانطلاق وتحقيق غاية الغايات وإثبات صلاح الإنسان وخروجه من السّفك والفساد.

[1] سورة الأنبياء، الآية: (105).

المبحث الثاني: فاعليّة الإنسان كما يراها جودت سعيد.

تمهيد:

بعد التعرّض لنظرة جودت سعيد حول الإنسان من زوايا مختلفة واستنتاج أنّ هذا المخلوق أريد له أن يكون في الوقت ذاته عبدا لله خالقه، وسيّدا على نفسه وعلى الكون المسخّر له متى عرف كيف يستخرج القوانين، الّتي تجبر الكون على طاعته والتسخّر له، وقد أوتي من الممكنات ما يساعده على تحقيق الأمرين، العبوديّة على مدى الطّاعة والإذعان لأوامر الخالق ﷻ، والسّيادة على الكون من حيث التّعمير والبناء وممارسة المهمة الّتي خلق لأجلها وهي الخلافة كما أوتي منظومة متكاملة في أبعادها العقديّة، والعملية، والقيميّة، والفكريّة متمثّلة في الوحي الّذي أيّده به الله وأرسل به رسله وأنبياءه، لتأخذ بيد الإنسان إلى الصّواب والحقّ. ولا ننسى تركيبته العجيبة الّتي ينفرد بها عن سائر المخلوقات، فهو طيني ليستطيع التّعامل مع المادّة أي الكون ويستخرج قوانينها الّتي يسوسها بها في ما بعد، وهو روحاني بنفخة الرّوح فيه ليرقى بها نحو الكمال والجلال، خلال كدحه نحو خالقه، وسعيه الدّؤوب إلى نيل مرضاته.

ولئن كان الإنسان مجعولا خليفة فإنّ هذا الجعل لا تتحتّم به في واقع الحياة خلافته، ولا خيريته ولا سيادته على الكون، فيكون بها خليفة في الأرض في جميع الأحوال والظّروف، ولا حاجة به إلى العمل أو السّعي أو تحقيق شروط هذه الوظيفة الوجوديّة بل لا بدّ أن يفهم الإنسان أنّ جعله خليفة تكليف وواجب ربّاني متى قام به ووفّاه حقّه من تعمير الأرض وإصلاحها وتنفيذ أوامر الله فيها واجتناب نواهيه استحق التّكريم والمدح والتّمجيد، وإن هو أخلّ بهذا الواجب فسيستحق حينها اللّوم والمؤاخذة على قدر إخلاله وتقصيره، وهو حافز له للجدّ، ولبذل قصارى الجهد في تحقيق أسباب النّجاح، والوصول إلى الغاية المنشودة باستغلال الوسائل جميعها، وتحقيق الفاعليّة الّتي يدخل بها المسلم في نهضة تعيد له إمكان صنع التّاريخ من جديد، وإنشاء دورة حضاريّة جديدة بعد سباته الطّويل وإهماله لمهامه ومسؤولياته تجاه خالقه، ثمّ تجاه نفسه ودينه وأمّته.

إنّها الفاعليّة الّتي ستكون موضوع هذا المبحث وسنتعرّض لها من خلال تصوّر جودت سعيد، والله نسأل التّوفيق.

1. مفهوم الفاعليّة:

هي قدرة الإنسان اعتمادا على وسائله، للوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من النتائج، أي هي استغلال الإنسان لأقصى طاقاته من أجل الوصول إلى خير مردود. يقول جودت سعيد: «للاقتراب من معنى الفاعليّة أكثر، يمكن أن نعرّفها: بقدرة الإنسان على استعمال وسائله الأوّليّة واستخراج أقصى ما يمكن استخراجه من النتائج».[1]

كما يعرّفها أيضا بأنّها: «الصّفة الّتي تمكّن الإنسان من أداء واجبه ليصل إلى الهدف الّذي يرمي إليه».[2]

ويطلق عليها مرادفات كلّها تجتمع حول معنى الفعل ومعنى اتّباع السنن في توجيه الإنسان إلى رفع مستوى العمران ومستوى التحضّر، فيراها أيضا متحقّقة في «النّموّ» وكذلك في لفظة «المقدرة التّأثيريّة»،[3] ويجعلها كلّها دالّة على الفاعليّة ثمّ يعتمد على ما يقابل هذه الألفاظ فيصطلح عليها بـ: اللاّفاعليّة؛ أي عدم القدرة على استغلال الوسائل الممكنة للإنسان والوصول إلى النتائج الّتي كان من الممكن تحصيلها، ويصطلح عليها أيضا بـ«السّلبيّة» و«التّخلّف»، فيقول: «كما يطلقون على العجز الّذي يصاب به الإنسان مصطلح: اللافاعليّة أو السّلبيّة، أو التّخلّف».[4]

ثمّ يجد في القرآن مثلا يضربه الله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلىَ مَوْلاَه أَيْنَمَا يُوَجِهُهُ لاَ يَاتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.[5] ونلاحظ أنّ تعبير القرآن الكريم بالغ الدّقة في استعمال كلمة «الكَّلْ»، للدّلالة على اللافاعليّة، والأمر بالعدل للدّلالة على الفاعليّة والدّقة تكمن في أنّ كلمة الآمر بالعدل في الآية تدلّ ليس على الفاعليّة وحسب بل على الفاعليّة فيما هو نافع؛ لأنّ الفاعليّة ككلمة عامّة قد تكون فيما هو نافع كما تكون في غير النّافع أي في الضّار، وكذلك كلمة الكَّلِ لا تدلّ على العجز فقط بل على العجز والعبْء على الغير وأنّه أينما يوجّه لا يأت بخير أي مع

---

[1] جودت سعيد، الإنسان كلاّ وعدلا، ط1 (1441 هـ-1993م)، دار الفكر المعاصر بيروت، لبنان، ص 17.

[2] المصدر نفسه، ص: 13.

[3] المصدر نفسه،ص 14.

[4] المصدر نفسه، ص 14.

[5] سورة النحل، الآية: (76).

توجيهه والحرص على أن يفعل أمرا نافعا لا تكون أيّة نتيجة لهذا الدّفع، أمّا الآمر بالعدل أو الفاعل فانبعاثه ذاتي يقول جودت سعيد: «أمّا كلمة العدل ففعاليّته في الحق دائما، كما وإنّ أمره بالعدل ذاتي الانبعاث وليس مدفوعا إليه».[1]

وإذا تأمّلنا الآية المذكورة، وجدنا أنّ المثل الّذي ضرب فيها، إنّما لتقريب معنى معيّن إلى الأذهان. ليسهل الإدراك، ويتوصّل عن طريقه إلى ما هو أدقّ وأعمق منه، بعد أن أثار الانتباه واستدعى التّركيز ثمّ إنّ للمثل حكمة أرادنا الله أن نصل إليها من خلاله، وسيق أصلا لأجلها: إنّها بيان الفرق الشّاسع بين الفاعل والنّافع، والكّل العالة واستحالة التّسوية بينهما، ومتى أدركنا ذلك سهل علينا توجيه جهد الإنسان، وتحويله من كَلٍّ عالة إلى نافع آمر بالعدل، فيرتفع بذلك من أسفل سافلين إلى أحسن تقويم، ويتحوّل من السّفك والفساد إلى الخير والصّلاح، باتّباع تربيته على المنهج القرآني والهدى الرّباني، وما أنتجه الرسول ﷺ من البدو إلى سادة العالم دانت لهم الدّنيا، وسقط على أيديهم الجبابرة، لم يكن إلاّ بهذا التّوجيه والسّعي الدّؤوب إلى إخراج خير ما في الإنسان حتّى ينطلق بفكر آخر وعزيمة جديدة وعقيدة مثمرة في نفسه وفي حياته وفي آخرته.

ويعرف الكاتب جاسم سلطان في مقال عن الموضوع الفاعليّة بـأنّها: «مقاربة النّشاط المنتج من خلال الجهد البشري، والمنتج هنا تعني المنتج للحضارة».[2] ويقول أيضا معرّفا لها: «هي الإسهام المفيد للذات وللبشريّة والّذي يعطي مبرّرا للوجود».[3]

ويقارب جاسم سلطان مفهوم الفاعليّة بمفاهيم أخرى هي:

الوعي: والّذي يحدّده بأنّه الإدراك في أبعاد ثلاث: إدراك الذّات وممكناتها، وإدراك الآخر وقدراته، وإدراك الزّمان والمكان للبحث عن وعي يمكّننا من تقرير صناعة الحضارة أو استعادة الدّورة الحضاريّة للأمّة الإسلاميّة بعد أن تدرك تمام الإدراك ممكناتها هي، وممكنات الآخر، وتدرك الزّمان والمكان الّذي سيتمّ فيه التّدافع الحضاري، يقول: «إنّ ما نبحث عنه بهذا المعنى حالة من الرّشد تصاحب الرّوح والمحاسن، معادلة تقوم على أولي الأيدي والأبصار».[4]

---

[1] جودت سعيد، الإنسان كلاّ وعدلا، ص 14.

[2] مجلّة حرّاء، العدد 35 (مارس – أفريل 2013)، توزيع دار النّيل، مصر، تصدر في تركيا. عنوان المقال: الوعي الحضاري... فاعليّة وتمكين وشهود، لجاسم سلطان، ص 43.

[3] المرجع نفسه.

[4] مجلّة حراء العدد 35، مقال: الوعي الحضاري: فاعليّة وتمكين وشهود، لجاسم سلطان، ص 43.

والمفهوم الآخر الّذي يستعمله صاحب المقال للمقاربة كلمة «التّمكين»؛ الّتي تعني «زيادة القوّة للفرد والمجتمع والدّولة، بشكل ينعكس على قدرة الفعل وعلى ديمومة الفعل»، ويقصد بها الدّفع الّذي يسمح للفرد أو للمجتمع بأن يكون فاعلا مؤثّرا، وكذلك يسمح لهذا الفعل والتّأثير بالدّيمومة أمّا المفهوم الآخر هو «الشّهود»؛ والّذي يعني الحضور الفاعل والمؤثّر، والّذي سيسمح للأمّة أن تجد لنفسها مكانة بين الأمم عبر التّدافع الحضاري. ولا يربطه بالمعنى الآخروي فقط كما هو متداول، بل يرى أنّه يحتمل المعنيين الدنيوي والأخروي، لأنّ الشّهود الأخروي يقتضي شهودا وحضورا دنيويا على أنّ الأمم الضّالة خالفت المعايير الكبرى للقوانين الإلهيّة حيث يقول: «والشّاهد حاضر للوقائع عالم بها، فهو لا يشهد إلاّ على ما علم».[1]

أمّا محمّد البشير الإبراهيمي فيرى أنّ الفاعليّة هي: وجوب نقل المباحث النّظريّة إلى التّنفيذ العملي.[2] كما يجعل محمّد الإبراهيمي التّاريخ مرجعا لاستجلاب العبر والعظات منه، والحثّ على ضرورة إحياء أمجاده، ويكبر عليه أن تتحوّل المعارف الإسلاميّة إلى أشباح بلا أرواح بفعل التّقليد والتّبعيّة لفقد الاستقلال الفكري وكذلك فقد الاستدلال والبحث والنّظر.

ومقصد الفاعليّة عند محمّد البشير الإبراهيمي، أن نتحوّل من مجتمع التفكّك والتخاذل والضّعف والجّهل، إلى مجتمع منتج لنهضة منظّمة في جميع مجالات الحياة.[3]

ولا يفوتني أن أشير إلى أنّ جودت سعيد، والبشير الإبراهيمي يستعملان كلمة «الفعاليّة»، أمّا جاسم سلطان، وكذلك عبد المجيد النّجار يستعملان كلمة «فاعليّة»، وألاحظ أنّ المغزى المقصود عندهم جميعا هو معنى إثمار جهد الإنسان وتوجيهه إلى الخير، للوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه من خير إمّا بالصّيغة العادية، وهي «الفاعل»، أو الحرص على الوصول إلى أقصى ما يمكن الوصول إلى بصيغة المبالغة «فعّال»، لكن من خلال ما اطّلعت عليه فاستعمال الكلمة يراد منه تحويل الفكر إلى عمل والحصول على أفضل النتائج.

---

[1] مجلّة حراء العدد 35، مقال: الوعي الحضاري: فاعليّة وتمكين وشهود. ، لجاسم سلطان، ص 43.

[2] مجلّة حراء، مقال عمّار جيدل: أسس بعث الفعاليّة في فقه محمّد البشير الإبراهيمي، العدد 32، ص 54.

[3] المرجع نفسه، ص 54.

2. الإنسان والتّسخير:

إنّ منزلة الإنسان، ورفعة شأنه اقتضت تسخير الكون له وتهيئته ليكون صالحا لاستقبال الإنسان، وملائما للمهمّة الّتي أنيطت به، وتحدّدت على هذا الأساس علاقة الإنسان بالكون وهي علاقة رفعة وسموّ تخوّل الإنسان ليكون فاعلا في الكون، مستغلا هذا التميّز، وهذه السّيادة من جهة، ومستغلا سهولة وانقياد الكون لفعله من جهة أخرى.

وما كان الإنسان ليصل إلى اقتحام هذا الكون والسيطرة عليه، والإفادة منه لولا تركيبه على قوانين كمية وكيفية تحكم عناصره، وما ركّب في الإنسان من قدرة على الوصول إلى هذه القوانين وتطبيقها، والسّيطرة الفعليّة على كلّ ما حوله بها، والسؤال الّذي يتبادر إلى الذّهن: هل بإمكان الإنسان كشف قوانين النّفس الإنسانية لتسخيرها هي أيضا؟ وتوجيه الإنسان إلى التقوى، وإلى الخير والنفع؟ والتوصّل إلى تزكيتها والارتفاع بها إلى أحسن تقويم؟ يقول جودت سعيد: «يحدث هذا في مستوى أولى الكائنات وجزئ الجزيئات، ولكن كيف لا يتعلّم النّاس استثمار الإبداع الكامن في المخلوقات؟ وإذا كانت الطّاقة الكهربائية إلى هذه الدرجة من الأهمية في حياة الإنسان، فكيف تكون أهمية الطاقة الإنسانية الكّامنة في الإنسان إذا كشفناها واستثمرناها ؟!».[1]

والأمر ممكن بالنظر إلى انجازات الإنسان عبر الزمان، وكيف كشف قوانين المادة، وسخر الذرة والكهرباء، وسخّر الأرض وتكيف مع الطبيعة، فكلّها دلائل على قدرة الإنسان على كشف قوانين النفس لاسيما، وأنّه بعد أن كشف قوانين الجسد سيطر على الأمراض وعالجها وقلّص الأوبئة، ووصل إلى علاج الإنسان دون قتله، وما يعانيه الإنسان الآن من أمراض النفس أكثر من أمراض الجسد، فهل يصل الإنسان يوما إلى قوانين التزكية، وقوانين الصحة والمعافاة النفسية، ويسيطر عليها ليتمكن من أن يستخرج خير ما في الإنسان، واستثمار الطاقة الإنسانية الكامنة فيه، ويتمكن من الزراعة النفسية، واستئصال الأفكار الضارة، والصفات السيئة التي تراكمت على نفسه طيلة قرون ومنعت النتائج من الظهور، والجهود من الإثمار.

وكي يكون الكلام صحيحا لابد من دليل، والدليل عندنا في التّاريخ الّذي هو ذاكرة الإنسان الّتي لا تموت، فقد سجّل كيف نجح محمد ﷺ في تسخير النفوس وإخراج ما بها من

1. جودت سعيد، كن كابن أدم ، ص 238.

خير، لتتغير معالم الإنسان ذاته، فهذا بلال عبدا مملوكا مسخّرا للخدمة والطاعة لسيده فقط، نقله إلى صرخة حقّ في وجه الطغاة، وسيّدا كريما كان الرسول ﷺ يسمع حسيس قدميه في الجنة، وهذا عمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد رضي الله عنهما اللّذان أحسن محمد ﷺ استخراج الخير الكامن في نفسهما، وتحويلهما بعد أن كانا طاقة متوهّجة في الباطل إلى طاقة أشدّ توهجا في الحقّ.

فالتجربة إذن نجحت، وإمكان تكرارها وارد، وإعادة الكرّة واجب ورثة الأنبياء الّذين يتوجب عليهم بالعمل والسعي والإخلاص أن يعيدوا التجربة، وتتدفّق على أيديهم طاقات الخير الكامنة في الإنسان، فتنطلق الأمة وتنهض من هذا السبات المميت لتتحمل أمانة التبليغ وشرف الشهادة على الأمم.

1.2. ما السبيل إلى التسخير؟

إن القاعدة الّتي قرّرها القرآن في هذا المجال هي أنّ الكون، وإن كان مسخرا للإنسان، إلاّ أنّه لا يتسخر إلا بمعرفة سننه، يقول جودت سعيد: «لقد خلق الله الكون مسخرا للإنسان، وإذا لم يتسخّر فهذا لا يعني أنّه غير قابل للتّسخير، بل يعني أنّنا مقصّرون»؛[1] أي أنه مادام الكون قابلا للتسخير، والإنسان وهب القدرة على تسخيره، يبقى على الإنسان توفير شروط ذلك ليصل إلى الاستمتاع بنعم الله سبحانه وتعالى في الكون، والّتي لن تمكّنه من هذه المتعة لولا الإيمان الّذي يحدد علاقة الإنسان مع الكون على أنّها ارتفاق، والعمل فيه على أساس طاعة الله عزّ وجلّ وتعمير الكون، لا كما يحدث في الغرب اليوم وما يمارسونه على الكون من جنون الاستنزاف، وهستيرية التدمير للإنسان وللكون، ورغم ما وصلوا إليه من إنجازات إلاّ أنّهم مازالوا يتلمسون المزيد من التّسخير للتدمير والهلاك لا للاستمتاع والتنعم، لهذا لا بدّ من الرجوع إلى القرآن الّذي يجعل الغاية شرطا للتسخير، ثمّ ترتيب العواقب بعد ذلك لقوله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ العَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيْهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاَهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ ارَادَ الآخِرَةَ وسَعَى لَهَا سَعْيَهَا، وَهُوَ مُومِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلاًّ نُمُدُّ هَؤُلاَءِ وهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.[2]

---

[1] جودت سعيد، كن كآبن آدم، ص 89.

[2] سورة الإسراء، الآيات: (18، 19، 20).

ويظهر من هذه الآيات أنّ شرط التّسخير، هو حسن الاختيار الّذي يحدّد الإدارة، فمن اختار العاجلة (وطبع الإنسان العجلة)، ووافق بها طبعه الّذي هو التّسرّع في طلب ما ينفع مما يخطر بباله، فيجانب التّأني وتعكّر عليه عجلته الاهتداء الّذي لا يكون إلا بالتّبصّر والتّأني، وسيقوده ذلك إلى الانحراف؛ لأنّ طلب الدّنيا والعاجلة قصور في النّظر، وعمى في البصيرة وحرمان من الآخرة، ومن الدّنيا إذا فاته أن يطلب أمورا نافعة فعلا.

أما طلب الآخرة فهو سبب هام من أسباب الهداية، لما فيه من تأني وتبصّر، واستعداد للسعي والصبر الّذي يتطلبه هذا الأمر، والفرق بين طالبي الدّنيا وطالبي الآخرة، إنّ الأوّل محروم لا محالة، أمّا طالب الآخرة فمحظوظ بالخيرين معا؛ لأنّ اختياره للآخرة يجعله يحسن الصنع، والعمل في الدّنيا ليكون له الفلاح في الآخرة، وربطه الاختيار بالعاقبة كان السّبب في اهتدائه، وحسن اختياره، والعمل الصّالح في الدّنيا رجاء ثواب الآخرة، هو شرط التّسخير، وسبب كلّ فلاح .

2.2. إمكانية توجيه الإنسان:

لن يكون للتّسخير معنى، ولا للإنجازات الّتي حققها عبر العصور من استغلال البخار والكهرباء إلى الذّرة والفضاء، ما لم ينجح الإنسان في توجيه الإنسان، والوصول إلى قوانين النّفس الإنسانية لاستخراج طاقاتها، وحسن استغلالها؛ ليمسك الإنسان زمام نفسه، ويتوصّل إلى تطويعها للخير بتزكيتها، يقول جودت سعيد: «فإن كانوا يسمون هذا العصر عصر البخار والكهرباء ، والذرة والفضاء، فإن ما تنبه إليه هذا العصر من سنن توجه البشر أهم من كل ما سبق ، ولا قيمة لما سبق إن لم ينجح الإنسان في التوجيه الصحيح للإنسان».[1]

وهو الغاية الّتي حقّقها الأنبياء، والّتي يجب أن يسعى إليها ورثتهم، ما جعل ابن خلدون يتميّز في دراسته وأبحاثه هو أنّه جعل البشر محور أبحاثه، وتوصّل إلى السنن الّتي تحكم نشاطهم، يقول جودت سعيد: «والّذي جعل ابن خلدون يحتل مكان الصّدارة بين العلماء العالميين هو تنبهه إلى السنين –القوانين–الّتي تجعل البشر يرتفعون في مستوى العمران (الحضارات والنهضة) أو ينخفضون»،[2] كما أنّ أبحاث مالك بن بني ما كانت لتتعدى عصره، وتترسّخ بعده لولا اهتمامه

[1] جودت سعيد، الإنسان كلا وعدلا، ص 13.

[2] المصدر نفسه، ص 13.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

بالسنن الّتي يجب أن تراعي في التغيير وفي النهضة، وأهمّها ما تركز على الإنسان؛ لأنّ تسخير الكون الخارجي، ما هو إلاّ مقدمة لتسخير الكون الدّاخلي الّذي اختزل الوجود كلّه، ويكون هذا التّسخير بالوصول إلى قوانين النّفس الإنسانية، الّتي أولاها القرآن عناية خاصّة، وذكرها مفصّلة بينما الحديث عن الكون جاء مجملا، وحينها سيبدأ التّاريخ الحقيقي بإدراك معنى قوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحَقُّ﴾، [1] حينها ستصبح معالم هذه القارة معلومة، يقول جودت سعيد: «وأرجو أن تصير معالم هذه النّفس المجهولة معلومة، وإنّني حين أسميها القّارة أحط من قدرها كثيرا، فهي ليست قارة بل هي أم القارات، وليست من قارات الأرض، وإنما رأس الحربة في هذا الكون الذي خلقه الله ، وهي موضع سره تعالى الذي جعله قبلة ملائكته حين أمرهم بالسجود لهذا الإنسان في ذلك اليوم المشهود »، [2] وهو التّسخير الّذي سيصل به الإنسان إلى تحقيق علم الله ﷻ فيه، وإلى الكفّ عن تحقير نفسه، وإطلاق قدراته الّتي وضعها الله فيه وزوده بها؛ لتعينه على أداء الأمانة والقيام بأمر الخلافة، وبلوغ الكمال الّذي أراده الله ﷻ له، وقد حقّق كثيرا من هذه الأمور، أهمّها تعلّم القراءة والكتابة، واختزال الزّمن كلّه في ذاكرة لا تموت ولا تبلى، وهو يطمح إلى المزيد، إلى كشف سنن النفس الإنسانية لإحيائها بعد موتها، والمقصود ليس إحياء الأجساد فذلك من حق الله ﷻ وحده وقدرته دون سواه، بل المقصود بعث موتى الأفكار والعلم والإدراك، حينئذ سينجح الإنسان في توجيه الإنسان، وفي إظهار قوة الله ﷻ فيه، واستخراج الطاقات الكامنة فيه للوصول إلى الخير والأبقى، وبلوغ مرتبة الأمر سيحقّق فيها الآمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، هنالك فقط سيحقّق ما دعا إليه الأنبياء، وما جاءوا به من نشر الرحمة ورفع الأغلال، والآصار عن النّاس، والتّنافس على فعل الخير وجعل الدّنيا مزرعة الآخرة، وسيغيّر الله ﷻ أحوال الإنسانية وأحوال الأمّة، الّتي لا يليق بها ما هي فيه اليوم.

3. الإنسان والعمل:

إنّ العمل هو تجسيد الفاعليّة، وتحقيق النّفع والصّلاح بالسعي والجد في طلب الشيء، ببذل الوسع فيه للحصول على الخير، ولا بدّ أن يكون العمل ناجحا، حتّى تتحقّق الغاية المرجوة

---

[1] سورة فصلت، الآية: (53).

[2] جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ص 76.

منه، وكي يكون ناجحا، لا بدّ فيه من الإخلاص والصواب، والإخلاص: هو حبّ تحصيل أمر ما وإرادته، أمّا الصواب: فهو معرفة كيفية تحصيل هذا الأمر المراد. وقد قال الفضيل بن عياض في قوله ﷻ: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾،[1] قال: «أخلصه وأصوبه». قالوا: «يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إنّ العمل إذا كان خالصا لم يقبل حتّى يكون خالصا وصوابا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة».[2]

وأهمية العمل بالغة، لتعلّقه بمشكلة المجتمعات البشرية عامة ومشكلات المجتمع المسلم خاصّة، ويحاول جودت سعيد طرح إشكالية العمل من جهات متعددة.

فمن الناحية المفاهيمية يرى أنه :«حركة بقصد، ولا نسمي الحركة بغير قصد عملا »؛[3] لأن معظم الموجودات تتحرك كالشمس لقوله ﷻ: ﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لمسْتَقَرٍ لَهَا﴾،[4] وكذلك الرياح، والليل والنهار والأفلاك : قال ﷻ: ﴿وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾،[5] لكن حركتها جميعا ليست عملا، فالعمل القاصد هو ما تعلق بالإنسان الذي يريد قال ﷻ:﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُومِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾. [6]

وما دام العمل حركة بقصد فيمكن القول إن العمل: حركة وقصد أو هو : قدرة و إرادة، ولا يكون إلا بهما معا. لأن الحركة كطاقة موجودة عند كل الكائنات التي تتحرك: كالغصن، والسحاب، والشمس، والنهر، وغيرها، لكن يتميز عنها الإنسان بوجود هذه القدرة عنده هو أيضا لكن معها الإدارة، فإذا مشى فإنّه يمشي لقضاء حاجة أو حتى للترويح عن نفسه، وكي يمشي لا بد له من قدرة إلى جانب الإرادة وإلا لما استطاع كالطفل الصغير والعاجز فرغم إرادتهما للمشي لكنها يفقدان القدرة عليه، وبهذا فالعمل يتولد من القدرة و الإدارة معا.

وهو ما دفع جودت سعيد إلى اعتبار القدرة والإرادة ركنا أي عمل يوجد ضرورة بوجودهما، ويكتمل باكتمالهما، يتناقص بتناقصها يقول ابن تيمية مجيبا على سؤال عن الهم والعزم والإرادة: «والإرادة الجازمة هي التي يجب وقوع الفعل معها إذا كانت القدرة حاصلة، فإنه متى

---

1 سورة الملك، اللآية: (02).

2 جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ص 18.

3 المصدر نفسه، ص 83.

4 سورة يس، الآية: (38).

5 سورة يس، الآية: (40).

6 سورة النّحل، الآية: (97).

وجدت الإرادة الجازمة مع القدرة التامة، وجب وجود الفعل لكمال وجود المقتضي السالم عن المعارض المقاوم»،[1] ويواصل ابن تيمية في بيان وجوب تلازم الإدارة والقدرة لحصول الفعل«ومتى وجدت الإدارة والقدرة التامة ولم يقع الفعل، لم تكن الإرادة جازمة »،[2] ولا يكفي وجودها فحسب بل لابد من التلازم الزمني بينهما في هذا الوجود لأن تخلف أحدهما بعد الآخر يؤثر في وقوع العمل أو مردوده، ويقول في ذلك ابن تيمية: «فقد يعزم على الفعل من لا يفعل منه شيئا في الحال، والعزم على أن يفعل في المستقبل لا يكفي في وجود الفعل».[3]

ويقرر جودت سعيد أنه كما أن الإنسان وجد من تلاقح بويضة وحوين فإن العمل أيضا وجد من تلاقح القدرة والإرادة، وينشأ منهما عمل سيحدد مصير الإنسان فإما أنه سينقذه أو أنه سيهلكه ومهما كان العمل ضيئلا أو جليلا فإن ركناه هما القدرة والإرادة مهما اختلفت مجالات العمل في الآفاق أو في الأنفس.

وهذا يوجب على الإنسان أن يتعمق في فهم القدرة وكذلك الإرادة حتّى يتمكن من توجيه الإعمال إلى الأحسن والتأثير فيها وقد أعجبني مثل ضربه جودت سعيد للتوضيح، بالحج وأصناف الناس مع هذه الفريضة: فالصنف الأول: من يملك القدرة لكن لا إرادة له في الحج (انعدام الرغبة)، وصنف ثاني يتحرّق شوقا للحج لكنه لا يملك القدرة، وثالث لا يملك القدرة ولا يريد أن يحج ورابع يملك القدرة ويتحرق شوقا للحج، فالأوّل تنقصه الإرادة، والآخر تنقصه القدرة، والثالث تنقصه كل من الإرادة والقدرة والرابع لا يمنعه مانع وهو الّذي سيحصل منه الحج.

وبناء عليه فلابد من التنقيب داخل نفس المسلم، والبحث عن الشيء المفقود لديه ليوجد منه العمل الصالح، ويكون فعالا في حياته، ويكون كالغيث حيثما وقع نفع كما قال ﷺ.

ولابد من توضيح كل من الإرادة والقدرة حتى تكتمل صورة العمل، فالإرادة هي أن ترغب في الشيء وتريده وتعزم على تحقيقه وهي مختصة بالإنسان دون سواه، فكيف يصبح حين يفقدها؟ أو بالأخرى تنحرف لديه؟

---

[1] جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ص *21*.

[2] المصدر نفسه، ص *21*.

[3] المصدر نفسه، ص :*21*.

إن الإرادة مميزة للإنسان عن باقي المخلوقات وذلك لأنها وظيفة العقل، وكما أن الإنسان —مثلا— يشم الروائح فيقبل منها الزكية وينتعش بها، وينفر من الكريهة بالفطرة إن كانت حاسة الشمّ لديه معافاة، فكذلك العقل إذا كان بعيدا عن الهوى والضلال ووسوسة الشيطان فإن حكمه على الأفكار التي تعرض عليه سيكون صائبا، فيستحسن الحسن منها ويستقبح القبيح لأنه هو جهاز التمييز لدى الإنسان والإرادة وظيفة من وظائف هذا الجهاز ، وهي رصيد يملكه كل إنسان ، ويبقى عند الناشئة نقيا قبل أن تتدخل إليه أيادي أهل الباطل والفساد، وهنا يكمن دور القائمين على التربية والإعداد من أهل الحق في أن ويسبقوا إلى توجيه الأجيال الناشئة لاختيار الأحسن والأفضل، وعرض الأفكار الصالحة عليهم ليتشبعوا بها على الأفكار الهدامة المفسدة.

ويواصل جودت سعيد عرض الإرادة؛ إذْ يرى أنها بدورها تتولد من أمرين هما: العقل و المثل الأعلى، فإذا عرض مثل أعلى حق على العقل واختاره حصلت الإرادة المولدة للعمل الصالح النافع، وإذا عرض على العقل مثلا أعلى فاسدا، واختاره لأنّه بدوره محجوب عن الحكم الصحيح بهوى أو ضلال أو جهل فلابد في هذه الحالة من معالجة هذا الخلل بالعلم وإبراز الحق وهي المهمة التي جاء لأجلها الأنبياء والمصلحون والآمرون بالقسط من الناس، وما الهداية إلاّ إزالة الحجب عن العقل فيعود صافيا كما خلقه الله يحكم حكمه الصّحيح على الأشياء، ولا يتعلق إلا بالمثل الأعلى الصحيح فتحصل الإرادة المنتجة للعم الصالح، وهذه الحتمية تغيب عن مسلم اليوم والذي يقنع نفسه بقوله: «علي أن أسعى وليس علي أن أدرك النجاح»؛ لأنّه ترسخ في ذهنه قناعة بذل الجهد دون البحث والنظر إلى النتائج، مع أنه على قدر رفعة الأهداف والنتائج يكون البذل والسعي، ويكون الأمر أشد خطورة وتثبيطا للهمم، وأكبر إعاقة إذا أقتنع بأن الأعمال كانت صائبة لكنها لم تنجح ولم تأت النتيجة المرجوة لأمر أراده الله، وهي في الحقيقة تحويل لنظر المسلم عن رؤية أسباب الإخفاق وتجنب تكرارها والبحث عن الحل الذي يكلل حتما، العمل بالنجاح، يقول جودت سعيد: «وإن اعتقاد المسلمين بأن النجاح ليس نتيجة حتمية للسعي الصالح، هو من أشد المعوقات التي تمنع المسلمين من مراجعة أعمالهم ونقدها، لأنهم لا يفرضون فيها الخطأ، بل يفرضون أنها كانت صائبة، ولكن لم تأت النتيجة المطلوبة لأمر أراده الله، إن مواجهة هذه القناعات أمر جوهري لتحويل نظرا المسلم في رؤية سبب الإخفاق»،[1] هذا لأن الله

---

[1] جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ص *108*.

لا يخلف وعده، وسننه لا تتبدل، إنما السبب في تخلف المسلمين هو سعي خاطئ أو منقوص أدى حتما إلى تخلف النتائج، وعليهم بالبحث والتنقيب في أحوالهم وأنفسهم لاستخراج عوامل الفشل، وعدم تحميلها للغير أو الاطمئنان إلى توافر الجهود والسعي والإخلاص لكن النتائج تجافينا، ولا يكونون كالإمام الذي تأخر على الناس في صلاة الصّبح فلامه النّاس واتّهموا ساعته بأنّها سبب تأخيرهم، فقال لهم: إن ساعتي ليست متأخرة بل الشمس هي التي أسرعت اليوم في الطلوع.[1]

ومنه فعلى المسلمين أن يبحثوا عن سبب فشل محاولات الإصلاح التي لا يشك أحد في صدقها، لكن مادامت لم تثمر نهضة الأمة فيعني ذلك وجود علل لا بدّ من الوصول إليها وينطلقون منها لتصحيح الأخطاء في الإرادة سواء في المثل الأعلى أو في ما يصل إلى العقل وستأتي النتائج بأذن الله دون تخلف.

ويضرب جودت سعيد مثلا تاريخيا عن اختيار المثل الأعلى الخاطئ بألمانيا واليابان في الحرب العالمية *II*؛ حيث آمنت كلّ منهما بفكرة التفوق العنصري، وأثارت في شعوبها روح التضحية من أجل العلو والاستكبار في الأرض ، والأمم الضعيفة التي فقدت المثل الأعلى أصلا وفقدوا روح التضحية فكانت فريسة للضعف أولا ثم للاستعمار والأطماع المتكالبة.[2]

والقرآن الكريم يدين كلا الصنفين، المستكبرين والمستضعفين ويعتبر ميتتهما جاهلية، مشيدا بالذين يقاتلون في الأرض لحماية الحق ولتكون كلمة الله هي العليا، وما تنطوي عليه كلمة الله من حق وعدل ورد للظلم والفساد والعدوان ، قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل».[3]

وقد يتساءل أحد هل يتساوى فاقد الإرادة ومالكها؟ نقول: إن القرآن الكريم، وهو يربي الإنسان ويتعهده بالتوجيه الإلهي يبين له أن فقد الإرادة يعرض صاحبه للوم، ولا يعذر أبدا ، كما يصنف الناس في مسالة الإرادة والمثل الأعلى إلى ثلاث: المؤمن والكافر والمنافق، أما المؤمن فقد صحت منه الإرادة؛ لأنّ مثله الأعلى وهو الدين الصحيح، وأما الكافر والمنافق فيفقدان الإدارة،

---

[1] جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ص *112*.

[2] المصدر نفسه، ص *138*.

[3] صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالما جالسا، رقم الحديث: *123*، ص *44*.

لأن الكافر لا يريد اتباع المثل الأعلى الحق، وهو بذلك لا يريد الإيمان، والمنافق يظهر أنه يريد الإيمان بينما هو في الحقيقة لا يريده، ويسعى بكل جهده للخداع والمراوغة.

والقرآن لم يلم فاقد القدرة في أي عمل, وذكر بخير كثيرا ممن فقدوها مع صدق إراداتهم، يقول ﷻ: ﴿ولاَ عَلَى الذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾،[1] في حين يعنف المنافقين المتخاذلين فيقول: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الّذِينَ يَسْتَاذِنُونكَ وَهُمُ أَغْنِيَاءَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ﴾،[2] فلو صحت منهم الإرادة وصدق العزم كان ذلك كافيا ليكون لهم أجرهم أيضا كما يقول ﷺ: «إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا ، ولا سيرا إلا وهم معكم، قالوا: وهم بالمدينة؟ ! قال: نعم حبسهم العذر»،[3] لكن هل يعذر فاقد الإرادة؟ وهنا لابد من الرّجوع إلى ما يلزم من فقدها، هل هو فقد العقل؟ أم هو فقد المثل الأعلى؟ أما فاقد العقل فمعذور كما تقول القاعدة: «إذا أخذ ما وهب أسقط ما أوجب»، أما إن ملك العقل فلا بدّ من وجود مثل أعلى؛ لأنّ دور العقل هو اختبار المثل الأعلى الصحيح والحق، والله ﷻقال لآدم عليه السلام بعد هبوطه إلى الأرض: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾،[4] ويقول لصنف من الناس يوم القيامة: ﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾،[5] وهي دلائل كلّها على أنّ العقل ليس مطالبا أن يكشف قبل أن يرى وتعرض عليه الأمور،[6] وأن الهدى يتنزّل من السّماء من عند الله، ويبلغه الأنبياء للنّاس، وبه ارتقت البشرية حتّى وصلت درجة الكمال مع الوحي الخاتم، والنبوة الخاتمة بمنظومتها المتكاملة.

وخلاصة القول إنّ العقل يجب عليه البحث الدائم عن المثل الأعلى حتى يجده ويقتنع به، وأصحاب المثل الأعلى الصحيح يجب عليهم عدم التقصير في البلاغ، ولا يجوز لهم كتمان الحق لقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الّذِينَ يَكْتُمُوَن مَا أَنْزَلَنَا مِنْ البَيِّنَاتِ والهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ، أَوَلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ ويَلْعَنُهُمْ اللاعِنُونَ﴾، [7]والبلاغ المبين في الإسلام هو أقوى دعائم الحق على

---

[1] سورة التوبة، الآية: (92).

[2] سورة التوبة، الآية:(93).

[3] جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ص 141.

[4] سورة البقرة، الآية:(38).

[5] سورة الزّمر، الآية:(71).

[6] جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ص 144.

[7] سورة البقرة، الآية:(159).

الأرض إذا يوسع مجال الإقناع والاختيار بين البشر مع إلزام كل إنسان بتحمّل عواقب اختياراته، وهو ما يفسر جعل الله ﷻ له من أقدس واجبات البشر وعلى رأسهم الرسل، فقد خاطب الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ قائلا: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتْ رِسَالَتَهُ﴾،[1] وبعد النبي ﷺ، انتقل الوجوب إلى أمته بعده، لكنها زهدت فيه واختلقت لنفسها أعذارا كثيرة لا تعفيها أبدا من التقصير في أداء وظيفة التبليغ.

وجهاز التبليغ المحمدي كان عالي القدرة فائق الفاعليّة؛ لأنّه أحسن عرض المثل الأعلى، واستعان بالقرآن، فأنتج جيلا كاملا، وأدى عملا ناجحا في أعلى درجات الإتقان.

فلماذا يخيم على الأمّة الإسلامية هذا العجز؟ مع أنّ المثل الأعلى موجود، والعقل أثبت صحته، والقرآن موجود (أي الجهاز والأدوات)؟ ولماذا تعجز أدوات الأمّة ومفكروها، والعاملون في حقل الدعوة عن إخراجها من محنتها؟ والجواب في أحد الافتراضات الأربعة:

مثل أعلى صحيح (حق) وتطبيق حق.

أو مثل أعلى باطل وتطبيق حق.

أو مثل أعلى باطل وتطبيق خاطئ.

أو مثل أعلى باطل وتطبيق خاطئ.

وأرى أن المسلمين يمثلون الحالة الثالثة في كون المثل الأعلى حقاً وصحيحا، لكنّ التطبيق يكتنفه الخطأ والصواب بسبب الجهل أو الغفلة أو القعود عن القيام بمهمة البلاغ المبين.

هكذا يعرض جودت سعيد الإدارة، فكيف يعرض القدرة وهي الركن الثاني العمل، والّذي يجب أن يتلازم والإدارة لحدوثه؟ والقدرة كما يعرفها هي: «القدرة الجسمية العضلية وهو أمر ضروري لكل عمل»؛[2] أي هي الاستطاعة البدنيّة، والّتي ذكرت في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ وللهِ عَلَى النَّاسِ حَجُ البَيْتِ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾؛[3] إذ يربط الله ﷻ فرضية الحج بالاستطاعة؛ أي بالقدرة.

وقد تلتبس على البعض مسالة القدرة الخاصة بالإنسان وهي المقترنة بالإرادة، والّتي يكون بها مخيرا لا مجبرا في جميع أفعاله، والتي هي الميزة المؤهلة له لتحمل شرف الخلافة، فإرادته في

[1] سورة المائدة، الآية: 67.

[2] جودت سعيد، العمل قدرة وإدارة، ص 177.

[3] سورة آل عمران، الآية: 97.

كدحه نحو ربه، واجتهاده في طاعته وتنفيذ أوامره رفعه فوق جميع المخلوقات في الوقت الذي يتحرك كل ما حوله ويفعل دون إرادة مما جعله مسخرا له وطوع أمره متى دعاه وتمكن من قوانينه، لا سيما وهو الذي علمه ربه الأسماء كلّها ﴿وعَلَّمَ آدم الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ انْ كُنتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيْمُ الحَكِيْمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ اقُلْ لَكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ والارْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ومَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.[1]

والقدرة بالنسبة للإنسان مستويات؛ إذ له القدرة على الحركة والفعل كما له القدرة على الفهم و الإدراك في النواحي المختلفة كالمادة والحياة والأخلاق وغيرها، مما مكنه من الوصول إلى هذه المنجزات العظيمة سواء في قوة جسمه وصلابة عضلاته التي تمكنه من القيام بما يريد ويصل بها إلى مستويات عالية في تسخير الكون ، أو في كثرة الأشخاص مما يجعل القدرات تتراكم لتحقق النتائج الباهرة، وكذلك تنوع الخيرات ونعم الله من أراضي شاسعة وخيرات تزخر بها الأرض في باطنها، والتي هي المجال الواسع الذي تبرز فيه قدرات الإنسان فإن كان راشدا كان مرافقا للكون لا عدوا له وإن كان غير ذلك كما نراه، وكما ظنته الملائكة فسيكون مفسدا مستنزفا لهذه الخيرات من أجل قتل أخيه الإنسان، ومن أجل إفساد هذا الكون في لحظات جنونه واندفاعه نحو الاستكبار والسيطرة والتملك، لكن قدراته المادية بادية للعيان، وهي في تزايد يوما بعد يوم، وهذه القدرات لم تكن لولا النوع الثاني من القدرات، والتي لولاها ما تمكن الإنسان من تسخير الكون ولما توصل إلى سننه، إنها القدرات الفهمية التي هي ثمار جهود الإنسان العقلية التي تظهر قيمة القدرات المادية، وهي بمثابة المفتاح الذي لا يفتح الباب المغلق إلا به، وإذا فقد أو انعدم يبقى الباب مغلقا، أو كالسيارة المتوقّفة أمام الإنسان ولا تتحرك إلا لمن يعرف قيادتها، ويتعلّم فنون وطرائق السياقة حينها ستتحرك بأمره وتتوقف بإرادته .

وخلاصة هذا العرض كلّه، أين موقع الأمّة الإسلامية من الإعراب في خضم هذه القدرات؟ وأين مكانتها بين الأمم لا سيما وأنّها وهبت من الخيرات ما لم يوهب غيرها من نعمة النفط إلى المعادن إلى المياه إلى الأراضي الخصبة، إلى أعداد البشر؟ وما تفسير حالة التخلّف الّتي لا تبرحها ولا تنفك عنها؟

[1] سورة البقرة، الآيات: (31 – 32 – 33).

وربما بنظرة عاجلة نستنتج أن الخلل ليس في القدرات المادية، بل في القدرات الفهمية كما لخصها يوسف القرضاوي في كتابه «درس النكبة الثانية» ويصل إلى أن من يتحمل سبب الهزيمة بقسط أوبآخر هم رجال الفكر فيقول: «وهنا تبرز مسؤولية الفكر و رجال الفكر، ودورهم فإعداد الأمة وتعبئتها وتهيئتها للمرحلة الحاسمة».[1]

والدّليل أن أزمة الأمّة هي أزمة فكر بالدرجة الأولى أنّها تقتات على فتات الحضارة الغربية، وتسير في أخر الرّكب كأنّها تعدم القدرات الإبداعية الفكرية، وتعطي خيراتها طائعة بأثمان رمزية، ثمّ تستوردها مواد مصنعة بأضعاف الأضعاف.

وقد تتعطّل القدرات الفهمية لأسباب عديدة أبرزها سيطرة الأفكار الخاطئة على الأذهان، ممّا يحول دون الفهم الصحيح حتّى للأفكار البديهية، وهو ما أقره مالك بن بني في كتابة«الإفريقية الأسيوية»؛ حيث قال: «لأن البداهة لم تكن لتبرئ الإنسان من فكرة مسيطرة عليه»،[2] وهي عقبة أمام انتقال الفرد ضمن حضارة معينة من مستواه المتخلف إلى مستوى أفضل منه، كفكرة جنس المولود عند المسلمين، ورغم ما جاء به الإسلام من تنوير للعقول وإزالة الأفكار الجاهلية، إلاّ أنّ عينات من النّاس مازالت لم تتخلّص منها، مع أن الفرد الأوربي مع ما يعيشه من كفر (وجاهلية عقدية)، إلاّ أنّه لا تأثير لهذه الفكرة عليه بتاتا، إنّه مثال عن الأفكار المنحرفة والخاطئة الّتي جعلت المسلمين في عطالة فكرية عن التصور الصحيح للمسألة، والبحث عن الخلل ثمّ الحلول للمشكلات، وصرفتهم عن الحق الّذي بين أيديهم ليكونوا عن آيات الله غافلين، ومن أسباب تعطل القدرات الفهمية أيضا اعتقاد أن الخلل في الإرادة وليس في القدرة، لكن يتوضح لنا الأمر أكثر إذا فهمنا أن القدرة تتولد من تفاعل العقل مع أيات الأفاق والأنفس، وإذا ما حصل هذا التفاعل أنتج القدرات الفهمية التي تمكن الإنسان من القدرات المادية أو التسخير، يقول ﷻ: ﴿وسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ والارْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛[3] أي لا يصل إلى التسخير إلا الذين يعملون عقولهم في النظر والتدبر ليجيبوا على سؤال: كيف؟ ولم يحدث هذا؟ وحينها سيصلون كما وصل ابن خلدون الذي نظر في الأحداث التاريخية للبشر عمرانها ونموها وتوسعها، وانحدارها، وما أمر الله ﷻ لعباده بالنظر،

[1] جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ص: *114*.

[2] المصدر نفسه، ص *186*.

[3] سورة الجاثية، الآية: (*13*).

والاعتبار بأخبار السابقين إلاّ للوصول إلى أسباب نجاتهم وسعادتهم، أو شقائهم وهلاكهم، وفي ذلك يقول ابن تيمية: «إن الله تعالى لم يقص علينا في القرآن فصه أحد إلا لنعتبر بها، لما في الاعتبار بها من حاجتنا إليه، ومصلحتنا، وإنّما يكون الاعتبار إذا قسنا الثاني بالأول وكانا مشتركين في المقتضي للحكم، فلولا أن في نفوس المكذبين للرسل – فرعون ومن قبله- شبه بنا لم يكن بنا حاجة إلى الاعتبار بمن لا نشبهه قط».[1]

ولا يكفي كشف السنن فقط بل لا بدّ من حصول القدرة على التسخير، وبلوغ النتائج وإلا فلا بدّ من البحث عن أوجه التقصير وامتلاك القدرة على التصحيح، والنتائج الّتي ترجى من ا التسخير هي العواقب بلغة القرآن، وهي دليل صدق فهم السنن، فإذا نظرنا إلى مستوى الآفاق، وجدنا أن الإنسان قد قطع أشواطا هائلة في اكتشاف سننها، كما أمرنا الله بالنظر إلى مستوى الآفاق فلأنّه كذلك أمرنا بالنظر إلى مستوى الأنفس بصورة أشد حرصا وتأكيدا، بالنظر إلى العواقب ، يقول ﷻ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الارْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ﴾.[2]

وقال أيضا: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الارْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِيْنُ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.[3]

حين يكشف المسلم هذه السنن وتكون العواقب دالة على صدقها فسيتمكّن من تحصيل القدرات الفهمية اللازمة له لبناء مجتمع صالح، وسيضع عن كاهله الأغلال والأصار الّتي قيدت مدارك الفهم لديه، لما قدس إنتاج العقل المسلم مع تقديسه للقرآن والسنّة، فالتبس عليه الأمر، وأصبح عاجزا عن الفصل بين الإسلام وفهم المسلمين يقول جودت سعيد: «ويقتضي هذا البحث منا أن نقوم بتمييز أخر، لأنّ عدم إمكان القيام بهذا التمييز الآخر عقدة المسلمين غير قابلة للحل»،[4] ثمّ يواصل محللا: «وهذا التمييز هو عدم الخلط بيم ما أنزل الله، وبين أفكار المسلمين، فإن الخلط بين هذين الأمرين يجعل حل القضية مستعصيا، بل يجعل الإنسان يقبل التناقض، والعقل الّذي يصل به الخلط إلى هذا الحد لا يعود قادرا على حل الأمور حلا صحيحا»،[5] ونصل بعد هذا إلى أن هذا الخلط عائق أخر من عوائق القدرات الفهمية لدى

---

[1] العمل قدرة وإرادة، جودت سعيد، ص 189.

[2] سورة أل عمران، الآية:(137).

[3] سورة يوسف، الآية: (109).

[4] جودت سعيد، مذهب ابن آدم الأول، ط 1414هـ -1993م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ص 199.

[5] المصدر نفسه، ص 199.

المسلمين، وسببا من أسباب فقدهم لمسألة التسخير، أضف إليها فقدهم لإدراك سبب فقدهم لها، وعجزهم عن حل هذا الإشكال وانتقالهم إلى العطالة واللافاعليّة وإلى الغياب عن أحداث العالم عن الشهود المنوط بهم.

ومن الحلول التي يضيفها جودت سعيد أن تقترن القدرة بالبحث فهو وحده الكفيل بإيصال الإنسان إلى كشف السنن والقوانين، والمسلم اليوم يفقد هذه الملكة لأسباب متعددة، قد تكون الجو الفكري السائد الذي لا يوحي إليه بأن العلم قابل للزيادة بالمزيد من البحث والنظر، كذلك حلول الآباء محل الحقيقة، وهذا من شأنه أن يرسخ لديه القناعة بأن الأولين لم يتركوا شيئا إلا بحثوه ووضعوه وكفونا عناءه، وواجبنا الغوص في أعمالهم ، والتغني بأمجادهم مما يوحي للإنسان بالخمول والكسل العقلي، وترك البحث الذي لن يأتي بجدية، ولا حاجة للجديد أصلا وبالتالي فمسلم اليوم يحن إلى رحم الآباء ورحم التاريخ التي خرج منها مع رسول الله ﷺ، وأبدع لما أطلق لعقله المهتدي بنور الحق العنان في النظر والبحث، لكن لما ترك البحث تركه البحث عن غيره لتحقيق سنّة الله ﷻ، ولن تجد لسنته الله تبديلا وتحويلا.

وهكذا يرى جودت سعيد العمل بركنيه، وبضرورة التبصر بدوره في حياة الإنسان وفي تحديد مصيره يوم القيامة، والعمل الصالح يحتاج إلى إرادة صادقة وقدرة مكتملة حتى يؤتي ثماره ويتم به تعمير الأرض بالخير والحق والفضيلة.

4. منهج الرسل:

بعدما تعرضنا إلى العمل وركنيه الإرادة والقدرة وآثار كل منهما على العمل عامة وعلى العمل الإسلامي خاصة، بدأت تتوضّح بعض أطراف مشكّلة العالم الإسلامي في أنه يؤاخذ في القدرات المنعدمة لديه خاصة الفهمية منها، كما يُؤاخذ على عدم السعي إلى تحصيلها والوصول إلى التسخير والانتفاع بخيراته، واستثمار إرادته للوصول إلى الخير والأبقى، وتحقيق النهضة من جديد، نحاول في هذا العنصر التعرض إلى أعلى نماذج العمل، وهو عمل الأنبياء، ومنهجهم في بناء الإنسان، وبناء المجتمعات وتحقيق السعادة في الدنيا والأخرة، متبعين منهج الفكر، والدعوة إلى بناء الرشد بالرشد، رغم ما تعرضوا له من وأذى من أقوامهم يقول جودت سعيد: «فهكذا

بدأ الأنبياء جميعا يبلغون رسالة الله، ويعلمون النّاس الحق، ويصبرون على أذية الناس حتى يأتي أمر الله، ويهلك الظالمين وينصر عباده المؤمنين ».[1]

ومن الأنبياء من قتل ومنهم من طرد وأكثرهم كذب قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾،[2] وآخرهم محمد ﷺ الّذي كذب، وطرد مع أصحابه و أهله، لكنهم جميعا صبروا وصابروا متيقنين في الفرج ، وفي تبليغ ما كلفوا به، ولم يقتلوا أحدا من معارضيهم وهم في قمة النصر، والرسول ﷺ لما رجع مكة منصورا قال لقومه: ما ترون أني فاعل بكم فأجابوه، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»، وقد كانت دعوات جميع الأنبياء سليمة تهدف إلى نشر الحق، وهداية الناس إلى ربهم، وبناء مجتمع صالح بأفراد صالحين وإزهاق الباطل، ليبقى ما ينفع الناس في الدنيا والآخرة متوكلين على الله، وهو حسبهم وقد قال ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَاتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ الاَّ بِإِذْنِ اللهِ، وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المومِنُونَ، ومَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾،[3] وقد كان سبب نجاحهم المشترك بينهم جميعا هو اتباعهم طريق التبليغ والدّعوة إلى الله بالّتي هي أحسن والسعي الحثيث إلى هداية النّاس بالحكمة والموعظة الحسنة، وحتّى مع أعتى الطغاة كان سلاحهم الفكرة الواضحة والحق المبين ورد الحجج والأباطيل بالفكر الناضج. وقد اختاروا كلهم البلاغ ليثبتوا للنّاس جميعا أنّهم اختاروا أفضل وأسلم الطرق في الدعوة؛ لأنّه الطريق الوحيد الناجح إلى بناء الإنسان والمجتمع المسلم، وعلّموا أتباعهم الصبر وعدم الاستجابة للتحدي والاستفزاز، بل عليهم الانتظار، واحتمال الأذى حتّى يحكم الله ﷻ، ولا يظن أحد أنّهم كانوا جبناء غير قادرين على الرد، إنما كان الرسول ﷺ يعلّمهم ترويض النفس وضبطها، والتعالي على أهل الباطل، وعدم النزول إلى مرتبتهم، وقد روى ابن عباس رضي الله عنه أنّ عبد الرحمن بن عوف وأصحابه له رضي الله عنهم أتوا النبي ﷺ بمكة فقالوا: «يا نبي الله كنا في عزّة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة؟ قال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم»،[4] لعل الّذي لم يفهمه الصحابة في ذلك الوقت هو عزم الرسول ﷺ على إغلاق منافذ اللوم وسد باب الذرائع أمام المشركين ليعطوا بها لأنفسهم مسوّغا لقتل الجماعة

---

[1] جودت سعيد، مذهب ابن أدم الأوّل، ص *186*.

[2] سورة البقرة، الآية: (*87*).

[3] سورة إبراهيم، الأيتان:(*11 – 12*).

[4] السنن الكبرى للنسائي، كتاب الجهاد ، باب وجوب الجهاد، الحديث رقم: *3086*، ج*2*، ص *365*.

المسلمة، بل عرى كلّ ادعاءاتهم وأثبت أنه جاء ليقول للنّاس ربي الله، ويدعوهم إلى ذلك ويتركم أحرارا في اتباعه أو عدمه، وما كان يفعله هو توضيح ما يدعو إليه فقط يقول جودت سعيد: «فهكذا بدأ الأنبياء جميعا يبلغون رسالة الله، ويعلمون النّاس الحق، ويصبرون على أذية النّاس حتّى يأتي أمر الله، ويهلك الظالمين وينصر عباده المؤمنين».[1]

وهو ما جعل مؤمن آل فرعون يقف في وجه فرعون وجنوده مدافعا عن موسى وقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤمِنٌ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَات﴾،[2] أي ما تعدونه عليه ذنبا وتريدون قتله به ليس في أي عرف من الأعراف ذنبا، فهو يدعو إلى ما رآه حقا ويقينا وما يقوم به سوى دعوة سلمية لم يكره النّاس فيه على إتباعه بل يعرض عليهم ما عنده، ويتمنى أن يروا ببصائرهم هذا الحق والخير العظيم,هكذا كان البلاغ المبين منهجا للأنبياء جميعا، وينبغي أن يكون أيضا منهجا للدعاة والعاملين إذا أرادوا النجاح والوصول إلى تحرير العقول، وبناء إنسان سوي في مجتمع مسلم راشد والرسول ﷺ وهو يبني الحياة الإسلامية لم يجعل نفسه قاضيا ينفذ الأحكام، أو يرد الاعتداء ، حتى أتاه الإذن من ربه وحان موعد الانتقال من سلاح الفكر إلى سلاح الجسد، قال له الله ﷻ: ﴿أُذِنَ للّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾،[3] عندها فقط فهم الصحابة أنّه كان في منعهم وفي أمرهم بالصبر والتريث حكمة إلهية بالغة، قام خلالها الرسول ﷺ بعملية إفراغ ما في أنفسهم من أسباب الحروب التقليدية التي كانوا يغزون لأجلها كالثأر والحمية والكسب، فجعلهم يكفون أيديهم عن الاعتداء وعن رد الاعتداء ويلتزموا الطاعة وتنفيذ أوامر الله كالصلاة والزكاة والصبر وما فيها من دروس الرحمة وضبط النفس حتّى خمدت في أنفسهم نعرات الجاهلية، والعزة بالإثم، وأعاد ملأ نفوسهم بأشرف العواطف الإنسانية، وأصبح الشوق إلى الشهادة دافعا لبذل الإنسان أغلى ما يملك من نفس، وما يملك من مال في سبيل إعلاء كلمة الحقّ ووصولها إلى الناس، ونيل رضا الله .

ومن جهة أخرى كان عدم الرد على أذى المشركين موقفا مبدئيا ملزما وثابتا من الثوابت في منهج النبوة ومنهج التغيير والدعوة و الإصلاح داخل المجتمع الجاهلي والذي كان المسلمون ما

---

[1] جودت سعيد، مذهب ابن أدم الأول، ص 186.

[2] سورة غافر، الآيتان: (28 – 29).

[3] سورة الحج، الآية: (28).

يزالون جزءا منه وهو المجتمع المكي، وما يربطهم بالمشركين من وشائج الرحم والانتماء وما تحتم على الرسول ﷺ من منهجيته في إدارة هذه الجولة من الصراع السياسي الهادف إلى التغيير والإصلاح ومقاومة الفساد.

هذا باختصار منهج الأنبياء في بناء الإنسان وبناء المجتمع الصالح وقد توضّحت تصوراته وانضبطت حسب التوجيه الرباني الذي قادهم إلى النجاح في مساعيهم على مستوى الأفراد أو على مستوى الجماعات.

وبهذا فإن الأنبياء جاءوا بالجديد فما هو هذا الجديد؟

1.4. الأنبياء والإبداع:

أجل لقد جاء الأنبياء بالجديد وخرجوا عن المألوف لما دعوا الإنسان إلى التفكير، ومارسوه عمليا، اعتبروه من أعظم الوجبات وأقدسها كما أنهم جعلوه وسيلتهم الدعوة والإقناع، وذرعهم لرد الشبه و المزاعم وافتراءات الكفار، فها هو إبراهيم يحاج قومه ويغلبهم بسلاح الفكر النير الصافي ، يقول ﷻ على لسانه: ﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، اوْ يَنْفَعُونَكُمْ اوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ، قَالَ أَ فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنْتُمْ وآبَاؤُكُمُ الاقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبِّ العَالَمِينَ، الذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، والذِي هُوَ يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ، وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾[1]. وقد ظهر مستوى إبراهيم أرقي من أي مستوى أخر حيث أنه لا يترك لمحاجيه مجالا للرد إلا الهروب إلى أعذار لا تقنع ولا تصلح للرد، وهو ما سماه الله ﷻ «الحجة؛» حيث قال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم﴾؛[2] وقد اعتبر الله ﷻ الفكر النقي الصافي نعمة من أحسن استعمالها في الصواب، ونفع بها انتفع، ونصر بها الحقّ الّذي يدعو إليه ويدافع عنه، فقد أوتى خيرا كثيرا، كما أوتى سلاحا من ملكه لا ينهزم أبدا، ولا ينحدر إلى مستوى استعمال العنف والإكراه، بل من يمكله يشعر بسلامة الأفكار والفهم، ويدرك لب المشكلات وتحصل له الهداية، ويزول عنه الخوف بأنه سيفقد شيئا ما؛ لأنّ الأفكار ملكه وحده، ولن بسلبه إياها أحد، وإبراهيم الخليل عليه السلام لم يشعر بالخوف؛ لأنّه خبر

[1] سورة الشعراء، الآيتان: (70 -81).

[2] سورة الأنعام، الآية: (83).

الواقع الشركي وتعامل مع أهله على أساس النفع والضرر، وكانت مرجعيته هي الحق واليقين والثبات، بينما مرجعية قومه ما وجدوا عليه آباءهم, وشتان بين المرجعتين, يقول ﷻ: ﴿ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الارْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾،[1] ومنه يكون النّفع والضرر ميزانا تقاس به الأفكار وتحتكم إليه, ومن أدركه بلغ اليقين، وزال عنه الشك وبذلك يزول عنه الخوف كما حصل لإبراهيم فقال لقومه: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقّ بِالامْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾،[2] وبديهي أنّ صاحب الحق لا يخاف, وهو منهجه عليه السلام ومنهج كل الأنبياء والذين اعتمدوا كلهم على قوة الفكر, وسلامة الحجة, وذرع الحق لتحقيق الغاية ذاتها وفي البناء والهدى.

2.4. الأنبياء والفكر وكتمان الحق:

إذا كان سلاح الأنبياء هو الفكر، وغايتهم هي إيصال الحق إلى النّاس، ومهمة ورثهم هي التبليغ فما موضع كتمان الحقّ من هذا المنهج؟

إنّ البلاغ والتبليغ هو ما يقوي الدعوات, ويوضح معالم طريق الأنبياء والعلماء والعاملين, ولو اصطدم بالكتمان ضاعت الدعوة وذهبت الجهود سدى, وكانت التضحيات صرخة في واد, والمتأمل في آيات القران يجد أنّ الله ﷻ أوجب على رسوله ﷺ البلاغ المبين فقال: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾،[3] ليكون الأمر عاما لكل من حمل أمانة الدعوة إلى الحق, وإلزاما لاتّباع هذا الحق و هذا الدين, و أنّ التخاذل عنه جريمة تستوجب العقاب واللعن قال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾؛[4] لأنّ الكتمان تشويش على الحق, وخلط للأفكار, وإشاعة للشك والاضطراب والوقوف في وجه البلاغ المبين، وبالتالي في وجه بناء الإنسان والمجتمع المسلم على الحق, والخير والهدى, وما اهلك بني إسرائيل إلاّ كتمانهم للحق,

---

[1] سورة الرعد، الآية: (*17*).

[2] سورة الأنعام، الأية:(*81*).

[3] سورة النّحل، الآية: (*82*).

[4] سورة البقرة، الآية:(*159*).

وتضييع رسالات أنبيائهم بكتمانهم النور الذي علموه و جاءهم به أنبياؤهم لدناءة أنفسهم, وإيثارهم للباطل والظفر بمكاسب أنية من اجلها اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة، وضلوا السبيل وخانوا العهود والمواثيق وأكلوا أموال الناس بالباطل وصدوا عن سبيل الله من أجل هذه المصالح القريبة, والقصة عبرة والخصوص لهم عموم للبشرية جميعا، وقد عرض القرآن قصصهم للاعتبار، وعدم تكرار أسباب هلاكهم, وضرورة البلاغ المبين والدفاع عن الحق الذي سيكرس مبدأ اللاكراه, فإذا ضيّع الحق وحل الكتمان محل البيان والتبليغ, حل الغي مكان الرشد و العنف محل الإكراه, ونصر الأفكار والدعوات بالأذى والتسلّط وإزاحة الأخر من الطريق واعتباره عقبة في طريق الباطل الّذي ينتصر له و يسلكه, وهو ما جعل الله ﷻ يتوعد من يكتمون الحق الّذي جاء به الأنبياء وبيّنوه للناس, يقول جودت سعيد في التعقيب على قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلاَّ الذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾،[1] «أمّا الكتمان وما ورد فيه من التهديد وتفظيع ارتكابه وشديد العقوبة عليه, فلم يرد له نظير حتّى ولا في تارك الصلاة كما رأينا في الآيات الكريمة من سورة البقرة»،[2] لأنّ كتمان الحق صدّ عن سبيل الله, وعرقلة لجهود الأنبياء والمصلحين والعودة بالمجتمع إلى الانحراف, وهو حال الأمّة الإسلاميّة الّتي ضيعت الرشد بالتفريط في البلاغ المبين, والإعراض عن الحق غفلة أو جهلا أو خوفا مما جعل جذوة الهداية تخبأ فيها, والنتائج أمام الأعين, والأحوال غير خافية على أحد, وهي مرتبطة بالسنن, و بما في الأنفس والّذي إذا تغيّر سوف تتبدل الأحوال به، ويتغيّر هذا الواقع المر بإذن الله, حين ترجع للبلاغ المبين مكانته في ضمير الأمّة, وسيكون حينها سببا في نشأة مجتمع صالح, كما سيكون سببا في ديمومته و ضمان سلامته من الانحراف.

3.4. مهمة تزيين الرشد:

ما دامت مكانة البلاغ المبين محورية في حياة المجتمع, وضرورية لنهضته من جديد, فلا بدّ من أن تضطلع بها جهود المصلحين, ويكون ضمن مهامهم تزيين الرشد للناس, حتى يخرجوا من عالم الإكراه وعالم العنف والخوف, إلى الحكمة والرشد والّذي وصف به الله ﷻ، عباده المؤمنين

---

1 سورة البقرة، الآيتان: (159 – 160).

2 جودت سعيد، مذهب ابن آدم الأوّل، ص 134.

فقال: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْايمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون﴾،[1] وغير الراشدين هم الذين يرون الحق ويعرضون عنه، ويذهبون إلى الغي ويتبعوه فرحين، وأولئك قال فيهم الله ﷻ:﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الارْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾،[2] فالحق والرشد أمران تقبلهما النفس كما يقبل الأنف الروائح الزكية، أمّا الغي والباطل فتعافهما النفس، وتشمئز منها كما يعاف الأنف الروائح النتئة, مادامت على الخلقة السوية, لكنّها تتبلد عن الاشمئزاز، وينشا لديها الاستعداد لقبولهما كما يقبل الأنف الروائح النتنة إذا فقد وظيفة الشم.

لهذا فمهمة الأنبياء تزيين الرشد في النفوس, وهي أيضا مهمة العلماء؛ لأنّ الرشد هو هدف الوجود, والّذي تستقيم به أمور البشر جميعا, ويرقى به الإنسان إلى المرتبة اللائقة به، ويخرج من السّفك والفساد إلى الحكمة والصلاح, وقد زيّنه الرسول ﷺ في نفوس أتباعه, حتّى سمي الخلفاء بعده بالراشدين, وهم وحدهم دون سواهم من استحقوا هذا اللقب؛ لأنّهم وحدهم من وصلوا إلى الحكم بالاختيار والمشورة وحب الناس لهم, ولم يغتصبوه بالقوة كمن جاء بعدهم ثم بدأ الرّشد يتضاءل حتى فقده المسلمون، ولم يجدوه إلى اليوم, وما يجب على العاملين الآن هو إعادة حسّ النّفوس ومعالجة بلادتها حتّى تستعد لاستحسان الرّشد من جديد, ويستطيعون تزيينه لها بالبلاغ المبين, وبيان الحق للناس والأخذ بأيديهم إلى الصّراط المستقيم, و يستعيدون بذلك أسماعهم وأبصارهم وأفئدتهم, وتحيا بصائرهم من جديد لترى بنور الله, وتتلمّس الضياء والهدى, وتخرج إلى شريعة الإسلام, والى الرشد و تغادر واقعها المزري وتتمنى ألاّ تعود إليه, وستتبع حتما مذهب ابن ادم الأوّل الّذي فضل أن يكون مقتولا على أن يكون قاتلا حتّى لا يبوء بإثمين بدل إثم واحد, ويعيش ما بقي من حياته نادما متحسرا على موقف طائش فقد فيه الصبر و الحكمة, و غاب عنه الرشد, و خسر به الدنيا والآخرة.

---

[1] سورة الحجرات، الآية:(7).

[2] سورة الاعراف، الآية: (146).

4.4. كيف يتبين الرشد من الغي من جديد؟

ليس لأنّه لم يتبين بعد, أو انه من واجبنا اكتشاف الطريق إلى ذلك، بل انه قد تبين من قبل و بينه الله ﷻ فقال: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِ﴾، [1] وبينه الرسول ﷺ، وربى عليه جيلا من الصحابة لكنه عاود الخفاء, وضاع من الأمّة لما سلكت سبيل الغي و أعرضت عنه, فالتبس بالغي, ولا بدّ لمن يريد الإصلاح إن يعيد الرشد الضائع، ويزيل هذا التلبس الّذي شوش الأفكار وضيّع الجهود, حينئذ فقط ستختصر الجهود والأثمان, وسيختزل الزمن للوصول إلى الغاية بعد تحديد الوسائل إليها, ولتكرار التجربة المحمدية, والّتي لم يكن النجاح فيها خوارقيا, بل كان سننيا محضا, تكاثفت الجهود وخلصت النيات, ودفعت فيه أثمان من التكذيب والصد, والتعذيب والتشريد والقتل والّتي قوبلت بالصبر والدفع بالتي هي أحسن, والمضي رغم كل العقبات, وكان النصر مؤزرا والفتح مبينا, ووسائله ﷺ، واضحة كلّها في القران الكريم لمن يريد إعادة التجربة, وسنّة الله ماضية إلى قيام الساعة لا تتبدل ولا تتغير, والنصر آت إذا أُخذ بالأسباب وتوفرت الإرادة اللازمة, والأدوات الناجحة, لتظهر فاعليّة الجهود، ويعود الرشد للأمّة فتعود به خير أمّة أخرجت للناس, لا يسكتون على باطل، ولا يكتمون حقا أو خيرا, ولا يغفلون عن المعروف والعمل الصالح, ويعيشون الإيمان كواقع حياة, لا كأماني وأحلام و شعارات.

5.4. ما السبل الى بناء الرشد بعد ما تبين؟

دائما أعاود ذكر تشوش الأفكار وغبش الرؤية عندنا, والعامل الّذي يساعد على تكريسه هو اليأس من وجود حلول لأزماتنا, ومن إمكانية النهوض من جديد, وكذلك هو رؤية هذه الجهود المتتالية لا تعطي نتيجة تذكر, والمخرج هو الاعتبار من أحداث التاريخ, واستخراج سنن الذين خلوا من قبل, منذ ادم عليه السلام، الّذي أخطأ، وعرف كيف ينتفع من الخطإ, وإدراك طريق الصواب, ثمّ ابنيه وهما يمثلان أوّل صراع بشري, وكيف أنّه ورغم مرور هذه الأزمنة لم ننس خيرهما, وهو الراشد الصالح, والّذي لم يرد العنف بالعنف, ولم يدافع عن نفسه أمام أخيه لا لأنّه غير قادر, بل لأنّه التزم الأمر كمبدإ, والمبدأ لا يتغير بتغير الأحوال، والظروف, و أثبت أنّه أهل فعلا لان يتقبل الله قربانه, و أنّه لم يسلك الغي, بل دفع حياته ثمنا للرشد و الثبات على المبدإ

---

[1] سورة البقرة، الآية: (256).

نفسه الذي ثبت عليه محمد ﷺ، ولم يقاتل قوما ما يزال فردا منهم ويعيش معهم في رحم واحدة, و دفع الثمن بالطرد والاضطرار إلى البحث عن بلد آخر، وهجر أحب البلاد إلى قلبه, وكلّ ما فعله هو البلاغ المبين, والثورة السلمية ضد الفساد في العقيدة والسلوك.

ليس هذا فقط فالإنسان مازال يدفع ثمن الثبات ضدّ المفسدين، وها هي الحركات الإصلاحية في أوروبا[1] الّتي ثارت على تسلط النظام الروماني الوثني الفاسد والّذي تهاوى بعد كل ما مارسه من تقتيل وتعذيب وتشريد, ولم يقابل بالسلاح، بل قوبل بالصبر وبالثورات السلميّة, وكذلك نظام الشاه الفاسد في إيران، والّذي سقط بحركات مقاومة سلميّة, وغيرها من الأمثلة كثيرة على أنّ الرشد، لا يبنى بالإكراه والعنف, بل بالرشد والصّبر والبلاغ المبين؛ لأنّ العنف لا يولد إلاّ عنفا مساويا له أو اكبر منه, و إذا أصبح منطق الحرب والقوة هو السائد داخل المجتمع الواحد زال منطق الظالم والمظلوم, وسقط الجميع في فتنة الرابح فيها خاسر، وكلّ طرف فيها باغ ظالم وأثمانها باهظة جدا من الأرواح والدماء والخراب والزمن, بينما حلّ المشكلات بالرشد والسّلم يريح جميع الأطراف، ويخرج الكلّ، وقد ربح ولم يخسر شيئا, و لعلّ في الأنظمة الديمقراطية الغربية، وانتهاجها طريق التغيير والإصلاح عبر الأساليب السياسية المدنية, درس كبير, فهي ناجحة بكل المقاييس, وثمار نجاحها التّداول على السلطة, والتسابق على كسب تأييد القواعد الشعبيّة في الانتخابات, والقبول بالنتائج والاستعداد الدّائم، والعمل المتواصل ضمن المجتمع المدني، والحركات الجمعويّة.

فالتّاريخ يعلمنا إذن أنّ الرّشد لا يتحقّق إلاّ بالحكمة والبصيرة، والغي لن يجر إلاّ إلى الخسارة والخراب, وانتهاجه هو تكذيب بآيات الله والغفلة عنها, وعواقبه وخيمة, وأثاره يصعب إزالتها، وهو الّذي يورث الكره والعداوة وتمزيق الصف والوحدة, ويكرّس العنف والظلم والاستبداد, أمّا الرّشد فمهره قليل وبركته كبيرة ونتائجه باهرة للجميع.

هذا باختصار عرض جودت سعيد لمنهج الرسل والأنبياء في إدارة الصراعات السياسية في مسيرة الإصلاح والدّعوة ومحاربة الفساد لأنّ الصّلاح والتغيير النّاجح لا بدّ لدعاته من استخدام الوسائل السلمية والصّبر عليها, والسعي إلى ترسيخ ثقافة الرشد وبنائه بالرشد, ونبذ العنف والغي.

---

[1] عبد الحميد أبو سليمان العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ط2، 2008، دار السلام للطباعة، مصر، ص 46، 47.

5. الانسان والتغيير:

إنّ كلّ ما ذكر سابقا يوصلنا إلى الغاية المرجوة من ذكر الفاعليّة والتسخير والعمل, وهو نتائج العمل والرشد, والوصول إلى تفعيل الجهود وجعلها ناجحة مثمرة, ليعود للإنسان قدره ومكانته اللائقة في ظل هذا الغليان, وهذه التحوّلات والصّراعات الّتي أفقدته إنسانيته, وأنسته خيريته وقطبيته في الوجود, وهو الّذي خُلق ليكون الأفضل في الكون, والمسخّر له والمحقق للخلافة فيه, لكنّه وبما يملك من وسائل قادر على استعادة كلّ هذا, وبين يديه وحي خالد إلى قيام السّاعة، وفيه كلّ ما يحتاج من توجيه وحق, وفطرة مهما طمست إلاّ أنّها جاهزة لأن تستيقظ وتعود إلى خلقتها السويّة متى توفرت لها الأسباب, وعقل قابل لأن يستعمل في الخير والأبقى بدل الشرور والفتن والتهوّر, وتاريخ يقدّم العبر والعواقب والسنن لمن يبحث ويسعى للحصول عليها مجانا, أمّا من يغفل عنها سيضطره إلى أخذها بأضعاف مضاعفة من العقاب الأليم.

إنّه التّغيير الّذي لا يتحقّق للإنسان حتّى يغيّر ما بنفسه, وأحوال مجتمعه, تغييرا إلى الأحسن بعد الأخذ بسنته الّتي قرّرها القرآن الكريم في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾،[1] فهل من أمل أن يتغيّر هذا الواقع المزري, ويستعيد المسلم الوجه المشرف لنفسه ولأمّته؟ وما هو سبيله إلى ذلك؟ وكيف ينجح فيه؟ ثمّ هل يبدأ بتغيير المجتمع؟ أم بتغيير نفسه أوّلا؟ تساؤلات كثيرة تفرض نفسها و تحتاج إلى إجابة مقنعة تتوضّح بها معالم المنظومة التغييريّة الإسلاميّة.

هذا ما سيجيبنا عليه جودت سعيد بطروحاته المختلفة حول التغيير.

1.5. طبّ الجسد وطبّ المجتمع:

إنّ الإنسان قبل أن يتعلم قوانين الجسد, لم يتمكن من تخفيف الآلام والشدائد الّتي كان يتعرض لها الإنسان, لكنه لما بحث وكشف قوانين الجسم الحي, تمكن من السيطرة على الأمراض وعالجها, وابتكر ما يساعد على حفظ التوازن للجسم من أساليب وقائية وحمية, وغذاء وحركة وغيرها, كما أنّه لما غاص أكثر في البحث توصل إلى اكتشاف الأجهزة الّتي ترصد أيّ خلل في

[1] سورة الرعد، الآية: (11).

الجسم, كمقاييس الحرارة والضغط, ومستويات الدّهون والسكر وغيرها, فسيطر على الأوبئة الّتي كانت إلى وقت غير بعيد تفتك بالملايين من الأرواح, ولا يملك الإنسان معها أيّ حل, وقد أصبح الطبيب قادرا على التخفيف عن المريض ومعالجته، بينما كان الإنسان فيما سبق لا يملك إلاّ ذرف الدّمع على المتألّم ومواساته دون التمكّن من إزالة ما به.

وقد تنقل هذه الصورة إلى المجتمع المسلم الّذي مازال يتألّم, والمسلم لا يملك إلاّ دموعه وحسراته, وقد حان الوقت للبحث والنظر في الأنفس وفي المجتمع والتوصل إلى طبّ المجتمع, وتخريج أطباء مؤهلين ليخففوا، أو يزيلوا عنه ما يعانيه من أمراض مستعصية وأوبئة تبقيه ممتقع اللون, شاحب الوجه, هزيل القوى, لا مناعة لديه للدفاع ضدّ الأمراض والعلل الّتي لم يوجد بعد طبيب حاذق لمعالجتها.

ولعلّ الّذي يبيح لنا تشبيه المجتمع المسلم بالجسد المريض هو حديث الرسول ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»،[1] ثمّ يشبهه مرة أخرى بالبنيان المرصوص؛ أي بالمادة, فيقول: «إنّ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثمّ شبك بين أصابعه»،[2] وهي إشارة منه ﷺ إلى دفعنا كي نكشف سنن البنيان, ونعرف الطرائق النّاجحة في الحصول على بنيان متماسك يبقى على مر الزمن, وما ينطبق على المادة ينطبق على المجتمع المؤمن الّذي يكون فيه الفرد لبنة تساهم في تماسكه, ويعرف المسلم كيف يعالج شرخه أو تصدّعه ما دام أتقن ذلك في المادة. وهو سعي منه ﷺ إلى تقريب الفهم، والإدراك من المسلمين, مستعينا بالملموس الواقع تحت الأنظار على توضيح ما هو باق خارج علم الإنسان، ونلمس هذه الحكمة النبوية العظيمة في إشارته ﷺ إلى خطورة أمراض المجتمع، والّتي تتفاقم في غياب الطبيب المعالج لها والّذي يحمي المجتمعات من أمراض تشل حركتها وتعيقها على المضي نحو الحضارة والتقدّم, وكما يشفى الجسد بالدواء، وبمهارة الطبيب المداوي كذلك تسلم المجتمعات من الفساد والغي والظلم, ويعيش الإنسان آمنا مطمئنا متساميا إلى الفضيلة والعمل الصالح.

[1] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم، رقم الحديث: *6011*، ص *1508*.

[2] صحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم، رقم الحديث: *2585*، ج*4*، ص *1999*.

وأنّ من يلاحظ الطب كيف تقدم, وما توصّل إليه من إنجازات في معالجة الأمراض الجسدية, يمكنه أن يحيي الأمل في نفسه بإمكان تقدّم طب المجتمعات والنفوس, ليقوموا بعلاج الأمراض المتغلغلة فيها، و يباشروا بعملية الإصلاح والتغيير, وينفضوا غبار الزمن المتراكم على جسد الأمّة فتستعيد عافيتها وتوازنها وتنهض من جديد بعد هذه الكبوات والله ﷻ لن يخلفها وعده بالتغيير والنصر.

2.5. قاعدة التغيير عامّة:

إنّ الآية الّتي تحمل قانون التغيير ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾،[1] آية عامّة تشمل كلّ البشر وكلّ المجتمعات, وليست خاصّة لعموم كلمة «قوم»، وعدم وجود قرينة تصرف الكلمة إلى التخصيص, ثمّ إنّ ورود الكلمة نكرة دليل آخر على هذا العموم, وهذا للفت الأنظار أنّ مشكلة الفساد مشكلة مجتمع وليست مشكلة فرد, كما أنّها مشكلة البشر جميعا, بما فيهم المجتمع المسلم الّذي لا يخرج عن السنن رغم أنّ المسلم لا يرى هذا العموم يقول جودت سعيد: «ولكنّ المسلم لا ينظر عادة إلى مشكلة المسلمين بهذا المنظار الّذي يجعل المشكلة الإسلاميّة خاضعة لسنن عامة تشمل البشر جميعا».[2] فهو يرى أنّه ينبغي أن تكون مشكلة المسلمين غير خاضعة لما يخضع له سائر البشر في مشكلاتهم, ويتابع «يفعل المسلم هذا حين يفعل بروح من التّسامي والتقديس ذلك أنّه يظن أنّ رفع شأن المسلمين إنّما يكون بعدم خضوعهم للسنن الّتي يخضع لها سائر البشر»، [3] وهو ما منعه من إدراك حقيقة المشكلة وإبعادها، وما تحتاجه من بحث عن الفساد والسعي إلى معالجته وتقويمه, وإلاّ فما حاجة الإنسان إلى آيات الاعتبار, وكيف يتمكّن فعلا منه بهذه النظرة, يقول جودت سعيد في ذلك: «ومثل هذا النّظر إلى الموضوع هو الّذي نفتقده الآن, وعلينا أن نكسبه, لانّ هذه النّظرة القرآنية هي الّتي تجعل المسلم قادرا على الاعتبار الّذي يلح عليه القرآن. فأمامنا تجارب القرون الماضية, تجارب كثيرة تظهر فيها سنن تغيير الأقوام الّتي يخضع لها المسلمون كأيّ قوم من الأقوام»،[4] وهذه النظرة

---

[1] سورة الرعد، الآية: (11).

[2] جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ط1، 1990م -1411هـ، المطبعة العربيّة، الجزائر، ص 32.

[3] المصدر نفسه، ص 32.

[4] المصدر نفسه، ص33.

القرآنية تتعامل مع الإنسان بعيدا عن أيّ اعتبار حتّى يخضع مسلما كان، أو غير مسلم لقانون الخالق على غرار جميع الخلق.

وتجدر الإشارة إلى لفتة قرآنية أخرى، وهي اعتبار القوم أو المجتمع أو الأمّة جسدا واحدا حتّى يسهل على الإنسان تصور سهولة التغيير, و استعمل كلمة الأجل للأمّة؛ حيث يقول ﷻ: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾،[1] وهذا الأجل منصرف إلى الكيان الّذي يكون به المجتمع (القوم) حيا، وإذا فقده يموت، ويحل أجله دون اشتراط أن يموت كلّ فرد فيه, لكنّ الكيان والوجود هو المستهدف بالزوال, كزوال مجتمعات كثيرة, يقول جودت سعيد: «كمجتمع الفراعنة ذهب و لم تبق له باقية, لا بهلاك أفراده انما بذهاب كيانه».[2]

3.5. مجال التغيير:

إنّ المتأمّل في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾،[3] يستنتج أنّ للتغيير مجالان, الأوّل اسند الله فيه التغيير إلى نفسه، والآخر أسند فيه التغيير إلى القوم, أمّا تغيير الله فيدور حول النعم، وما يقابلها مع الإشارة إلى أنّ النعمة المقصودة بالتغيير ليست النعمة الفردية، بل هي الجماعية أمّا تغيير القوم فيتعلق بما في أنفسهم، وما بالأنفس هي الأفكار والمفاهيم، وكلّ ما يخالج النفس, والآية ترتب المجالين؛ حيث جعلت تغيير القوم لما بأنفسهم شرطا ضروريا لتغيير الله لما بهم, والتغيير الأهمّ هو تغيير القوم؛ لأنّه يتعلق ببذل الجهد وفهم السنن وإدراك العواقب وتغيير الله منة، وكرم منه لعباده إن أحسنوا, وعقابا إن أساءوا, وهذه المعاني قد وضحت فيما سبق عند الكلام عن الاستعداد العجيب من الإنسان، أمّا لتزكية نفسه أو تدسيتها, وقدرة الإنسان على أن يكون تقيا صالحا، أو منحرفا فاجرا بفعله حتّى يتحمل تبعته وحده.

والمهم من وراء هذا هو التركيز على تغيير القوم لما بأنفسهم باعتباره الشرط والأساس, ولا بدّ للإنسان أن يبسط سلطانه على هذه النفس وتوجيهها إلى الخير, واستبدال ما بها من شرور وآثام إلى صلاح واستقامة, من جهة أنّ هذا أساس نجاحه في الدنيا والآخرة، ومن جهة أخرى

---

[1] سورة الأعراف، الآية: (*34*).

[2] جودت سعيد: *حتى يغيروا ما بأنفسهم*، ص *49*.

[3] سورة الرعد، الآية: (*11*).

ليصلح بذلك حال الأمّة, و هو ما جاء به الأنبياء, ونزلت من أجله الكتب, و شرّع لذلك الاعتبار من الأمم السابقة لتلمس الأمر واقعيا، وسننيا بالأدلة والبراهين, وما لم يتمكن المسلمون من إدراك هذا الأمر فإنّ أحوالهم لن تتغير, والجهود الفردية تبقى تراوح مكانها، ويبقى القلق والحيرة هو سيد الموقف، ثمّ إنّ التّركيز على العامل الثاني لا يعني إهمال الأوّل, بل المقام يقتضي تنبيه الإنسان إلى ما يجب عليه، وإلاّ فإنّ التلازم بين المجالين واضح، والثاني مترتب على الأوّل, ولا مجال لتخلف واحد عن الأخر.

4.5. علاقة الاعتبار بالتغيير:

إنّ إدراك السنن هو ما يجعل الإنسان محيطا بما حدث للسابقين، ويكون علمه مبنيا على نظر دقيق في الأحداث, فيمشي سويا في طريقه، وهو على يقين أنّه يتبع خريطة ستوصله؛ حيث يريد على عكس من يهيم على وجهه دون دليل, ودون اعتبار بما حدث لمن قبله, وإذا قارنا بينهما وجدنا الأوّل بعدما أدرك سنن السابقين ينطلق في مسعاه، وهو يقدر صعوبة ما هو مقبل عليه، ولن يتفاجأ بما سيعترض طريقه نظرا لاستعداده المسبق له، وقد عرفه, كما أنّه لن يتفاجأ أيضا بالأثمان الّتي لا بدّ أن تدفع, وربّما سيتجنب دفعها مكررة، أمّا من ينطلق مطمئنا؛ حيث كان ينبغي أن يكون قلقا فإنّه سيتعثر عند أوّل وأقلّ عقبة في طريقه؛ لأنّه ببساطة لم يستعد لها نفسيا ولا ماديا، وقد صدق فيه قوله ﷻ: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، [1] والمسلمون اليوم يمشون مكبين على وجوههم ترهقهم ذلّة وصغار, ويستنكفون عن الاعتبار، وقد منعهم من ذلك أمور أهمها:

الغفلة الّتي حالت بينهم، وبين الاعتبار بالآيات والأحاديث الكثيرة، الّتي جعلتهم يمرون عليها, يقرؤونها ويعيدون قراءتها بحس متبلد وفكر جامد, وكان القرآن للتلاوة دون الاعتبار مع أنّ الله ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾، [2] وعندئذ لن تكون هذه التلاوة الّتي لم يحدث معها للنفس فائدة ذات خير أصلا, وسيتحقق بها تحذير الرسول ﷺمن ذهاب العلم في الحديث الذي رواه زياد ابن لبيد ﷺ قال: «ذكر النبي شيئا فقال.. وذاك عند ذهاب العلم, قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرا القرآن و نقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه

---

[1] سورة الملك، الآية: (22).

[2] سورة القمر، الآية: (17).

أبناءهم إلى يوم القيامة؟فقال:.. ثكلتك أمّك يا ابن لبيد, إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة, أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء»[1].

أمّا المانع الأخر من الاعتبار فهو الاستكبار الّذي يجعل المسلمين اليوم عالة مستكبرين يجمعون بين الذل والاستكبار؛ لأنّهم ومع ما هم عليه وفيه من هوان يرون أنفسهم وحدهم أصحاب الحق, ولا أحد يشاركهم فيه, لا سيما وهم أهل القرآن والسّنة الّذي يجعلهم أهل الحق واليقين والصواب, مع أنّهم فرطوا فيه و ضيعوا الرشد و اتبعوا سبيل الغي, وسنن من قبلهم ودخلوا جحر الضب ومازالوا داخله يلدغون في اليوم ألف مرّة لكن دون إدراك لهذا الواقع المخزي، ودون قراءة واعية لآيات القرآن الّتي تدعوا الإنسان إلى ضرورة الاعتبار, إذ إنّ القرآن لم يركز على الفرائض والحدود والمواريث تركيزه على قصص السابقين، وما حدث لهم وبيان مصائرهم وأسبابها، والذين ما كان الله ليظلمهم، بل ما حدث لهم كان بما كسبته أيديهم، وما جنوه على أنفسهم.

ولمن يريد أن ينجح في التغيير, لا بدّ أن يركّز على ترسيخ ضرورة الاعتبار, والرجوع إلى القران الكريم والسّنة النبوية للاهتداء إلى النقائص الاجتماعية عند السابقين و ألحاقها بما نعيشه من آفات ومفاسد, حتّى تتبين الأسباب والسنن وبعدها يبحث جادا عن سبل التغيير مع عدم استعجال النتائج, لأنّ التغيير وإن يكن بطيئا فإنّه إضافة جديدة فترة بعد فترة, ومع تراكم الإضافات عبر الزمن ستظهر النتائج حتما.

ومن نعم الله على هذه الأمّة أن جعل أسس وسبل التغيير في القران والسنة, كما أنّهما مصدران مقدسان في النفوس مما يكسب الوسائل المستنبطة منهما فاعليّة غالية, ونفاذ إلى أعماق المشكلات لاقتلاع الفساد, ومعالجتها.

5.5. الإسلام وتاريخ المسلمين:

إن الإسلام كدين ومنهج رباني ثابت لا يتغير بتغير الزمان والمكان، وهو الّذي يحكم ويسيّر المسلم إلى قيام الساعة، وقد أتاه الله حصانة وثباتا بحيث لا يتأثّر بأعمال المسلمين خطأ وإصابة، بل هو ميزان أعمالهم حسب قربها آو بعدها عنه, وهو الأمر الّذي أرادنا الله ﷻ أن

[1] سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم، رقم الحديث: 2653، ج3، ص 58، 59.

نفهمه ونعيه عندما خاطب أهل أحد بحقيقة ما حدث، وكشف لهم أخطاءهم فقال: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمومنِينَ﴾،[1] فبين لهم سبب فشلهم وهزيمتهم، وهو إقبالهم على الغنائم ومخالفة أوامر الرسول ﷺ الّذي نبه عليهم ألاّ يبرحوا أماكنهم, وهي المخالفة الّتي قلبت النّصر إلى هزيمة في أخر جولة من المعركة يقول سيد قطب: «وهذا ما أراده الله سبحانه أن يعلمه للأمّة المسلمة, وهو يكشف أخطاء الجماعة المسلمة, ويسجل عليها النقص والضعف, ثمّ يرحمها بعد ذلك ويعفو عنها ويعفيها من جرائر النقص والضعف في حسابه وإن يكن أذاقها جرائر هذا النقص والضعف في ساحة الابتلاء»،[2] وفي هذا الكلام إشارة إلى ضرورة الفصل بين المبدأ والمنهج, و بين تطبيقه من طرف الصحابة وهم خير القرون وخير أجيال الأمّة, وقد تربوا على يد من جاء بالمنهج، والّذي نجح في إعدادهم وتوجيههم به لكنّ الحقّ ثابت لا يتغير؛ لأنّه من عند الله, و الرسول له العصمة من ربه, أمّا الصحابة فبشر يجري عليهم حسن التصرف وسيئه حسب تطبيقهم للمنهج, فإن أصابوا كان ذلك لهم واستحقوا المدح والثناء وإن أخطؤوا كان عليهم, واستحقوا النقد والتصويب, أمّا المنهج فثابت لا يتغير ولا يتأثر, وللأسف زال هذا الفصل من أذهان المسلمين بسبب التراكمات, وجمود الفكر, وانتقلت القداسة عندهم من المنهج إلى التطبيق, وأضفت على السلف عصمة لم يعطهم إياها الله ورسوله, وهو ما صعّب من مهمة البحث عن الأخطاء، وكشف النقائص لتصحيحها، والانطلاق بمنظومة متكاملة تضمّ الماضي بسننه وعبره, والحاضر بواقعه, والمستقبل بآماله ونتائج التغيير فيه.

أمّا الشقّ الآخر من الإشكال فهو النّظر إلى الإسلام نظرة خوارقية لا نظرة سننية, وأنّه ينتظر منه أن يعمل بطريقة خارقة وسحرية, خارجة عن سعي البشر ما دام من عند الله, دون النظر إلى طبيعتهم أو طاقاتهم أو واقعهم, وأنّ ما حدث مع الصحابة كانت فيه طاقات البشر لا تكاد تذكر لمحدوديتها. وواقع حياتي غير خاف على احد, ولما تفاعلت مع القران ومع الدين حدث ذلك, ومحاولة إعادة التجربة ضرب من الجنون لاستحالتها؛ لأنّ السبب الأوّل في النجاح هو وجود الرسول ﷺ بينهم, وبالوحي يوجههم مباشرة, لهذا لن تتكرر مرة أخرى, وفي هذا اتهام

---

[1] سورة آل عمران، الآية: (152).

[2] سيّد قطب: في ظلال القران، ج1، ص458.

للمنهج نفسه ووصفه بالقصور والحاجة إلى المعجزة النبوية حتّى يعمل, ويخفى عليهم أنّ الأنبياء تركوا ورثة بعدهم يواصلون عملهم في بناء الإنسان والمجتمع بالوحي نفسه الذي جاءوا به, والهدى ذاته الّذي نجحوا به في قيادة المجتمعات نحو الرشد والصّلاح.

للأسف أنّها معيقات تثبط العزائم، وتشل الإرادات والجهود وتؤخّر الصحوة والنّهوض على المسلمين دهرا آخر, وواجب المصلحين تصحيح هذه المغالطات والفصل بين الإسلام والمسلمين والبحث في أمراض المجتمعات للوصول إلى مكامن الداء وإيجاد العلاج المناسب, والعودة بالأمّة إلى مصاف الأمم، بل وإلى قيادة الأمم إلى الحق وممارسة الشهود عليها.

هكذا يعرض جودت سعيد فاعلية الإنسان المسلم، ويضع يده على معوقاتها وموانعها، ويبين أسباب العطالة في حياة الأمّة الإسلامية لينبه إلى ضرورة العلم والعمل، و ضرورة إخلاص النية وشحذ الهمم، والتنقيب عما في أعماق النّفس البشرية من خير ونفع واستغلاله في توجيه الإنسان, وما فيها من شرور لإزالتها، وعلل لمعالجتها لتعود العافية إلى الأمّة، وتستطيع ممارسة وظائفها الحضارية، وشهودها على العالم بعد غيابها عنه لقرون وفعلا كان تحليلا جريئا، وهما ظاهرا لديه, وتحامل على الجمود والجهل, ونجده ينادي بضرورة قراءة جديدة للقرآن, وعرض ما فيه لمسايرة الظروف والتطورات؛ لأنّ ما نعيشه هو مخاطبة أهل القرن الواحد والعشرين بلغة، وأدوات أهل القرن السابع الميلادي، والعيش في خنادق الدفاع, وردّ الفعل ومحاولة نصرة هذا الدين، وقد غاب عنهم أنّه بدل ذلك, في حاجة إلى عرض وبلاغ مبين للنّاس, حتّى يرتوي بجديد الأفكار وإبداع الإنسان, وتكون وسائلنا في ذلك وسائل العصر، ولغتنا لغته, فيفهم ويصل إلى النّاس ليحصل لهم به النفع المفقود، ويجدوا فيه الأمان والأمن الّذي يحلمون به, حينئذ يعود الإنسان إلى نفسه, ويرتقي إلى علم الله فيه، وسيخرج عن السّفك والفساد, و يخالف حينها ظنّ الملائكة فيه.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

الفصل الثاني:

مستويات الفاعلية وشروطها

المبحث الأوّل: مستويات الفاعليّة.

تمهيد:

إنّ مشكلات الأمّة الإسلامية كثيرة ومتراكمة، وتفرض على ذوي الرّغبة في الإصلاح، الانطلاق بها للخروج ممّا تعانيه، والعودة إلى مكانتها اللائقة، بذلا وسعيا لدراسة أبعاد واقعها المزري، وتحليل عميق لعوامل وأسباب ما آلت إليه، ووضع اليد على مكامن الضعف؛ لمحاولة إيجاد العلاج المناسب، والإسهام في تغيير أوضاعها، والمتأمّل في هذه الحالة يستنتج أنّها أمّة تعدم المبادرات، وأهل الصّلاح والغيرة من أبنائها، الّذين يضطلعون بمهمة النّهوض بها، وإصلاح شأنها وعطالتها المستدامة.

وما يدعم هذا الاستنتاج هو الواقع الّذي يبدو للعيان، ولا أحد يستطيع إثبات غيره، لكنّ النّظرة الموضوعيّة تقتضي إنصاف المصلحين الّذين لم يخلُ منهم مصر أو عصر، ولا أحد يشك في إخلاصهم وتفانيهم في محاولات الإصلاح، والتغيير إلى درجة أنّ منهم من دفع حياته ثمنا لذلك، أمّا الجهد والوقت والبذل، فقد كان ثمنا دفعوه جميعا، وتأخّر النتائج لا بدّ ألاّ يكون باعثا على اليأس، بل يكون دافعا إلى بذل المزيد من الجهد، والتوقّف من حين لآخر للنّقد، ثمّ الانطلاق بعد الاستدراك والتصحيح، ولا بد من تظافر الجهود، وعرض الأعمال على ميزان العقل لنقدها، وتحسّس مواطن الضعف والخطأ لعدم تكرارها، وعدم دفع ثمنها مكرّرا، هنالك فقط تنطلق فاعليّة الإنسان، وتظهر نتائج الجهود، ويتمكّن من إضافة الجديد بخير يحقّقه، أو مفسدة يجنّبها نفسه أو غيره.

ولئن كان إيجاد الشّيء ابتداءً أمرا صعبا، وإعادته تكون أسهل فإن المطلوب من المسلمين اليوم ليس هو إنشاء حضارة جديدة، وابتكار منظومة حضارية شاملة، بل مجرد إحياء وبعث المنظومة الإسلامية المحمديّة، والّتي أهّلت الصّحابة إلى تولّي قيادة البشريّة بالحقّ والرّشد في جوانب الحياة المختلفة، وكانت النتائج كمّا هائلا من الإنتاج الثقافي، العلمي، الأخلاقي والاجتماعي مكّن من نشر الحق والخير والصلاح في كل نقطة وصل إليها الإسلام، وهي منظومة صالحة؛ لأن يقود بها المسلمون النّاس في العالم كلّه إلى الطمأنينة والسّلام المفقود، ويلتقي الجميع على الكلمة السواء، ويخرجون من قانون الغلبة والإكراه إلى رحابة الرّشد والخير.

وسيتناول هذا الفصل في مبحثيه الفاعليّة من جهتين، من جهة المستويات، ثمّ من جهة الشّروط كما يتصورها جودت سعيد، والّذي أرادها بارقة أمل في طريق إعادة الثّقة إلى الذات، وخروج المسلم من الجمود الفكري والجسدي، الّذي يربط أمنيته في أن يتحقق المنهج الإسلامي في واقع الحياة بالفكر والعمل، والسعي الحثيث، واليقين في أنّ التغيير لن يكون إلاّ بجهد الإنسان واستخدام طاقاته، واستثمار أوقاته، والبّحث عن سنن التغيير، وتمثلها حتّى يتحقّق وعد الله بتغيير الأحوال، وما ذلك على الله بعزيز.

ولعلّ تفصيل مستويات الفاعليّة يزيد وضوحها، ويصل حلقاتها حتّى يكتمل تصوّرها، وتتّضح الأفكار المؤدية إلى بيانها.

1. على مستوى الفرد:[1]

إنّ الأفراد يتفاوتون في أعمالهم، وفي جهودهم، وفي فاعليّتهم، بمقدار استفادة كلّ واحد منهم من الوسائل المتاحة له، وحتّى إن كانت الوسيلة نفسها، فستتباين تصرّفات كلّ فرد معها على قدر استعداده وأهدافه، فمنهم من لا يحقّق منها شيئا، ومنهم من لا تستطيع تصوّر الخير، والفائدة الّتي حققها منها، فنسمي الأوّل «كلا» كما سمّاه القرآن الكريم، ونسمّي الآخر «فاعلا»، وقد ضرب لهما القرآن مثلا يبين لنا حقيقة كل صنف فقال ﷻ: ﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَه أَيْنَمَا يُوَجِهُهُ لاَ يَاتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾.[2]

ولا يجب أن ننسى دور الأمثال في تقريب الفهم، والصّورة إلى الذهن، وقد أعطانا الله ﷻ في المثال نموذجين لرجلين أحدهما أبكم، بليد لا يرجى خير من ورائه لدرجة أنّه عالة على مولاه لا يفعل شيئا، ولا ينفع في شيء، والآخر ناطق ذكي، يأمر بالعدل أينما حلّ كان النّفع والفائدة، ويأمر بالقسط وبهما يتحقّق الخير والفائدة للإنسان، وفي ذلك بيان أنّ فاعلية الإنسان ترتفع بمقدار النفع الّذي يحققه، ويحقّق من الخير بمقدار استعماله، واستفادته ممّا وهبه الله من أدوات تنطلق بها قواه في الإنتاج لكلّ ما هو نافع لنفسه، ولأسرته ولمجتمعه ولامته ولدينه، وهذا هو شأن المسلم الّذي تشرّف بحمل أمانة عجزت عن حملها السماوات، والأرض والجبال وخشين

---

[1] جودت سعيد، الإنسان كلا وعدلا، ص 17.

[2] سورة النّحل، آية: (76).

منها، لكنّه تسامى بها، واستحق أن تلين له الموجودات، وتكون طوّع إرادته وهو ما أهّله ليكون خليفة في الأرض.

والفاعليّة هي التي ستدفعه إلى تعمير الأرض بالخير والصلاح، والخروج عن صفة السّفك. والفساد الّتي اتّهمته بها الملائكة، والّتي هي في الحقيقة سبب المشكلات وأساسها، والله ﷻ يطلعنا بهذه التهمة ليبين لنا أنّها طبيعة الإنسان والّتي يخرج منها بالعلم، والّذي سيؤدي به إلى الهداية، والرّشد أمّا الكلالة فتسبب له عطالة في الفكر والنّظر، وعجز في جميع جوانب الحياة، وإهمال للنّعم والأدوات الّتي وهبها لينتفع منها، وتضييع للزمن الذي هو أهم عامل في تحقيق الخير والنهوض بالأمة، وقد بينهما الله ﷻ في المثل المضروب في القرآن وبين أنّهما لا يستويان في أيّ شيء، ثمّ ترك للإنسان حرية الاختيار بين المرتبتين، وعلى هذا الأساس سيتحدّد خط سيره إلى التزكية، والارتقاء إلى درجة عليين، أو التدسية والنّزول إلى أسفل سافلين. والفاعليّة والكلالة تعمان كلّ جوانب الحياة، وتشملان الأعمال صغيرها وكبيرها، والعبرة بالنتائج، والفاعل قد يظهر في ثوب يرقعه أو أرض قاحلة يحيلها إلى جنة، أو مختبره يبحث وينفق العمر في إيجاد دواء لمرض عضال، أو في البّحث عن الطاقة النظيفة، ومحاولة الانتفاع بضوء وأشعة الشمس، أو في الخروج عن أقطار السّموات والأرض، واكتشاف عظمة الله، وإضافة الجديد إلى العلوم، واكتشاف المزيد من آيات الآفاق قال الله ﷻ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.[1] كما تظهر في الكلمة الطيبة، أو في ابتسامة الإنسان في وجه أخيه، أو في النّصيحة، أو في الآية من القرآن الكريم يعمل بها الإنسان، ويعلّمها غيره لتكون واقعا يحيونه، وسلوكا يمارسونه، ولا مجال للحصر؛ لأنّ حياة الإنسان بامتدادها إلى آخرته تتوقف على ذلك، ومصيره معلّق بما يقدّمه من خير ونفع، أو ما يختاره لنفسه في أن يكون كلاّ عالة على غيره وعلى المجتمع، ونسبة جديدة إلى العطالة والعجز.

ويكون حسن استغلال النعم والعمر والإيمان دافعا كبيرا إلى الخيرية والفاعليّة، بينما يكون تضيعها سببا في فقدان الوسائل، بل في إتلافها، وهي الّتي وهبها ليمارس بها خلافته في الأرض، ويحقّق استعلاءه على الموجودات بتسخيرها والوصول إلى منافعها في أمور دنياه الّتي فيها معاشه, وآخرته الّتي إليها مرجعه ومعاده، ويتوقف مصيره فيها على ما كان منه من عمل في الأولى، يقول جودت سعيد: «والإنسان الكَلُّ يطبع صورته على الأرض الّتي يعيش عليها، فتستطيع أن تعرف

[1] سورة الرّحمن، الآية: (33).

من خلال رؤيتك لقطعة الأرض الّتي يمتلكها إنسان ما، فعالية ذلك الإنسان أو عدم فعاليته»؛[1] أي إنّ تدخّل الإنسان في تحويل الأشياء إلى نفع وخير، أو عدمه يظهر في كلّ ما يحيط به، ويواصل: «حيث تكون أرض الإنسان الفعّال عليها نضارة الحياة بخضرتها وتنسيقها وترتيبها كما يمكن أن ترى أرض الإنسان الكل أرضا مواتا لا تنبض بحياة، ولا تشاهد فيها نظاما كما لا يحصل منها ثمرا». [2]

وفاعليّة الإنسان لم تكن لتوجد لولا ما وهبه الله من أدوات ومن وسائل لتحقيقها في حياته، وفي كدحه إلى ربه، بدءًا من خلقه، وما صاحبه من تكريم وإعلاء قدره ومكانته، إلى عقله الّذي جعله الله ﷻ طاقة التمييز وقدرة موصلة إلى الحق، وعمدة هي قوام التكليف والتشريف، إلى الحرية التي يستحيل معها استعباده أو إذلاله إلى إرادته هو، والّتي تُعدُّ أبرز مظاهر تكريمه بتمييز فعله بالقصد دون سائر المخلوقات، وكذلك الاختيار الّذي يغدو به حرا، وهو يمارس صلاحياته كإنسان، إلى الحواس الّتي هي نوافذ العقل وأدواته إلى المعرفة، إلى تأييده بالرّسل الّذين علّموه كيف يكون منسجما بين شعوره ولا شعوره، ويتّجه دوما نحو الأنفع والأبقى، كما علّموه ممارسة التّفكير عمليا وواقعيا، وفهم القدر فهما يخرج الإنسان من الفهم الخاطئ الّذي يكرس عطالة الفكر بتحديد جهد الإنسان، وإنّ كلّ شيء حاصل بإرادة الله، ولا معنى لسعي الإنسان أو عمله، بل سعي الإنسان واجب، وقدرته هي الّتي تصنع التاريخ، وتؤثر في سير الكون كله.

والفاعليّة متى ارتفعت في ضمير الإنسان، ووعيه قادته إلى الصّلاح والتقوى، وجعلته نافعا أينما توجه يرجى منه الخير، وحيثما كان حصل النفع، وهو بذلك كحامل المسك إن لم يهدك منه نالك حظ من الرائحة الزكية، ومتى انخفضت، وتضاءلت كان الإنسان بها كالآلة الضخمة المعطلة، لا تزيد عن كونها تشغل حيزا لا أكثر.

2. على مستوى الأسرة:

إنّ الكلام عن فاعليّة في مستوى الأسرة لا ينفصل عنه في مستوى الفرد، بل هو في حقيقة الأمر امتدادا له، باعتبار الأسرة محضنا أوّلا وأساسيا للطّفل، وتتمثّل في قيام كلّ فرد بواجباته، على أكمل وجه، والسّعي المتفاني إلى الوصول لكلّ ما فيه الخير للأفراد فيها كل حسب

---

[1] جودت سعيد، الإنسان كلاً وعدلا، ص20.

[2] المصدر نفسه، ص 20.

موقعه لتوفير السعادة والديمومة لها، وتنضبط المنظومة العلائقية داخليا وخارجيا، إمّا داخليا فتتوطّد العلاقات بين الزوجين على المودة والرحمة والإخلاص، وبين الأبناء على الأخوة والمحبة والإيثار، وبين الأبناء والآباء على الطاعة والبرّ وحسن الخلق، وبين الآباء والأبناء على الرعاية، والتربية الصالحة، والحب، والحنان، وبذل العمر، والجهد من أجل راحتهم، وتوفير ما يحتاجون إليه، أمّا خارجا فبالمحافظة على علاقات حسن الجوار، وتوطيد علاقات النّسب، والمصاهرة، والتعارف، والتكافل، وتبادل الخير والنفع، وبهذا ترتفع مستويات الفاعلية في الجانب الأسري بما يحقق الخير، والأبقى للكلّ، ويكون الجميع في عطاء دائم، وارتقاء مستمر نحو الفضيلة والرخاء، فهل تستوي هذه العينة مع الأسرة الّتي يفقد أفرادها دافعيّة استمرارها، ولا يأبه كلّ واحد فيهم بمصير هذه الأسرة، فلا الأب يسعى جاهدا في أداء واجباته نحو أسرته، ولا الأمّ تحيا أمومتها بالبذل والسّهر من أجل راحة عائلتها، ونفع فلذات أكبادها، وتنفق من عمرها، وجهدها، وشبابها، وقدرتها ما ترعى به مملكتها الصغيرة، ولا الأبناء يحرصون على الأخوة والمودة بينهم، ويكونون بذلك مشاريع فاشلة في الأخلاق، ودوافع النّجاح، والتطلع إلى المستقبل المشرق وقوفا على أرض صلبة، تزيد الواقف عليها ثباتا، وارتكازا للمضي نحو الخير والنفع، ناهيك عن أثر ذلك على المجتمع، ومقدار الشّرخ الّذي سيصدع بناءه، وسيؤثر على تماسكه، وفي ذلك يقول جودت سعيد: «فعالية الأسرة وأمرها بالعدل، يظهر في سلوك أطفال الأسرة وأسلوب حياتهم في ملابسهم، وأسلوب حديثهم، ولطف معشرهم، وحسن خلطتهم واعتدالهم في مشيتهم».[1]

ولعلّ الفاعليّة في مستوى الأسرة تبلغ مداها، إذا حاول الأبوان السير على طريق لقمان الحكيم، وهو يوصي ابنه، فيقول: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الامُورِ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الارْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾،[2] ويتوجّه إليه بكلمات توحي للطّفل بأن يعيش هذا السلوك ويتمثله في حياته، لا أن يحفظ كلمات الآية ويزيد بها رصيد حفظه، وشتّان بين الآمرين، وفقدان هذه المعاني يحقق الكلالة على مستوى الآسرة، ويعدم رجاء الخير من أفرادها، بل أينما توجهوا لا يأت أحدهم بنفع؛ لأنّ

---

[1] جودت سعيد، الإنسان كلا وعدلا، ص 22.

[2] سورة لقمان، الآيات: (17، 18، 19).

فاقد الشيء لا يعطيه، والسّبب هنا هو التّقصير، ثمّ تحييد هذا التّقصير، وإلقاء اللّوم على المجتمع، وعلى المدرسة، وكأنّها في عطالة دائمة، وقد قال حافظ إبراهيم عن الأمّ:

الأُمُّ مَدْرَسَةٌ إِذَا أَعْدَدْتَهَا ... أَعْدَدْتَ شَعْبًا طَيِّبَ الأَعْرَاقِ

رَبُّوا الْبَنَاتَ عَلَى الْفَضِيلَةِ ... فَإِنَّهَا فِي الشَّرَفِ عِلّة عَلَى الإِخْفَاقِ

وما يقال عن الأمّ يقال عن الأب؛ حيث قال الشاعر:

إِذَا كَانَ رَبُّ الْبَيْتِ لِلدَّفِ ضَارِبًا ... فَلاَ تَلُومَنَّ الأَطْفَالَ عَلَى الرَّقْصِ

والإناء كما قيل بما فيه ينضح، والأطفال بما تلقّوه يتصرفون، وبما تربوا عليه يتعاملون.

ولو عدنا إلى زمن الأمجاد، وزمن الصحابة ﷺ، ودخلنا أسرهم لوجدناها تشعّ بنور القرآن، وهدي ﷺ وقصّة البنت الّتي كانت أمّها تخلط اللّبن بالحليب زمن عمر بن الخطاب ﷺ وسمعها ليلا، وهو يتفقّد رعيته ترجو أمّها ألاّ تفعل ذلك، فقالت الأم: إنّ عمر لا يراني، فقات البنت: إذا كان عمر لا يراك فان ربّ عمر يراك، وكتب لهذه البنت أن تنشأ على هذه الفضيلة، حتى تكبر فيخرج من صلبها ابن لم يعرف الزمان بعد له ندّ، وهو عمر بن عبد العزيز الّذي ضرب أروع مثال في الورع والعفاف والتقى، والنماذج كثيرة جدا للدّلالة على مدى تأثير الوحي في حياة الرّعيل الأوّل، وكيف سرى في حياتهم فحوّلها إلى تطبيق فعليّ لمنظومته الأخلاقية التشريعية في بعدها الفردي والأسري والجماعي، وهذا يبعث الأمل في نفوس المسلمين لإعادة التجربة، والعودة إلى مرجعيتنا القيمية الأخلاقية، وبعثها في الحياة سلوكا وممارسة، حتّى تتربى الأسرة والأفراد فيها من جديد على أحكامها وتوجيهاتها، وتخرج من هذه العطالة الحضارية، والجمود الفكري العملي، والضياع والتيه الّذي منشأه الأساسي هو البعد عنها، وخروج المسلم من الأرضية الصّالحة والمناسبة؛ ليترعرع فيها إلى تربة غير تربته وهواء غير هواءه النّقي، فحدث له هذا الانسلاخ، وهذا المسخ الّذي دفع ثمنه ذلاّ وتخلفا، وغيابا عن ساحة الكون، وساحة خلافته، ومهمته التي خلق وجعله الله تعالى بها مكرما.

3. على مستوى المجتمع:

ونواصل مع حلقات الفاعليّة المرتبط بعضها ببعض، والّتي تظهر في هذا المستوى كما تظهر الكلالة سواء بسواء، والواقع خير محك، والتّاريخ خير مرجع وميزان للأحداث، وما نعيشه من تصنيف المجتمعات إلى نمطين اثنين دليل على ذلك، فالنّمط الأوّل يشمل المجتمعات المتقدمة،

والّتي عرفت كيف تنظم نفسها،[1] تستغل طاقتها، وتصل بالفعل إلى تحقيق مستويات عالية من التقدم كالمجتمع الياباني مثلا، والّذي يبدو حسب الأفراد فيه أن الزمن عندهم غير الزمن عند غيرهم، وأنّ يومهم وشهرهم أطول بكثير منه عند غيرهم، والحقيقة أنّ الّذي جعل الزمن يطول عندهم، هو تقديسهم للعمل وللزمن معا، وتقديرهم للذّات، وغاياتهم في التّطورّ والتّفوّق على من يمتلكون الأسلحة بسلاح آخر لا يدمر ولا يقتل، بل يرتفع بالإنسان إلى الخير والنفع، وسنّة الله ماضية في أنّ الّذي يأخذ بالأسباب ستأتيه النتائج حتما كائنا من كان، وحصل لهم ما أرادوا في فترة وجيزة جدا، وأصبحوا أهل الحل والعقد في التقدم التكنولوجي، والصناعي في العالم كلّه منافسين بذلك أمريكا، الّتي فجّرت فيهم القنبلة الذرية، وقتلت ما يزيد عن نصف مليون من البشر منهم، والنّمط الآخر هو نمط المجتمعات المتخلفة، والمفارقة تكمن في كونها تمتلك كلّ الخيرات والمقدرات، الّتي ستعملها المجتمعات المتقدمة، إلاّ أنّها تعيش كلالة لا توصف، وعجزا جعلها عالة على غيرها، وأينما توجّه لا تأت بخير.

إنّ الفاعليّة إذن ليست فطرية،[2] وليست خاصية أو منحة لأمّة دون أخرى، أو لمجتمع دون سواه، بل هي كسبية تتحقق بعد استيفاء الشروط والسنن، وبذل الجهود اللاّزمة، وهو ما يجعلها غير ثابتة لمجتمع، أو لأمة على الدوام، وقد يتنقل مجتمع إذا توفرت له الشروط من الكلالة، والعجز إلى العطاء، كما حدث في المجتمع الجاهلي قديما، ومع المجتمعات الآسيوية والأوروبية حديثا، ولأجل هذا الغرض كان الرسول ﷺ دائم التنبيه، والتحذير لأمّته من العودة إلى العجز، وحديث القصعة أساس في علم الاجتماع؛ لأنّه يعطي سببين مهمين لسقوط الحضارة وسقوط المجتمع، وذلك حين تصبح الكثرة فارغة، وتنتقل إلى غثائية وزبد سيذهب جفاء، وأيضا حين تموت القلوب، ويسيطر عليها الوهن الّذي بيّنه الرسول ﷺ بأنّه حب الدنيا، ولو مع الذل، وكراهية الموت الّذي يكون في أكثر الأحيان السّبيل إلى حياة عزيزة، وهو ﷺ؛ إذْ يحذر الأمّة إنّما يبيّن أمرين بالغي الأهمية، أوّلهما أنّ انقلاب الأمّة إلى قصعة،[3] تجتمع إليها أكلتها ليس حتما، بل يتحقّق متى استحقت الأمّة هذا المنقلب، وسعت إليه شيئا فشيئا يتركها سنن الرقي، والتّحضّر على الصّعيد الفكري، والاجتماعي الأخلاقي، وهو الصّعيد ذاته الّذي كان يوما أساس تغيير

---

[1] جودت سعيد، الإنسان كلا وعدلا، ص 22.

[2] المصدر نفسه، ص 23.

[3] المصدر نفسه، ص 24.

أحوال العرب –بعد أن أسلموا– لما بأنفسهم فغير الله ما بهم من حروب وتمزّق، وتحوّلوا إلى خير أمّة أخرجت للناس، والآخر هو أنّ بلوغ الأمّة الإسلامية هذا المستوى من الفاعليّة، ومن الخيرية والرقي ليس خاصية أو ميزة تسحقها إلى يوم القيامة دون بذل جهد، وأخذ بأسباب القوة والعزة، ومتى أستقر الأمران في وعي وضمير الأمّة تمكّنت من الحفاظ على ما اكتسبته، وتجنّبت الوقوع في ما يمكن أن يتسبّب في زواله، وتكون بذلك فهمت رسولها ووصلها تحذيره لها، حتّى لا يحصل لها ما هو حاصل اليوم، وما تكرّس لقرون، ولم تستطع الخروج منه.

والخطير في استمرار أحوال الأمّة على هذا المستوى من التردي هو أن المسلمين يفصلون بين ما هم فيه، وبين حقائق دينهم مما جعلهم ينظرون إلى الواقع نظرة حتمية خارجة عن ذواتهم وقُدُراتهم، لا نظرة سننية ترتب النتائج على الأسباب، ثمّ يحاولون إقناع أنفسهم بذلك، أنه لا دخل للإنسان في صيرورة أحوال الأمّة، ولا طائل من وراء المحاولات التي ستفشل، أمام هذه الحتمية، وهم بذلك يسايرون الغرب وهو يقنعهم زورا وبهتانا بضرورة الدّورات الحضاريّة وحتميتها، وغفلة الأمّة هي الّتي ساعدتها على ذلك؛ لأنّ الرّسول ﷺ، وهو يحذر من الفتن، وينبّه إلى هوان الأمّة وذهاب العلم كان في الحقيقة يحذر أمّته من هذه الحتمية، التي لن تتخلّف متى توفرت لها الشروط، بل وكأنّه يقول لا تدعوها تحدث؛ لأنّها لن تحدث إلا بأسباب إن عرفتموها وتحكّمتم فيها نفعتكم في الاعتبار بما حدث لأمم قبلكم، وأمكنكم تفاديها، حتّى لا تدفعوا ثمن الغفلة عنها باهضا، وإلاّ تكرر معكم ما كان قبلكم، وسيتسوي حينئذ الكَلُّ، والآمر بالقسط في حسّ الأمّة، ولن ترى فرقا بينهما؛ لأنّها أعرضت عن الوحي، وكانت في غفلة عما فيه من تحذير، ودعوة للنظر والاعتبار، واستحقت العدميّة، والخروج من الدورات الحضارية المتعاقبة.

ونحن نتكلّم عن فعالية الإنسان، وصلتها بالمستويات جميعا، جدير بنا أن نشير إلى أنّ المسلم قد عاش هذا التأثير، والفعل في أحداث الحضارة، لما كان مؤديا لدوره في ما هو خاص به، فظهر أثره المباشر، وغير المباشر في أحداث العالم، وفي قيامه بالبلاغ المبين، وتعليم الإنسانية جميعا مكارم الأخلاق، وعدالة الدين الحق، وإخراج الإنسان من عبودية الإنسان إلى طاعة الله، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدّنيا إلى سعة الدنيا الآخرة، كما لخّصها ربعي بن عامر رضي الله عنه، وكان شهود المسلم على الناس؛ لأنّه كان يستمد فعاليته من إيمانه، ومن كتابه، وهو يؤدي وظيفة أهلته للتمكن من صياغة نفسه، ومجتمعه بطريقة تنسجم مع المبدأ القرآني، والهدي المحمدي، لكنّه لما فقد كلا من وظيفته، وصلتهه بكتابه، أصبح لا يحمل نفعًا لنفسه

ناهيك عن حمله للمجتمع وللعالم، والواقع يثبت أنّه غائب غيابا تاما عن الأحداث من جهة الصنع، أو من جهة التوجيه، أو من جهة الإحاطة والعلم بها.

والمفروض أن تكون الأمّة الإسلاميّة الّتي جعلها الله ﷻ أمّة وسطا شاهدة على غيرها من الأمم، وتبلغ دينها للعالمين كما أمرت، لقوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.[1] وهو جعل أهّل الأمّة لتكون شاهدة على الأمم، وتبلغ الحقّ لناس فلا تكون فاعلة داخليا فحسب، بل تمتد فعاليتها إلى مستوى العالم، ويكون دينها رحمة للعالمين، وتقوم بواجب التبليغ الّذي من أجله أعطيت المؤهلات اللازمة للقيام به، بعد أن تجد السنن والقوانين، الّتي تمكنها من ذلك عبر آيات الكتاب، وآيات الأفاق والأنفس، والّتي لما عثرت عليها ذات عصر عاشت دورة حضارية كاملة مارست فيها الشهود فعليا قرونا من الزمن، ثمّ لما تراخت وفرطت في زمام القيادة، انفلتت منها السنن، وضيّعت القوانين، وضعف عامل القوة النّفسيّة والإيمانيّة في شعوبها، ودب الوهن في صفوفهم، فانقلب الوضع وأصبحت مشهودا عليها، لتعي الدّرس جيدا في أن استحقاق «الجعل» مشروط باتباع السنن والقوانين المحققة له، وأن يبقى قوة دافعة لها ما بقيت محافظة على العهد الإلهي قال ﷻ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الارْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾،[2] فإن فرّطت ضاعت منها هذه القوة، وانتكست لتصير إلى العجز والكلالة إلى إشعار آخر، حين يستقر في وعيها من جديد أنّ شهودها على الأمم الأخرى واجب ديني وتكليف رباني لاسيما، والعالم وما وصل إليه من رقي مادي مازال في عطالة عن حل مشاكله، الّتي لم تعد خاصّة بمجتمع دون أخر في ظل العولمة، والّتي تسير في صالح هذه الأمّة، وهي تحمل رسالة تميزت عن سابقاتها بالعالميّة، وامتلاكها لمنظومة عقديّة قيميّة أخلاقية متاكملة لحل ما يعانيه العالم من أزمات، وما يتخط فيه الإنسان من آفات وأمراض، لو عرفت سبيلها إلى النهوض من جديد، والإفادة من قرآنها الّذي هو بين يديها، وهي ما تزال ذاهلة عمّا فيه من خير.

---

[1] سورة البقرة، الآية: (143).

[2] سورة النور، الآية: (55).

وأرى أن جودت سعيد وصل إلى توضيح فكرته عن مستويات الفاعليّة، وهو لما فصلها كان يهدف –كما هو واضح– إلى بيان أجزاء رؤية متكاملة لا تطغى فيها زاوية على أخرى، بل تجتمع كلها في عرض فكري نافذ لتعطي نظرة شاملة عنها، وللدّلالة على تكامل هذه المستويات، وانتقال الفاعليّة من مستوى إلى آخر حتى تستغرقها جميعا وتختزلها في إطارها العقدي الإيماني، الأخلاقي، وفي بعدها الوظيفي الخلافي، وفي منهجها الإلهي السنني، لتحقيق ما يعيد للإنسان أفضليته وخيريته، وللدّين قيادته للحياة، وللكون صلاحيته ليكون مسرحا لممارسة الإنسان خلافته فيه بما يخرج للدنيا من حضارة قوامها الحقّ، والعلم النافع، والعمل الصالح.

أمّا عبد المجيد النجار، فقد أشار إلى هذه المستويات بالترقي المطرد للإنسان في بعده الفردي أو الجماعي أو المنهجي، ترقيا حضاريا إسلاميا متميّزا.[1]

ففي ترقيه الفردي يسعى الإنسان في ممارسته للخلافة إلى تنمية قدارته بصفة دائمة، سواء الفهميّة بتنمية عقله، والرقي به نحو إدراك الحق في عالم الشهادة المحسوس، أو عالم العيب الخفي، أو الرّوحية بتنمية الرّوح، والتّسامي بها نحو الفضيلة والخير، وهي بهذا تسمو منجذبة إلى النّفحة الإلهية، أو الحواس بتنميتها على إدراك المحسوسات، وآداء الوظائف الّتي خلقت لأجلها.

وترقية الإنسان لقدراته، إنّما يكون في إطار العبوديّة لله، وتحقيق ما فيه الخير، وما يوصل إلى الحق، ونظرة سريعة في منجزات الحضارة الغربية تطلعنا على مدى التسابق المحموم على ما فيه دمار للإنسانية؛ أي للحياة والكون معا؛ لأنّها حضارة تخلو من البعد الإيماني ذا الهدف الاستخلافي، الّذي قامت عليه الحضارة الإسلامية قديما، والسبب هو فقدان التّوازن بين طرفي الطبيعة الإنسانية اللذين تحددهما ثنائية تكوينه، بين روح تريد السّمو والترقي، وجسد تجذبه المادة وتكبله شهواته، وهذا التوازن كان واضحا في فقه التحضر الإسلامي؛ حيث تحقق بوصل الإنسان بالله من جهة الروح، واتباع نوره للسير في طريق تزكية نفسه، وموصولا بالكون من جهة جسده، يسعى فيه إلى تحقيق متطلباته وحاجاته البيولوجية، وهو بهذا الفعل في الكون يمارس البناء، والتعمير فيه؛ أي يقوم بأداء خلافته فيه.

يقول عبد المجيد النجار: «ومن تلك التحقيقات ما يمكن أن نسميه بالقوام التكويني، وهو العدل بين عنصري التكوين في الإنسان: الروح والمادة».[2]

---

[1] عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، ط *1*، *1999*م ، دار العرب الإسلامي، بيروت، ص*54*.

[2] المرجع نفسه، ص *54*.

وغياب هذا التوازن يجعل الإنسان مائل غير مستو، تارة إلى عنصر الروح، فيصبح روحنيا يحقر هذا البدن، ويعتبره سجنا لابد من إذلاله والتغلب عليه، كما يحدث مع ممارسي بعض الرياضات الروحية الّتي تريد التمرد على البدن، وتطويعه حتّى يعدم الإحساس والألم، وتارة أخرى إلى عنصر الطين فيصير ماديا يغرق بعد ذلك في ملذات الجسد، وينحدر إلى دونيّة المادة، ويقدس شهواته حتّى يرى الروح قيودا تعيقه عن الاستمتاع، والانطلاق في مزيد من الحيوانية، وبين هذا وذاك يضيع أي معنى للتّرقي الفردي القائم أصلا على الموازنة والاعتدال.

أمّا في بعده الجماعي[1] فالإنسان وهو يخاطب بالخلافة فإنّ الخطاب موجّه للنّوع كلّه لا لآدم عليه السلام وحده، ومن الطّبيعي أن يكون مدلول الخطاب جماعيا، لاستحالة القيام بمهام الخلافة، والّتي من غايتها تعمير الأرض، ونشر قيم الحق والعدل والخير فيما لينعم به النّوع الإنساني كلّه فالتّرقي الجماعي –إذن–مستوى ضروري لبلوغ التحضر المنشود، والّذي رغم قيامه على الترقي الفردي إلاّ أنّه لا يكون نتيجة حتمية له تتحقّق بتحققه، وهو ما ينفيه عبد المجيد النجار، وأقصد الحتمية التّلازميّة بين المستويين الفردي والجماعي؛ إذ كلّ منها يحقّق نهضة الأمّة، إذا ما أخذ الفرد بسنن، وقوانين النهوض، والتغيير لتحسين أحواله، ثمّ تأخذ الجماعة بسنن وقوانين صحيحة في إطار ممارستها للخلافة ضمن سعي فردي، وجماعي لتحقيق العبادة المطلوبة من الإنسان بالمدى الّذي يدلّ على احترامه المنهج المقرب إلى الله عزّ وجلّ، والمؤدي إلى التّرقي والتحضّر الإسلامي عبر التعاون والتعارف، الّذي صارت به مجموعة أفراد على انتماءاتها القبلية المختلفة إلى وحدة متلاحمة متعارفة متنافسة في التقوى والعمل الصالح، محققة قوله جلّ جلاله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾.[2]

وانقلب حال العرب من تفرق وتخلف إلى خير حال، وخير أمّة أخرجت للنّاس يحقون الحق، وينكرون المنكر والباطل، ولا يفتر جهدهم في السعي نحو التّرقي فرديا أو جماعيا تحت راية الطاعة والعبادة.

وكما وضّحنا أنّ الترقي الفردي قائم على تنمية الفرد لقدراته، فإن التّرقي الجماعي أيضا قائم على تحقيق التكافل، حتّى تستقر في ذهن الفرد والجماعة معا مسؤولية كل واحد عن الآخر، فتتحقّق عندئذ اللحمة، وتكون الجماعة كالجسد الواحد يتأثّر الجميع، بإصابة عضو فيه كما

---

[1] عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، ص 56

[2] سورة الحجرات، الآية: (13).

صوره الرسول ﷺ قائلا: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»،[1] ثمّ على الشورى الّتي تجعل الجميع يحس بالمسؤولية، ويشارك في اختيار الحق والأصوب من القرارات، لتشد الهمم جميعا للتنفيذ والإنجاز، وإذا ما غفل البعض أو فتر عن الأداء، وخيف من الباطل أن يناوش الحق ليأخذ مكانه جاء الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ليقوم بمهمة حماية، وحراسة مسار الترقي عبر الأداء الفردي، والجماعي على مستوى الفكر والسلوك معا، لنصل إلى أداء صحيح وفق منهج قويم، وتأتي النتائج حسب ما خطّط له مسبقا، أو أفضل بإذن الله.

وإذا لاحظنا الطّرحين، وجدنا كلاّ من الرّجلين له طرحه الخاص وفق منهجية مميزة له حسب تصوره، لكنّهما يلتقيان في خط السير العام نحو ضرورة تفعيل الجهود وشحذ الهمم، وإعداد العدة اللازمة من النظر و التحليل والاستنباط، والغوص في آيات الآفاق والأنفس وقراءة الوحي قراءة واعية جديدة متأنية، وتمزيق حجب الجهل والعطالة عن العقل المسلم ليخرج من أزمته الخانقة، ويستعيد زمام المبادرة، ويعود بالإنسان إلى ممارسة خلافته عبر النظرة الكونية التوحيدية بأبعادها وعلاقاتها الكبرى، الوصول إلى تحقيق مهمة الشهادة على الأمم والسيادة على الكون من خلال تحقيق العبودية الخالصة لله وحده، والسير في طريق الحق والتقوى للوصول إلى سعادة الإنسان في الحياة الممتدة بين الدنيا والآخرة، وتحقيق علم الله فيه، وإبطال تهمة الملائكة، وخروجه من السفك، والإفساد إلى تعمير الأرض بالإيمان، والعمل الصالح، والكدح الدائم إلى الله ﷻ، ومهما كانت اختلافات الطّرح والفهم والتنزيل إلاّ أنّ كلا منهما يسعى إلى ما يستطيع به تحديد مكامن علّة الأمة، ومحاولة توليد فكر إسلامي واقعي فاعل يستجيب لتحديات الواقع، ومتطلبات النهوض، آخذا في اعتباره أنّ الأمّة لا تنقصها القيم ولا الموارد، بل تحتاج إلى إصلاح الخلل، والعطب الّذي طال الفكر، ومناهجه حتّى أصبحت به الأمّة عاجزة على الإفادة من وحيها، ومن تراثها ومن كلّ وسائلها.

أمّا محمد البشير الإبراهيمي[2] وفي مقال تناول فيه عمار جيدل همّته في بعث فاعليّة مفقودة، ويقول إنّها تتجلى في كل ما قال وكتب، وكان يسعى من خلال ذلك إلى تحويل المعارف إلى فعالية، وقد بلغ اهتمامه بها مبلغا كبيرا؛ حيث كانت واضحة في فقه الرجل، وقد نصح كتاب

---

[1] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم، رقم الحديث: *6011*، ص *1508*.

[2] عمار جيدل ، مجلة حراء، مقال تحت عنوان:أسس بعث الفعالية في فقه محمد البشير الإبراهيمي، عدد: *32*، السنة الثامنة.

«البصائر» لسان حال جمعية العلماء المسلمين، أن يهتموا ببيان حقائق الدّين، ومسائله وفضائله، والاهتمام بالسّنة النبويّة، وإحيائها علما وعملا، ونقل هذه الجهود من مجرد مباحث نظرية إلى حقائق يجب تنفيذها على مستوى الحياة العملية، ولم يهمل وجوب التّأمل في التّاريخ، واستنباط عبره ودروسه، وإحياء أمجاده لتكون محركا لمشاعر الأجيال.

ويجعل محمّد البشير الإبراهيمي نجاح هذه الجهود متوقفا على علاج أدواء النفوس وعللها؛ لأنّ الأمراض الاجتماعية الّتي تحجب الحياة عنا تحتاج منا إلى تشريح دقيق، وإيجاد العلاج المناسب لها حتى تتطهّر منها كما يحث أيضا – لاكتمال الجهود- بالاهتمام بالعلم، وضرورة تبيين آفاقه الواسعة، والسّعي الجاد في تنوير العقول الغافلة، وإحياء ميتها به، فيقول: «إن الحياة العملية تنبني على الحياة العلمية قوة وضعفا وإنتاجا وعملا، وإنكم لا تكونون أقوياء في العلم إلا إذا انقطعتم له ووقفتم عليه الوقت كله.. إن العلم لا يعطي القياد إلا لمن مهره السهاد، وصرف إليه أعنة الاجتهاد ».[1]

ويجعل محمد البشير الإبراهيمي التعمّق في أخذ العلوم، وتمحيص المعارف مع ضرورة النّظر، وإعمال الفكر للوصول إلى كنوز العلم، وامتلاك مفاتيح أبوابه المغلقة هو خام الفعالية، ومادتها الأوليّة، وأهم عناصر وجودها يقول: «أهم عناصر التّأسيس للفاعليّة التّعلم، والأمّة الّتي لا تتعلّم يغتالها الجوع العقلي، والأمّة الّتي لا تعمل يغتالها الجوع البدني، لهذا فالأمّة التي تتعلّم هي أمّة المستقبل، وأمّة المستقبل هي أمّة صحيحة العقول، صحيحة العقائد، صحيحة التفكير، وصحيحة الأبدان، صحيحة الأعمال».[2] وبربطه حياة الأمّة بصحّتها العقليّة والبدنيّة، يجعل العقليّة متوقفة على العلم، والبدنيّة متوقّفة على العمل، والعمل متوقّف على العلم، فنراه في هذا كلّه يريد الوصول إلى آليات تحويل المعارف، والعلوم إلى فعل ونفع، وفق برنامج عملي شامل لجميع مناحي الحياة، ولا غرابة في ذلك فالله ﷻ قَرَنَ في معظم الآيات، الإيمان بالعمل الصّالح، ووقف العمل الصّالح على الإيمان القوي، والإيمان ما هو إلا علم ويقين بوجود الله، وجميع أركان الإيمان، وبعد هذا الإيمان يطالب المسلم بتحويل هذه المعارف اليقينية إلى سلوك عملي وفق منهج إيماني تربوي شامل.

---

[1] مجلة حراء: مقال عمار جيدل: أسس بعث الفعالية في فقه محمد البشير الإبراهيمي، عدد 32، السنة الثامنة 2/20، ص: 55.

[2] المرجع نفسه، ص: 56.

دون أن ينسى إحدى وركائز نجاح الجهود، وهي إعطاء اللّغة العربية مكانتها اللازمة، والدّفاع عنها ضدّ الهجمات العلمانية، والاستشراقية والصليبية المقيتة، وإحيائها في النّفوس قبل الألسن، وإعادة الحياة إليها وإلى فنونها وعلومها وآدابها المختلفة، حتّى يعود للأمّة جزء من هويتها ومقوم من مقومات حضارتها، ويقرّر محمد البشير الإبراهيمي أنّه ما غرّد بلبل بغير حنجرته.[1]

ويضع محمد البشير الإبراهيمي على رأس معوقات الفاعلية، خلو المعارف الإسلاميّة من الحياة، ومن المرونة الّتي تجعلها صالحة لتقود الحياة من جديد، والّتي أصبحت –كما يقول– أشباحا بلا أرواح[2]، بسبب التّقليد، والتّبعية وفقد الإبداع والاستقلال الفكري اللازم للحياة، مع الحرص على النّقد، والمراجعة لتصحيح المعارف، والمضي للوصول إلى المزيد ببذل أكثر، وتضحية أكبر. ثم يركّز على أن تشمل الفاعليّة ألزم اللّوازم الأربعة: الدين، والأخلاق، والعلم، والمال؛ لأنّها المجالات الحيويّة الضروريّة لكلّ عمل أو سعي للنهوض بالأمّة، واسترجاع مكانتها في الوجود والقيام بمهمتها بين الأمم، والمشاركة في صنع التاريخ، والتّأثير في الأحداث بدل التأثّر بها، وتوجيهها بدل السّير في مؤخرة الركب، ويرى أنّ سدّ هذه الثغرات كفيل بالوصول إلى المبتغى، وتحقيق نهضة شاملة بتصور واضح للغايات والأهداف والوسائل.

والملاحظ أن محمّد البشير الإبراهيمي يولي الاهتمام بمستوى الأمّة والمجتمع؛ لأنّه على يقين أنّ صلاحها يضمن صلاح الأفراد بالضرورة، وفعاليتها إنّما تبلغ مداها بجهود الأفراد، وربما ما يعضد كلامه الواقع الّذي نعيشه فالشّعب الياباني مثلا، والّذي قام من محنة التّدمير والضّعف، فتحدى من أجرموا بحقّه، وهم يملكون أسلحة الفتك والدمار، وهو لا يملك شيئا منها، وربح التحدي خلال ربع قرن، فأصبح القوة التكنولوجية الأولى في العالم يغزو أسواق أمريكا نفسها بمنتجاته، وينافسها ويتفوق عليها بسلاح من نوع جديد، لا يفتك ولا يقتل، بل يضيف الخير والنّفع، والّذي وصل إليه الشعب لم يكن لولا تحوّل المجتمع الجريح بقوة الفكر والعزيمة إلى عملاق يحسب له ألف حساب، والفاعليّة هنا متحقّقة في مستوى الأفراد والأمّة على حد سواء، فالوعي الفردي مستغرق في الوعي الجماعي، وضمير الأمّة هو الموجّه لكلّ الجهود بهدف التفوّق، وعدم التراخي والقبول بمستوى دون المستويات الّتي سبق تحقيقها، وهو مثال حي عن الكبوة الّتي نقلت هذا المجتمع إلى صنع التّاريخ من حيث بدأت المأساة وكان الإخفاق.

---

1 مجلة حراء، مقال عمار جيدل، ص 55.

2 المرجع نفسه، ص 55.

ثم يركز محمد البشير الإبراهيمي على الوسائل، والّتي لا يمكن الحديث عن أيّ فاعليّة دون ذكرها، ووجوب حسن استغلالها، كالوحي، والعلم، والعمل الصالح، والدين، والنفس والمجتمع، واللغة بعلومها، وفنونها، ويحذّر من تحوّل الأمّة إلى العجز والكلالة بسبب التقليد الّذي سيؤدي إلى جمود الطاقات الفكرية، وتحويل العلوم والمعارف إلى مجرد رسوم وأشباح، وانعدام الاجتهاد، والتجديد في عرض الدّين، والعقيدة، والوحي عرضا جديدا وفق حاجة إنسان اليوم، والعجز عن إقامة الأدلة على الآراء والإقناع بالحجة، والبرهان المقبول، وبلغة العصر، وأدواته لتصل الحجج إلى إقناع النّاس، والقيام بمهمة البلاغ المبين، الّذي يجلي للناس الحق، ويعينهم على فهمه وأتباعه.

ويجعل رأس مداخل الفاعليّة الإحسان، ويقصد به التّمكّن والتّحكّم في المعارف والإحاطة بالموضوع، وحسن بحثه حتّى يتم عرضه بطريقة يحصل بها الإفهام والإقناع، ليأتي بعد ذلك التطبيق، وتحويل هذه المعارف إلى واقع حياة، ومنهج وسلوك وغاية عليا يبذل لأجلها الوقت والمال والعمر والنفس، إنّ لزم ذلك.

ويبين أن الإسلام، لارتكازه على الفاعليّة متمثلة في الجيل الأوّل الّذي رعاه رسول الله ﷺ وفق منهج ووحي الله ﷻ، والّذي دفع بهم بروحانيته المنطلقة، إلى ميادين الحياة المختلفة، لكن بعد أن علّمهم معاني الحياة، وعرّفهم بواجباتهم تجاه هذه المناحي، فأعلم فرسان الجهاد وأبطال الوغى أنّ عليهم بالرفق والإحسان، وأهل الحكم بالعدل والشّورى، وأهل العلم بالإصلاح والتربية، وتعهد الأفكار والنفوس بالنور الرباني، وأهل الأموال والخير إلى بناء المآثر، ومظاهر العزة، فكانت ترجمة لمعاني الفاعليّة في جميع الميادين، الاجتماعية منها، والسياسية والثقافية والاقتصاديّة، لتمثّل برنامجا تطبيقيا متكاملا تحولت فيه العلوم والمفاهيم المختلفة، إلى تطبيقات عمليه أنتجت نهضة منظمة شاملة تحمل بوادر النّجاح فيها، وضمانات الاستمرار، مادام خط السّير مراعيا لفهم الدين من مصادره، وتنزيله على الواقع بما يجعله نظام حياة، وانفعال إيمان وتصديق.

وبهذا التّصوّر يؤكّد محمّد البشير الإبراهيمي ما رأيناه من قبل مع جودت سعيد وعبد المجيد النجار، وغيرهم كثيرون، بأن الفاعليّة هي الآلية المفقودة اليوم في حياة الأمّة الإسلامية، كما أنّها بالموازاة هي السّبب في نهوض كثير من المجتمعات الأوربية والآسيوية، لتتأكّد لكل ذي نظر أنّ أيّ حركة للإصلاح، ولمحاولة النّهوض لا بدّ أن تمرّ عبر قنواتها، وتجعلها الهدف والغاية من الجهود الفكرية النظرية، وتصديقا واقعيا للوعي النّظري وفقها تطبيقيا غايته تسهيل الطريق لتطبيق حقائق الدين في حياة الناس.

ويركز في طرحه على مستوى الأمة بكل مظاهر الحياة فيها، وتوجيهها التّوجيه الصّحيح عبر التربية السّليمة الصّالحة، واعتبار الفضيلة والأخلاق الرأسمال الحقيقي لها، وضمنيا تختزل المستويات الأخرى؛ لأنّ تكاملها ضروري باعتبار الأمّة مجموعة أسر، والأسرة مجموعة أفراد لا بدّ أن ينالوا العناية والرعاية التربوية الصحيحة، والتعبئة اللازمة في إطار الأمّة حتّى يتمّ لها الاستفاقة، وتدخل في وعيها ضرورة العودة إلى ساحة الأحداث، وممارسة شهودها على غيرها من الأمم حين تمتلك عناصر القوة، ووسائل ممارسة وظيفتها الحضارية اللائقة بها كأمّة الحقّ وأمّة التّوحيد.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: شروط الفاعليّة.

تمهيد:

بعدما بينا في المبحث السّابق مستويات الفاعليّة المختلفة، والّتي تجتمع وتتكامل لتحقيق نهضة جديدة للمسلم وتخرجه من العطالة، الّتي تسود حياته في جميع نواحيها، وتعرّضنا لهذه المستويات عند جودت سعيد تمّ عند بعض المفكرين الإسلاميين، وتوضّحت لنا الرؤى المختلفة حول هذه المستويات، والّتي في حقيقتها تصب في تصور واحد شامل لها جميعا، وهمّهم كلّهم كيفيّة إيجاد الوسائل والأدوات، الّتي تحقق الانبعاث الحضاري من جديد، وتوفير الجوّ النّفسي الفّكري والاجتماعي للمسلم حتى يدرك قيمة ما ضاع منه عبر التّاريخ، وما يعانيه كإفرازات لهذا الضّياع في حاضره، ويستعد لتغييره، ويستعيد ذاته، ويتذكّر مكانته في الوجود، ودور أمّته بين الأمم، ونواصل مع جودت سعيد في تصوّره للمنافذ الّتي يمكن أن يجدها المسلم لنفسه، ولأمّته ولدينه في الحياة، وحتّى يرجع إلى مسرح الأحداث، والمشاركة في صنعها وتوجهيها مستخدما طاقاته، وإمكاناته للفعل من جديد، وهو يحاول أيضا توضيح شروط الفاعلّية، وبيانها لكن نستعرض قبل ذلك بعض الحقائق الّتي تساعد على توضيح الفاعليّة وشروطها؛ حيث يبيّن أن الفاعليّة هي وصول الإنسان إلى أحسن النتائج بالإفادة من الوسائل المتاحة له، وهي لا تتأتى إلاّ إذا أحسن قراءة قوله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾؛[1] أي لن يصل الإنسان إلى تحقيق ما يصبو إليه من فاعليّة، وإلاّ باستخدام قواه الواعية متمثلة في العقل الّذي يرى، ويبصر الحقّ عبر الكون وهو الآفاق، والأنفس فيستخرج السنن الّتي تعطيه مفاتيح تسخير الكون، وتسخير الأنفس، ويبدع نشاطات فكرية، وعملية متنوعة تكوّن الأساس للنهضة الحقيقيّة بمحاولة تغيير الحياة إلى الأحسن، وتسخير الموجودات للوصول إلى النّفع والخير، وهو بهذه الإنجازات يجعل عينا على الماضي، وما تحقق للإنسان من إنجازات، وأخرى على المستقبل تقرب إلى وعيه وذهنه إمكانيّة توصّله إلى الأمور، الّتي لم يصل بعد إلى كشف سننها، وتسخيرها قياسا على ما وصل إليه مع الّتي تمكّن منها.

[1] سورة فصلت، الآية: (53).

وكلّ هذا للإنسان وليس لسواه؛ لأنّه كائن ظهر فيه إبداع الخالق بما أودع فيه من استعداد لثنائية الخير والشر، وترك له الحرية في اختيار ما يشاء ليكون مناط التّكليف فيه، وليحتمل عواقب اختياراته وأفعاله، مما يجعله قادرا على الفعل وعلى التسخير، وتوجيه أفعاله وقدراته نحو الخير، ورفع مستويات الفعالية وإنشاء الحضارة، أو خفض مستوياتها، والعيش خارج الحياة، وخارج الفعل، والتّأثير فيها، ومحاولة إقناع النّفس أنّ الأمر خارج عن نطاقها، وعن إرادتها وفعلها، بل هو في يد القدر، وفي يد الخالق يفعل فيه ما يشاء، يرفع مستويات فعاليته أو يخفضها كما يشاء ومن يشاء، وفي هذه الرؤية مجانبة لحقيقة القدر، وحقيقة الإنسان ممّا قد يجره إلى الكلالة والعطالة الدائمة، ولعلّ الغموض والتلبس في هذه الناحية يتعلق بالأمور الّتي لم يكشف الإنسان سننها بعد، وكأنّه في هذه الحالة يقرر أنّ ما كشف سننه لا يدخل ضمن دائرة القدر وهذا هو مركز الخطأ، لأنّ القدر شامل لكل شيء سواء في ذلك ما عرف الإنسان سننه، وتمكّن من توجيهه كالعلم القراءة والكتابة، أو الّذي لم يكشف سننه بعد مثل تعليم الفاعليّة انبعاثها في النفوس، وفي ذلك يقول رسول ﷺ: «كل شيء بقضاء وقدر حتّى العجز والكيس»،[1] إشارة إلى دخول كلّ الأحداث تحت دائرة القضاء والقدر، وقد تعوذ الرسول ﷺ منهما كما تعوّذ من البخل والدين، والإنسان يبدع حين يكتشف السنن، والتّعليم أحسن دليل؛ إذ وصل الإنسان إلى إنشاء مؤسسات المجتمع المختصّة بالمناهج، وكذلك علم الطب الّذي كان قبل اكتشاف قوانينه داخلا في طقوس السّحر تماما كعلم الفلك، لكن لما تمكن الإنسان عبر عصور طويلة من الجدّ، والبحث إلى تطويع الأمراض، وتطويع الأفلاك، كلّ هذا يسهّل علينا تصوّر الفاعليّة لما تصبح مكتشفة سنن إعطائها للأفراد، وكذلك سنن توريثها للأجيال، حتّى لا يبقى هامش للعجز الّذي يعيد إلى الكلالة والموت، وأقصد موت الطاقات والأفكار والإرادات.

لكنّ التوجيه المراد للإنسان ولأفعاله، لا يتم إلا بوجود المثل العليا، الّتي يسعى الإنسان إلى موافقة سلوكه معها، وفي هذا التطبيق تظهر ثقافته، وكذا فاعليّته، والمثل العليا إما أن تكون متنزّلة من وحي، أو من مصدر سلطة بشرية عليا كالحاكم أو السلطان، أمّا في الإسلام فإنّ

[1] صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كلّ شيء بقدر، رقم الحديث: 2655، ج4، ص 2045.

مصدرها هو الله ﷻ القائل: ﴿وَلِلّه الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾،[1] والمثل العليا المنبثقة عن المصدر هي الواجبات، والمحرّمات بالمصطلح الإسلامي؛ لأنّها منبعثة عن الله.[2]

وأمّا مقدار الالتزام والتطبيق، فيطلق عليه الأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر؛ أي الأمر بالواجبات والنهي عن المحرمات والمفاسد، ولا يمكن لأيّ مجتمع أن يعيش بدونها مهما كان مصدرها، ولـابن تيمية في موضوع المثل الأعلى والتّطبيق كلام في فقه الحضارة والنّهضة، يقول: «وكل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلاّ باجتماع، على أمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، وأمور يفعلونها ويطيعون الآمر بتلك المقاصد، والناهي عن تلك المفاسد.... فبنو آدم لابد لهم من طاعة آمر وناه، فمن لم يكن من أهل الكتاب والدين، فإنّهم يطيعون ملوكهم فيما يرون أنّه يعود عليهم بمصالح دنياهم مصيبين تارة، ومخطئين تارة أخرى، وأهل الكتاب متّفقون على الجزاء بعد الموت، ولكنّ جزاء الدّنيا متّفق عليه من أهل الأرض، لا يتنازعون أنّ عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى (الله ينصر الدولة العادلة وان كانت كافرة ولا ينصر الدولة الظالمة وان كانت مؤمنة)»،[3] وكما نراه كلاما عاما ونسبة عامة للبشر جميعا في أسس التحضر وقوانينه، ولا يختص بالمسلمين أو غيرهم، بل يوضّح أسباب النجاح في الدّنيا لمن يأخذ بها من غير أهل الدّين والعقيدة، والنّجاح في الدّنيا والآخرة للمسلمين، وذلك مرتبط بمسألة أخرى، هي تسخير الكون للإنسان، وقد جعله الله ﷻ مسخّرا بشروط لا بدّ من معرفتها لتمامه، والتّسخير أيضا مرتبط بأفعال البّشر من حيث الغاية كالنجاح؛ حيث من كانت غايته الدنيا أو العاجلة، كما ذكر في سورة الإسراء يكون له بقدر ما أراد، ومن كان يريد الآجلة كان سعيه مشكورا، كما في قوله ﷻ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُومِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾،[4] فالعطاء محكوم بالسنن، ومتى اتّبعت كان التوفيق والتّسخير، وتبقى الإرادة، متى

---

[1] سورة النّحل، الآية: 60.

[2] جودت سعيد، الإنسان كلاّ وعدلا، ص 31.

[3] المصدر نفسه، ص 43.

[4] سورة الإسراء، الآيات: (18 – 19 – 20).

تعلّقت بالدّنيا جاءت الثمار على هذا القدر، ومتى تعلقت بالآخرة نال صاحبها خير الدّنيا والآخرة معا.

وبعد هذا العرض السريع لبعض الحقائق المتعلقة بالفاعليّة نذكر شروطها، والتي هي صلب هذا المبحث.

1. شروط الفاعليّة:

وحتّى يُوَجَّهَ الإنسان، وطاقاته الفكرية منها والمادية توجيها صحيحا، وحصول فاعليّته في المستوى المطلوب الّذي يحقق له النهضة المنشودة، والعودة إلى صناعة الأحداث، وقيادة الكون بالتوحيد، لا بدّ له من مجموعة من الشروط لعل أهمّها:

1.1. التاريخ وجهد الإنسان:

والسّؤال الّذي يفرض نفسه هنا، هل للإنسان دور في صنع أحداث التّاريخ؟ أم أنّه موجّه كباقي الموجودات بإرادة خالق الكون؟ وللإنسان في بدايات تفكيره في الموضوع، كان يرى أنّه لا دخل لجهد الإنسان في توجيه الأحداث،[1] وتكوّنت لديه هذه النظرية الأولى للتّاريخ، والّتي لم يكن يرى فيها أثرا لفعل الإنسان في أحداث التّاريخ، وهي لا شك نظريّة قدريّة تخرج للإنسان تماما من المشاركة في التاريخ وأحداثه.

لكنّه شيئا فشيئا، وباستخدام قدراته الفهمية في النظر والتحقيق في أحداث التّاريخ،توصّل إلى إمكانية تدخّل الإنسان وجهده في توجيه الأحداث متى عرف سننها، وأسبابها، والتّاريخ نفسه هو الّذي دلّ الإنسان على هذه النظرية الأخرى للتّاريخ، وهو إدراك دَخَلَ وَعْيَ الإنسان بكثير من البطء والتردد، يقول جودت سعيد: «وكان إدراك البشر لهذا الجانب بطيئا، ولم يتوضح مرة واحدة، ولم ينتشر سريعا بين الناس، كما لا يزال معظم البشر ينظرون إليه بشيء من الغموض وعدم الوضوح».[2]

وإيراد النظريتين المذكورتين للتّاريخ، إنّما تكمن أهميته في بيان أثر الاقتناع بإحداهما على الإنسان، فإن اقتنع إنسان بالنظرية الأولى، وأستقر في وعيه أنّه لا قيمة لجهده، ولا طائل من ورائه

---

[1] جودت سعيد، الإنسان كلا وعدلا، ص.43

[2] المصدر نفسه، ص 45.

فإنه سيترك العمل أصلا، وسيكف عن النشاط، وأرى أن الاقتناع بهذه النظرية لا يشلّ حركة الإنسان فقط، بل يجعل الأهداف أضغاث أحلام، ويسلبها أثرها على الإنسان إن كانت موجودة مع هذا الاقتناع، وهو ما استقر في وعي الأمّة الإسلاميّة، وأضاع منها الرّشد الّذي أخرجها إلى هامش التّاريخ لتكفّ عن المشاركة في الأحداث، وتتوقّف عن توجهيها بالحقّ الّذي بين يديها، والّذي لم تعد تفيد منه بشيء؛ لتتأكد نبوءة الرسول ﷺ في حديث زياد بن لبيد بارتفاع العلم مع بقاء القرآن بين يدي الأمّة لتتبعها سنن من قبلها، ويحدث هذا لأثر القرآن فيها ما حدث مع التوراة والإنجيل بين أيدي اليهود والنصارى، وإلاّ كيف يحدث لأمّة تملك القرآن وفيه تأكيد على بطلان النظرية الأولى، وأن جهد الإنسان هو الّذي يصنع الأحداث، وهو الّذي يوجهها، ويتدخل في حركة سرعتها أو يبطئها، وهو الّذي يمكنه التّأثير فيها، وهو دائما يرجع ما يحدث للأمم إلى ما بأنفسهم، وإلى ما صنعته أيديهم، وخاصّة التّركيز على الأمم الّتي هلكت، وبيان أسباب هلاكها، ويحث على الاعتبار، وما حاجة الإنسان إلى ذكر هذه القصص، وبيان تفاصيل أحداثها ، لو لم تكن سننا على الإنسان الإفادة منها والأخذ بها، إن كانت تقوده إلى الخير وإلى الفلاح في الدنيا والآخرة، أو تجنبها إن كانت تؤدي به إلى الخسران والبوار.

وهنا سؤال آخر ملح، هو أن القرآن هو الّذي يخبرنا عن هؤلاء الضّالين، وحتميّة مصير هؤلاء، فماذا يفعل الإنسان أمام هذه الحتمية؟ وهو تلبس يقع فيه من لا يحسن فهم القرآن، وقراءته قراءة صحيحة نافعة، وإلا فأين موقع الآية التي تقرّر قاعدة هامة في بيان تدخل جهد الإنسان في الأحداث وهي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾،[1] وتغيير القوم لما بأنفسهم من خير أو شرّ هو الشّرط الأساسي في تغير الله لما بالقوم، ثمّ أن ما يقوم من فساد وضلال يتراكم بما تصنعه أيديهم، ويقدّموه من الأسباب باختيارهم، ما يستلزم ترتيب النّتائج الحتمية لهذا التّراكم، فإذا كان الهلاك مصيرا حتميا، ولا يستطيع الإنسان منعه، فلأنّه هو الّذي حقق له شروطه، وهيأ له أسبابه، وكان هو صانع هذا المصير ومسبّب هذا الهلاك، والقرآن؛ إذ يقرّر هذه الحقيقة إنما ليعلم الإنسان أنّه متى كشف سنن الله استطاع بعد الأخذ بها أن يسيطر على الحتم، ويوجه التّاريخ على اعتبار أنّه يرى أسبابه، ويستطيع التأثير فيها.

[1] سورة الرعد، الآية: (11).

وعلى قدر وضوح كلّ نظريّة، على قدر ما تبقى المسألة غامضة لدى المسلمين، ويصوّرها سيد قطب – رحمه الله–في كتابه «هذا الدين»، فيقول: «هناك حقيقة أولية عن طبيعة هذا الدين، وطريقة عمله في حياة البشر، حقيقة أولية بسيطة، مع بساطتها كثيرا ما تُنسى، أو لا تدرك ابتداء، فينشأ عن نسيانها أو عدم إدراكها خطأ جسيم في النظر إلى هذا الدين، حقيقته الذاتية وواقعه التاريخي ، حاضره ومستقبله كذلك».[1]

والحقيقة الّتي يقرّها سيد قطب في كلامه أنّه يعمل في حياة البشر أيّ جهد البشر، هو الّذي يظهر قيمة وأثر هذا الدين، ومعناه أنّه لا يعمل وحده، بل يوجه البشر ويدلّهم على المنهج، ويترك لهم التطبيق، ثم يواصل: «إنّ البعض ينتظر من هذا الدّين ما دام منزلا من عند الله، أن يعمل في حياة البشر بطريقة سحريّة خارقة غامضة الأسباب ودون أيّ اعتبار لطبيعة البشر ولطاقاتهم الفطرية، ولواقعهم المادي في أيّة مرحلة من مراحل نموّهم وفي أيّة بيئة من بيئاتهم»،[2] ويريد أن يوضّح هذه الحقيقة الّتي ذكرها سابقا، وهي أنّه دين جاء ليرفع الإنسان من الذّل والعبوديّة لغير الله، إلى العزة والسّيادة بالحقّ، ويجعله يبذل جهده ليحقق نتائج باهرة، وذلك واضح في الجيل الذّي تربى على يد الرسول ﷺ، والّذي تلقى تعاليم هذا الدّين وفهم المطلوب منه، وغيّر نفسه، فتغيّرت بذلك أحواله بما بذل من جهد وسعي وصبر، حتّى جاء تأييد الله، وتحقّق لهم النصر المبين، ويواصل سيد قطب في بيان خطورة غياب هذه الحقيقة عن الأذهان فيقول:«وحين لا يرون أنّه يعمل بهذه الطريقة، وحين يرون أنّ الطّاقة البشريّة المحدودة، والواقع المادي للحياة الإنسانية يتفاعلان معا فيتأثران به –في فترات–تأثرا واضحا، في حين أنّهما في فترات أخرى يتأثّران تأثيرا مضادا لاتجاهه.. وحين يرون هذا فإنّهم يصابون بخيبة أمل لم يكونوا يتوقعونها، أو يصابون بخلخلة في ثقتهم بجدية المنهج الديني وواقعيته، أو يصابون بالشّك في الدّين إطلاقا، وهذه السلسلة من الأخطاء تنشأ كلّها من خطأ واحد أساسي: هو عدم إدراك هذا الدّين وطريقته، أو نسيان هذه الحقيقة البسيطة الأوّليّة. [3]

إنّها حقا حالة الأمّة الإسلاميّة الّتي تغيب عنها هذه الحقيقة، وتغفل دور الإنسان، وهو محور الوجود في صناعة الأحداث، وتوجيه التّاريخ، وقد كان هذا دأبه منذ القديم، منذ أن قتل

---

[1] جودت سعيد، الإنسان كلا وعدلا، ص 50.

[2] المصدر نفسه، ص 50.

[3] المصدر نفسه، ص 50.

ابن آدم عليه السلام أخاه مختارا وأرّخ للخطيئة والجريمة في حياة البشر، إلى أن اقتنع الإنسان في العصور الحديثة بأنّ جهده يصنع الأحداث، فأحدث له ردّ فعل قوي، أمسك بعده بزمام المبادرة، وكان سبّاقا إلى استغلال طاقاته وإمكاناته، ووصل إلى الإبداع المادي، وإلى هذا الرّقي والازدهار العلمي والتكنولوجي.

وبهذا تتوضّح قيمة كلّ نظرية، ويظهر أثرها على الإنسان، إمّا يؤمن بدوره وبقيمة جهده فيرتفع مستوى آدائه، وتزداد وتيرته نحو الإبداع، أو يقتنع بعدم جدوى عمله، وأنّ الأحداث تسير بحتمية القدر إلى نتائجها، ولا معنى لجهده الّذي لن يغيّرها فتسري فيه العطالة، وينحدر إلى أن يصبح كلاّ أينما يوجه لا يأت بخير فهو عالة على غيره، وتظهر هنا قيمة فهم أحداث التّاريخ بالشّكل الّذي يبيّن تدخّل جهد الإنسان فيه، فسيهم هذا الفّهم في تحقيق شرط من شروط الفاعليّة، وذلك لأنه عرف قيمة جهده، وقدر نفسه، وشعر بكرامته عند الله، ومكانته في الكون الّذي سخّر له ليكون خليفة فيه بالتعمير والبناء، وتنفيذ أوامر الله، ونواهيه فيه بالأمر بالمعروف، والنّهي عن المنكر، والإيمان بالله، والعمل الصالح، ويقول جلال الدين الرومي، وهو يخاطب الإنسان: «إنّ خدمتك مفروضة على جميع الكائنات، هل يجرؤ أحد أن يساوم هذا الإنسان الغالب ويمني نفسه بشرائه يا مَنْ مِنْ عبيده العقل والحكمة والمقدرة لا محل للمساومة فقد تمت الصفقة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ [1] فإن الشيء لا يباع مرتين».[2]

2.1. الشعور بالذات.

لا يحس الإنسان بأهميّة وجوده إلا بالقدر الّذي يدرك فيه أنّه قادر على تقديم خير، أو دفع مكروه عن النّاس، فيكون هذا الإحساس دافعا قويا له على بذل الوسع، وحسن استغلال وسائله في سبيل تحقيق أكبر قدر من هذه الأهمية، ويكون هذا الشّعور بالذّات شرطا آخر لرفع مستوى فاعليّته، كما أنّ غياب هذا الدّافع سيؤدي إلى الخمول، والعطالة مادام فقد المسوّغ لوجوده، ولم يعد بإمكانه تصور أنّه قد يرجى منه نفع أو إسهام في أيّ مجال، والتّاريخ دائما هو محك الأفكار فهذه الفكرة تحققت عبر التّاريخ مع نماذج كثيرة، ولعلّ الجيل المسلم الأوّل فيه خير وعبرة، كما انقلب بلال بن رباح من مجرد عبد مهين إلى مدرسة في الصبر، وإلى رجل صالح

---

[1] سورة التوبة، الآية: (111).

[2] جودت سعيد، الإنسان كلا وعدلا، ص 52.

يسمع الرسول ﷺ خشخشة رجليه في الجنة، هذا على مستوى الفرد، أمّا على مستوى الأسرة فآل ياسر ﷺ، كانوا خير عبرة للتّضحية من أجل أن تعلو راية الإسلام، واستحقوا تبشير الله ﷻ لهم بالجنّة، وهم ما زلوا في الحياة الدنيا، والكلام ذاته ينطبق على المجتمعات والحضارات، وفي المجتمع المسلم الأوّل أيضا دليل هذا الكلام؛ إذ تحوّل بالرّجل البدوي الّذي كانت أهداف حياته الماء والكلأ، وكان هو نفسه سبب تناحر القبائل وحروب طويلة، إلى إنسان عرف أنّه مكرم خلق لغاية أجل من هذه، له رسالة الوجود كلّه، وعلى كاهله عبء التّبليغ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدّفاع عن الحق ولو كلّفه حياته، وهو شعور استقر في ضمير المجتمع كلّه، فورّثه لكل فرد فيه؛ ليتحمّل كافة التزاماته، ويتمثّل الإسلام كحقيقة حياة، ويعيش تفاصيله كواقع، ويصدح بالحقّ الّذي بعثه الله ﷻ به ليبيّنه للناس، وبهذا اليقين انطلقت الشّعلة الحضارية الإسلامية؛ لتضئ الكون عددا من القرون، وكلّ فرد في المجتمع يتحمل أعباءه الرساليّة من موقعه، ويسهم بقدر طاقته، ليسعد بما يقدّمه، ويجتهد في المزيد دوما.

وحين فقد المسلم هذا المسوّغ، وقلّ وعيه بذاته، بل وسيطرت عليه الفلسفات العبثية، والعدمية، خارت كلّ قواه وتغيرت نظرته للوجود وإلى ذاته، وإلى وظيفته، بل قل وعيه بدينه، فانقلب إلى عجز كبير أخرجه من دورة الحضارة، وألزمه القعود عن الفعل والانفعال فيها. ونجد أنّ فقدان هذا الوعي أفرز صنفين من الناس، صنف أوّل فقد الثّقة في نفسه ودينه، وأقنع نفسه ببعد دينه، عن التّأثير في الواقع، وفي الحياة المعاشة، والّتي تغيّرت وتبدّلت إلى درجة عدم قدرة دينه على مسايرة أحداثها، واستحالة تراجع الإنسان إلى مستوى يستطيع الإسلام احتواءه وصنع أحداثه، فمضى في ركب الحضارة الرّائدة، وتبنى أساليبها ومناهجها ليكمل بها ما ينقصه، ويأخذ منها ما يراه ضروريا له يقول جودت سعيد: «والمسلمون إزاء هذا ينقسمون إلى قسمين في هذا الزمان: قسم أصابه اليأس من أن يوجد في الإسلام شيء يمكن أن يكون العالم في حاجة إليه، فهو معرض عن الإسلام ومتطلع إلى غيره ليسترفد منه ما يكمل به نفسه»،[1] وهذا الصّنف يحركه اليأس الّذي هو نتيجة طبيعيّة لفقدان معنى الوجود وهدفه. أمّا الصّنف الآخر فيوهم نفسه أن يملك الحق، ويملك الخيرية، ويعيش على هذا الوهم، فهو لا يدري أنّه يدخل دينه متحف التّاريخ، ويروي بطولات أجداده، وأمجاد أسلافه وكله فخر وتسامي بهذا الدّين العظيم، والّذي هو اليوم عاجز عن تقديم الحلول المطلوبة، وسياسة الدنيا به.

---

[1] جودت سعيد الإنسان كلا وعدلا، ص 52.

وما تغنيه بأمجاده ومحاسنه إلاّ ستارا يخفي ورائه عجزه عن تحويل مبادئ دينه إلى سلوك، ونظام حياة يكفل للإنسان حلّ ما يتخبط الإنسان فيه من مشاكل، وحقيقة الخلل عنده هو الفّصل بين الإسلام وبين الواقع، حتّى رفع تأثيره في الحياة وجعل إسهامه في حلّ المشكلات بعيدا إن لم نقل مستحيلا.

ولنا في الأحداث من حولنا عبرة، والعالم من حول المسلمين، والغرب خاصّة حينما شعروا بأهمية ما عندهم، ها هم قادرون على تقديمه للإنسانية مما تفتقده من علم وإبداع، فارتفعت فاعليّتهم، وبلغ توترها أقصاه، وثبت لهم أنّهم خير أمة أخرجت للنّاس، بما أنتجوه للبشرية من رفاهية، ووسائل هي ثمار تسخيرهم للكون، وللموجودات، لنفهم أنّ للمسوّغ دورا هاما في وعي الإنسان أو المجتمع، و متى وُجِدَ أدَّى إلى رفع مستوى جهد الإنسان؛ لإسهامه في تقديم ما عنده للناس، وظهور أثره في الحياة وفي الأحداث، وهو ما يوجب على المسلمين أن يخرجوا من رحم التاريخ، ويفقهوا دينهم بعقل متجدد، وأدوات تواكب العصر، حتّى يتمكّنوا من تنزيل أحكام الإسلام في حياة الناس، تنزيلا يزيل الفصل بين تعاليم الإسلام وواقع الحياة، فينتج عنه تقديم البديل المفقود، ومسوّغ الوجود الحقّ في حياة الإنسان، والّذي يظهر من أحواله أنّه لم يجده بعد رغم ما وصل إليه من تسخير للطبيعة، وتطوير للحياة، وخروج من أقطار السموات والأرض إلى غزو الفضاء، فقط لابدّ للمسلم أن يسترجع ذاته وثقته بقدراته، وإحساسه بأنّه قادر على تقديم الخير، والنّفع للناس وإبعاد الضّرر عنهم، وهو صميم مهمته في الحياة ودليل خيريته حتّى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حينها سيتحوّل من كل أينما توجّهه لا يأت بخير، إلى آمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم، ويسعى إلى جعل الناس كلهم على ذلك، وتتجدد روحه الخاملة، ويحيا في نفسه الشعور بالذات والشعور بالخيرية، والقدرة على العطاء وهو قمة الفاعليّة.

3.1. التوازن:

إنّ ما يطلبه الإنسان هو الّذي يحدد مقدار نجاحه؛ إذ كلّما كان ما يطلبه محددا، واضحا وكبيرا كلما ارتفعت به فعاليته، ليس فقط فيما يحبه ويرغب فيه، بل أيضا فيما يخافه ويهرب منه، والتوازن بينهما ضروري، وإلاّ جاءت النتائج عكسية، وينقلب هذا الدافع إلى مبطل للفاعليّة، وهذا التّوازن ضروري حتّى في مستوى الإيمان؛ إذ كلّما كان العبد معتدلا بين الخوف، والرّجاء كلّما كان مطمئنا، وهو يجمع بينهما في قلبه فلا يشتد عليه خوفه، حتّى يصل به إلى اليأس

وضبابيّة الرؤية ويفقده كلّ أمل في الخير والنجاة، ما دام الهلاك هو المصير المحتوم، والقرآن الكريم يقدر أثر هذا الخوف الزّائد على القلوب، والّذي يوشك أن يمزقها، وتمزيقها هو خروجها عن جادة الصواب والانحراف إلى القنوط واليأس، يقول ﷻ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾،[1] ولئن كان الخوف مطلوبا، فإنّه الخوف الإيجابي، الّذي يمنع المؤمن من الوّقوع في المحضورات، ويمنعه عن سلوك ما يغضب الله ﷻ منه، وعن كلّ ما يترتب عليه وزر أو سوء، وهذا الخوف المثمر واقٍ للإنسان من كلّ ما يفسد عليه إتباعه للصّراط السّوي، وهو ضروري لقبله حتّى يبقى حارسا له من الزيغ والانحراف، لكن ليس معناه الخوف الموصل صاحبه إلى فقدان؛ أي أمل في رحمة الله، وفي اعتدال النفس، بالطاعات، والاستغفار، والاجتهاد، والمغالبة.

والخوف طرف يقابله الرجاء والتفاؤل، حتّى يتحقّق التّوازن المنشود، كما للخوف آثار سيئة، إذا زاد عن الاعتدال فكذلك للرّجاء آثار سيئة، إذا وصل صاحبه إلى الطمأنينة الّتي لا يخالطها خوف، وهي درجة لا تليق بالمؤمن، فقد قال ﷻ: ﴿فَلاَ يَامَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾،[2] وكان رسول الله ﷺ، وهو المعصوم يسعى دائما إلى ترسيخ الخوف المثمر في نفس الإنسان، وهذا لا يعني إلغاء الرّجاء بدافع الخوف، ولا إلغاء الخوف بدافع الرّجاء؛ لأنّ الرّجاء والتّفاؤل مطلوب لتبلغ الطاقات مداها نحو تحقيق الأهداف بالأمل، والرّجاء في توفيق الله ﷻ لمن يريد، وخلاصة القول إنّه من الضروري الاعتدال والوسطية بين ثنائيتي الخوف والرّجاء، خوف يستنهض الهمم لردّ كلّ خطر، ورفع الجاهزيّة النّفسية والماديّة لدفعه، ورجاء في أن يبلغ العمل الصّالح، والنّافع به صاحبه إلى تحقيق الخير. وربّما ينصرف الكلام عن الخوف، والرجاء إلى مستوى الإيمان والسؤال الّذي يطرح نفسه، ما موقع هذا التوازن من الفاعليّة؟ وأيّ خوف وأيّ رجاء يتعلق بها؟

إنّ التّوازن المقصود شرط من شروط تحقيق الفاعلية ورفعها إلى أعلى مستوياتها سواء في مستوى الفرد أو الأمّة، ونركّز على مستوى الأمّة؛ إذ بنظرة سريعة إلى حال الأمّة نلاحظ أنّها تجمع النقيضين، طرف أوّل زاد بهم الخوف إلى درجة اليأس من وجود أيّ أمل من وراء محاولات الإصلاح والنهضة، وإن هذه الجهود ستذهب سدى، وأن هذا الذل والتّخلف هو قدرها، ولا

---

[1] سورة الزمر، الآية: (53).

[2] سورة الأعراف، الآية: (99).

داعي لمحاولة ردّه أو التصدي له، فوصل الاستلاب بهم مداه، وفقدوا معه أيّ أمل في توجيه الطاقات، ما دام لا طائل كما قلنا من وراء ذلك. وطرف آخر زاد بهم الرجاء والتّفاؤل إلى درجة الطمأنينة إلى أنّ الأمّة الإسلامية بخير مادامت تملك القرآن، وهي خير أمّة أخرجت للناس، والحقيقة أنّ كلاّ منهما بعيد عن الاعتدال المطلوب الّذي يحقق الفاعليّة كشرط لازم لها. وتجدر الملاحظة على أنّ هذا التّوازن المطلوب عام لكلّ الجنس البشري، مهما كانت عقائدهم أو فلسفتهم في الحياة والإسلام؛ إذ يبصّر الإنسان بضرورة الاعتدال في كل شيء فهو في ذلك يراعي الفطرة والطبع الإنساني، الّذي يحتاج إلى ذلك، غير أنّ ما يميّز المسلم عن غيره الخوف والرّجاء نفسه؛ لأنّ خوفه يمتد عبر الحياة الدّنيا وصولا إلى الآخرة، وهو في النهاية خوف من الله ﷻ الّذي يستمد مصدر توجيهاته، ومنهج حياته منه، والرّجاء أيضا يصل قيمته حتّى يتعلق بالله ﷻ، وهنا نجد المؤمن يرجو من الله ما لا يرجوه غيره من الناس، وهو واضح قوله ﷻ: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَالَمُونَ فَإِنَّهُمْ تَالَمُونَ كَمَا تَالَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾،[1] وهو ما لا يملكه غير المؤمن في مجال الرغائب والمخاوف.

ومخرج الأمّة الإسلاميّة من هذا التأرجح بين الخوف، والفاسد، والرجاء الخاطئ، هو الشعور بالخوف الصحيح الباعث على العمل والجد واليقظة، الّتي ترفع درجة الحذر والتأهّب، وكذلك الرّجاء الصحيح، الّذي يبعث في النفس أملا بتحقق النتائج المرجوة بعد الأخذ بالأسباب اللازمة دون الوصول إلى اليأس، ولا إلى الغرور، وقد قال ﷻ وهو يذم الأمران: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾،[2] وقال: ﴿فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾،[3] ثمّ إنّ الأمر بالنسبة للمسلم أداء لواجب البلاغ المبين، وإحقاق الحقّ، الّذي لا يداخله شك في أنّ الغلبة له في النهاية، لكنّه وبدفاعه عن الحقّ وأداء هذا الواجب سيساهم في إحقاقه، وهو على يقين أن الحق منتصر؛ لأنّ الله ﷻ وعد بذلك حين قال: ﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾،[4] وهو وعي يوجه جهده، ويفعل طاقاته وإمكاناته مادام المطلوب منه هو السعي لتحقيق سنن الله

---

[1] سورة الأعراف، الآية: (99).

[2] سورة يوسف، الآية: (87).

[3] سورة الأعراف، الآية: (99).

[4] سورة الصف، الآية: (08).

في الحياة، والعمل الدّؤوب على أساس إثبات الذّات، وترك بصمات الحضور والشهود على الأحداث بمستواها الأوّل على العالم الإسلامي، والآخر على مستوى العالم ككل.

4.1. الشّعور بالمسؤوليّة:

إنّه شرط آخر من شروط الفاعليّة، وهو قيام الإنسان بواجباته، وأداء ما عليه من أعمال على هذا الأساس؛ لأنّ العمل على أساس الواجبات غير العمل على أساس الحقوق، وقد علمنا رسول الله ﷺ أن نبدأ بالواجبات، ثمّ نطالب بالحقوق؛ حيث قال: «ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها. قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الّذي عليكم وتسألون الله الذي لكم»،[1] لأنّ الّذي يقوم بما عليه من واجبات يسهم في بناء الحياة الإسلامية، والمتخلّف عنها، إنّما يزيد الأمّة قدرا آخر من الهوان، الّذي تعيشه بسبب إهمال المسلمين لواجباتهم، وقد بيّن مالك بن بني ذلك بقوله: «إنّ صنع التّاريخ يبدأ من مرحلة الواجبات المتواضعة في أبسط معنى الكلمة، والواجبات الخاصّة لكلّ يوم، بكلّ ساعة، بكلّ لحظة لا في معناها المعقّد كما يعتقده أولئك الّذين يعطلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء، وشعارات كاذبة، يعطلون بها التّاريخ بدعوى أنّهم ينتظرون المعجزات والسّاعات الخطيرة»؛[2] أي إنّ الفاعليّة تبدأ بأبسط الأعمال الّتي يؤديها المسلم حرصا منه على القيام بواجبه إلى أعظمها، وتتساوى في قيمتها كلّ الواجبات، من حيث كونها تساهم في زيادة توتر الأداء، والفاعليّة عند الإنسان، إذا ما عوّد نفسه على القيام بها على أحسن وجه، وبذل كلّ الوسع واستغلال الوسائل المتاحة؛ لإنجاز أيّ عمل يستقر في وعيه أنّه من واجباته، كما يسهم أداء الأعمال والواجبات في رفع مستوى الفاعليّة عند الفرد أو المجتمع، فإن التفريط فيها، ولو كانت صغيرة يجر إلى فقدان الوعي، وإهدار الطاقات، وتبديدها، وتراجع النّفع من الإنسان بما يؤدي إلى خفض مستوى فاعليته، وإسهامه الحضاري، ويكون عندئذ التخلف عن أداء الواجبات من معوقات الفاعليّة، هذه هي شروط الفاعليّة كما يتصوّرها ويعرضها جودت سعيد والّتي يراها ضرورية لإيجاد الفاعليّة الغائبة عن الفرد المسلم، والأمّة سواء بسواء، وحتّى يصل بتحصيلها إلى واجبه في الحياة من إنتاج الثقافة والنهضة، وحضارة العالم اليوم أحوج ما تكون لها، وقد جرّبت الفلسفات، والنّهضات

---

[1] صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء، ببيعة الخلفاء الأوّل فالأوّل، رقم الحديث: *1843*، ج*3*، ص *1472*.

[2] مالك بن بني، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط *5*، ص *96*.

والحضارات، الّتي لم تصل بالإنسان إلاّ إلى مزيد من ضياعه من نفسه، وذهوله عن مكانته في الوجود، وغياب عن التّأثير في الحياة، وخاصة الإنسان المسلم، الّذي يملك ما لا يملكه سواه من مؤهلات وأدوات لصنع الحضارة وتحريك التّاريخ نحو الخير والحق والفضيلة، وأداء الواجب أكثر ما يجب أن يحرص عليه المؤمن؛ لأنّ التقاعس فيه يؤدي إلى تعطيل مصالح الأفراد، ممّا يؤثّر سلبا على المجتمع ويتعارض مع الشّريعة الإسلاميّة الّتي جاءت مراعية لما يحقّق المصالح ويدرء المفاسد، وتحقيق المصالح لا يتمّ إلاّ بالحرص على أداء الواجب، صغيرا كان أو كبيرا، أمّا ترك الواجب فنستطيع اعتباره جريمة في حقّ الأفراد كما المجتمع.

وأداء العمل على أساس الواجب يجعل الإنسان مسؤولا، يشعر بأنّ عمله أمانة لا بدّ من أدائها كاملة دون خوف من قانون صارم أو عقاب زاجر له من طرف أيّة سلطة، إنّما هو وازع إيماني داخلي يجعل المسلم يستشعر رقابة الله ﷻ، فينطلق بقناعة هذا الوجوب ممّا يعطي للإنسان دافعيّة عجيبة لأداء العمل، وهو المطلوب لتحقيق مستويات عالية من العطاء والنّفع، فيرتفع بها توتّر الفاعليّة فينعكس على مظاهر الحياة كلّها.

لهذا لا بدّ على المسلمين إن أرادوا الخروج ممّا هم فيه أن يعيدوا ترسيخ هذه القناعة في نفس المسلم، وتربية الناشئة عليها حتّى تصبح جزءًا من شخصياتهم حتّى تتحقّق الفاعليّة في كلّ مظاهر الحياة.

ولا يفوتني أن أعرض رؤى أخرى لشروط الفعاليّة عند المفكرين الإسلاميين، ولتتوضّح المسألة أكثر، وللوصول إلى رؤية أشمل.

2. شروط الفاعليّة عند عبد المجيد النجار:[1]

يرى عبد المجيد النّجار أنّ التحضّر هو نتيجة لتجمع إنسانيّ تحكمه علاقة أفراد المجتمع بالأرض، الّتي يعيشون عليها، وعلاقاتهم فيما بينهم، والّتي تقوم على سنن عامّة تحكم هذا التحضّر في نشأته أو ديمومته أو زواله، ومنه فإنّ أيّ تحضّر لا بدّ له أن يقوم على هذه السنن العامّة، والّتي تحدّد توجهاتهم، أو نوعيّة العلاقات الّتي تربطهم ببعضهم، هذه العوامل ضرورية؛ لأيّ تحضّر، وغياب أحدها يؤدي إلى الانحدار والتوقف عن الفّعل الحضاري، ويقوم التّحضّر

[1] عبد المجيد النجار، فقه التّحضّر الإسلامي، ص 19.

حسبه على عوامل فاعلة تؤدي إذا ما وجدت في مجتمع إلى نشأة حضارية فيه، ثم بعد النّشأة إلى الاستمرار، وهذه العوامل لا تخلو منها أيّ حركة تحضر للإنسان، بل هي لازمة لها، وتقوم على أسس ثلاث في الفكرة والتصور للحياة وللوجود كله، وغاية أو دافع يفعّل تلك الفكرة من الواقع، ومسرح يمارس الإنسان عليه تفعيل ما بفكره من تصور، وهي البيئة التي يعيش فيها، وتستجيب لفعله.

أوّلها عامل الفكرة إذ إنّ أيّ سلوك هادف للفرد أو للجماعة نحو التّحضّر، لا بدّ أن يقوم على فكرة دافعة لمعتنقيها إلى فعل حضاري معين، ويظهر أثر الفكرة في إنشاء الحضارة، من حيث كونها تنطلق تصورا شاملا لحياة الإنسان وللوجود، وتنتج هدفا وغاية لهذا الوجود، ويسعى الفرد أو المجتمع إلى تحقيقها، وعلى قدر سموها يكون سعيدًا، والفكرة غالبا ما تدفع بصاحبها إلى تحقيقها، متجاوزا بذلك مجرد تحقيق بسيط للحاجات الغريزية، بل تكون دافعا إلى أبعد من هذا، إلى تراكم الجهود الّذي يؤدي إلى حركة البناء، والتعمير للكون ماديا ومعنويا، حسب الباحثين في أحداث التاريخ، والحضارات، فإنّ الفكرة الدينية هي أساس الحضارات الكبرى، كما يبين ذلك أرنولد توينبي، والّذي يجعل الحضارة قائمة على أساس التحدي، وردّ الفعل ممّا يحصر دور الفكرة في إنشاء الحضارة بينما هو مطلق،[1] أمّا مالك بن بني فإنّه أكثر دقّة وتأصيلا، وأكثر وضوحا؛ إذ يعمّم صيغة نشأة أيّة حضارة على الفكرة الدينية فيقول: «الحضارة لا تنبعث كما هو ملاحظ إلا بالعقيدة الدينية، وينبغي أن نبحث في حضارة من الحضارات عن أصلها الديني الذي بعثها»،[2] ولا تبلغ أنواع الأفكار الأخرى سواء الفلسفية أو الخيالية أو غيرها مدى تأثير الفكرة الدينية بعمق في النفوس، وما تحدثه من دفع وقوّة نحو عملية التعمير والفعل والبناء.

ولا يفهم من هذا الكلام أن الفكرة متى وجدت تكون كافية لدفع، وإنشاء الحضارة، لا بل لا بدّ من وجودها مع توفر شرطين أساسين؛ لإعطائها خاصيّة الدافعيّة، أما الشرط الأوّل فهي ذاتها؛ حيث يجب أن تتصف بالقوة والأصالة والانتساب إلى الحق، والآخر وجوب امتلاكها

---

[1] عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، ص 27.

[2] المرجع نفسه، ص 28.

العوامل الّتي تحرك بها النفوس نحو الدفع والإنجاز، وهما شرطان أساسيان لا بدّ من توافرهما في الفكرة حتّى تكون عاملا ودافعا إلى التحضّر، قوّة الفكرة ، وقوّة التّأثير.

أما البيئة فنجدها عنده عاملا آخر من عوامل التّحضّر، وهي الوسط الّذي يمارس فيه الإنسان نشاطه لتأمين حاجاته، وإذا كانت ملائمة بمناخها، وتنوعها فإنّها ستساعده على الانتفاع منها أكثر، وحسب علاقاته بغيره سيتطلّع إلى التبادل الاقتصادي، وما يليه من تبادل ثقافي يكون له الأثر البالغ في عملية التّحضّر، والكلام غير معقول ولا صحيح، إذا اعتبرنا أنّ عامل البيئة يكون حاسما في إنشاء الحضارة، والواقع أكبر من يكذب هذا الوهم، فكم من بيئات متميزة بخصوبة وتنوّع كبير، ومناخ ملائم، وتساقط وفير، إلاّ أنّ أهلها لم يبلغوا أيّ تحضر يذكر، وقد حاول بعض المؤرخين، والذين قصروا التحضر على عامل البيئة منفردا، معتبرين وجود بيئة جغرافية ملائمة، في أيدي مجموعة من البشر سيوجد بداية دوره حضارية حتما،[1] وهو ما سعى أرنولد توينبي إلى ردّه بقوة وأستدلّ بالواقع؛ حيث بيّن أنّ بيئات جغرافية كثيرة تتشابه، ورغم ذلك نشأ فوق بعضها حضارات كبيرة، بينما لا يذكر التّاريخ أنّه نشأت فوق الأخرى حضارات أصلا، بل وبقي أهلها على درجة كبيرة من البداوة، والفكرة نفسها أيدها ويل ديورانت حين بيّن بطلان كون البيئة هي العامل الأوحد في نشأة الحضارة في قوله بأن: «العوامل الجغرافية على الرغم من أنّها يستحيل أن تخلق المدنيّة خلقا، إلاّ أنّها تستطيع أن تبتسم في وجهها، وتهيئ سبيل ازدهارها»،[2] وهو ما يعني أن البيئة الطبيعيّة لا تكون عاملا للتحضّر، إلا إذا توفّرت على شرطين، الأوّل متعلّق بها من حيث الخصوبة، واعتدال المناخ، ووفرة الماء، وتنّوع الغطاء النباتي وغيره، والآخر أن تجد من يفعل فيها، ويصل إلى فسخ امتناعها، ويستحثها بالجهد الذهني والبدني معا، وقدرته على الفاعليّة، والسّعي إلى الفعل والإنجاز، فتستجيب، وينتج عن ذلك البعث الحضاري المشهود، يقول عبد المجيد النجار متحدّثا عن البيئة، وكيف أنّها تمثل عاملا للتحضّر، حين تكون «في الحد الوسط الّذي يتحدّى الإنسان إلى نقطة التوتر والقدرة على الاستجابة والفعل والإعمار، ويتجاوز

[1] فقه التحضر الإسلامي، عبد المجيد النجار، ص 30.

[2] المرجع نفسه، ص 31.

التكشف الكامل، أو الانغلاق الكامل الذي يستحيل معهما رد الفعل والإبداع»،[1] وهو ما يفسر مسألة التسخير، وكونها مرتبة وسطى بين الانغلاق الكامل للكون في وجه الإنسان ووسائله، وبين اللين التام والتّكشف الكامل الّذي لا يشجع على الجد والاجتهاد، بل يدفع الخمول والكسل، إنّما جعل التسخير على هذا المستوى حتّى يتميز البشر عن بعضهم بالسعي الجاد والعمل الصالح الّذي ربطه بالإيمان.

ونواصل مع عبد المجيد النجار بيانه للعوامل حيث يعتبر الدافع الحضاري عاملا لا يقل أهميّة عن سابقيه؛ إذ يمكن أن توجد الفكرة القوية النابعة من الحق، وتتوفر لها البيئة الطبيعية الملائمة للفعل الحضاري، ومع ذلك لا يوجد هذا الفعل، أو يغيب بعد وجود، كحال الأمّة الإسلاميّة وحضارتها، الّتي أفلت رغم وجود الفكرة، واستمرارها، وكذلك البيئة التي أودعها الله ﷻ كلّ الخيرات والتنوّع والاعتدال المناخي لكنّها آلت إلى الركود، ورجوع المسلمين إلى حال تشبه البداوة أو ربما أشد، فالبدوي قديما كان على الأقل، يوفّر لنفسه حاجاته من مأكل وملبس وضرورات، أمّا المسلم اليوم فيعتمد على غيره في تأمينها له، وإلا هلك جوعا، وتوقفت حياته؛ لأنّه وكما كان يقول لنا محمد الغزالي – رحمه الله–ونحن طلبة الجامعة: لو قيل لكل شيء على جسم المسلم أرجع إلى أصلك لبقي المسلم عريانا، وأقول إنّه لو قيل لكلّ ما تقوم عليه حياة المسلم اليوم ارجع إلى أصلك لهلك جسديا وفكريا واجتماعيا وثقافيا، وفي سائر مجالات الحياة، وهذا كلّه يفسر ضرورة وجود الدّافع، وكما يسميه المسوّغ، الّذي يستنفر الطاقات والجهود الفردية والجماعية نحو تفعيل الفكرة، واستثمار البيئة للوصول إلى غاية التعمير والبناء، وهي المهمة أيضا الّتي وُجد لأجلها الإنسان على وجه الأرض، والّتي يحوّل من خلالها الأرض مسرح فعل بدل ما هي عليه اليوم في حياة المسلم مسرح وجود لا غير.

وهكذا يتصوّر عبد المجيد النجار عوامل وشروط الفاعليّة المؤدية إلى الشهود المطلوب، وهو يلتقي مع جودت سعيد في ضرورة وجود الدافع أو المسوغ، الّذي هو شرط مهم يكون سببا في الوقت ذاته، وينطلق منه المسلم إن وجد عنده ليصل إلى صنع الأحداث وإنشاء التحضر ويفترقان في التّركيز على العوامل الأخرى كجهد الإنسان، وضرورة التّوازن عند جـــودت ســعيد،

[1] فقه التحضر الإسلامي، عبد المجيد النجار، ص 31.

والبيئة والفكرة عند النجار، والحقيقة أنّها يملكان بجهدهما شموليّة التّصوّر الّذي يؤدي إلى تحقيق ما يرمي إليه الجميع، وهو تفعيل الجهود والطاقات، والإقلاع بالمسلم إلى إنشاء حضارة جديدة أو الأولى بعث حضارته الّتي تتوفر على كل مؤهلات الانطلاق من جديد، ويكفي فقط وجود جيل تتكاثف جهوده لذلك، وأرى أن كلا من الرجلين لا يهمل هذه الشروط ونجدها متضمنة في تصوره العام للمسألة، وهذا التنوّع بينهما يمثّل حلقات إذا أحكمت مع بعضها، تكاملت مع حلقات أخرى لتكون منظومة فكرية إسلامية حضارية جاهزة، وقادرة في الوقت ذاته على تحقيق أحلامهم وآمالهم من وراء هذه الجهود المضيئة، والأعمال الّتي كانت في سبيل بعث الأمل وإحيائه من جديد في نفوس الأجيال.

أما مالك بن نبي، والّذي كان إنتاجه الفكري سلسلة تدور كلّها حول مشكلات الحضارة كما عنون لها، فإنّه يرى أن التّجديد الحضاري فعل إنساني قائم على قدرة الإنسان على الإبداع في مختلف مجالات الحياة، ويرى أنّ للتجديد معانٍ ثلاث: الأوّل بمعنى البناء الحضاري، ويكون سابقا على الحضارة باعتباره فاعليّة ومبادرة الإنسان في تغيير نفسه وأفكاره وما يحيط به، تمكّنه من يحقق له الانسجام مع قوانين الآفاق والأنفس ليصل إلى الدّوافع والشّروط، الّتي تمكنه من تحقيق الوجود الإنساني، وهو عكس التّكديس الّذي يقوم على استيراد منتجات الحضارات الأخرى ومحاولة بناء حضارة بها، يقول مالك بن نبي: «إن المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها، وسيكون من السخف، والسخرية حتما أن تعكس هذه القاعدة حين نريد أن نصنع حضارة من منتجاتها».[1]

وتجدر الإشارة إلى أنّ التّجديد الحضاري، كما هو شرط من شروط قيام أيّة نهضة أو حضارة، فإنّه كذلك سبب يلازمها في جميع أطوارها، كما أنّه سبب كذلك في أفولها وزوالها، وحركة التّحضّر تحتاج إلى مجتمع ليمارس الأفراد التغيير داخله، وتتوحّد الجهود نحو تحقيق الغايات المرجوة، والوصول به إلى حياة اجتماعية تنتظم داخلها حياة الأفراد.

---

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، ط 3، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1969، ص 61.

والتّجديد الحضاري لا بدّ له من شروط تكفي للإقلاع الحضاري، أو الإحياء والبعث أيضا، وهذه الشّروط كما يتصورها مالك بن بني خمسة:[1] العدة الدائمة، العامل الروحي، التغيير، البناء لا التكديس، والتوجيه، و سأحاول عرضها بإيجاز، و تتمثل في:

العدة الدائمة:

وتمثل العناصر الأوّليّة والثّروة الأوليّة، وهي وسائل الإنسان الّذي يرغب في التّحضّر والتّمدّن، وتشكل عند مالك بن بني طرف معادلة الحضارة، الّتي تبدأ بذلك الرجل البسيط، الّذي كان يعيش حياة بدائية لكنّه، وفي مدة زمنيّة تفاعل مع التراب فوصل إلى هدف يكون قد حدّده وسعى إلى الوصول إليه، بما بذل من جهد واستعمل من وسائل، يقول: «وهكذا لا يتاح لحضارة في بدئها رأسمال، إلا ذلك الرجل البسيط الذي تحرك والتراب الذي يمده بقوته الزهيد ، حتى يصل إلى هدفه، والوقت اللازم لوصوله»،[2] وهي عناصر لا يستطيع الإنسان الاستغناء عنها باعتبارها وسائله لتحقيق وجوده الاجتماعي والمدني الّذي سيكون حصيلة تآلف هذه العناصر فيما بينها، وكلّ عنصر من العناصر يمثل نوعا يحمل الصفات الجوهرية لأفراد مجموعته، يقول مالك بن بني وهو يرتب معادلة الحضارة إلى: «مجموعة منتجات حضارية= مجموعة إنسان+ مجموعة تراب+ مجموعة وقت. ولكن جمع منتجات حضارية هو الحضارة نفسها في صورة غير مركبة، وجمع إنسان هو الإنسان نوعا، وجمع تراب هو التراب نوعا، وجمع الوقت هو الوقت نوعا».[3]

الفكرة الدّينيّة:

وهي عقيدة موحدة تضبط العلاقات داخل المجتمع على أساس القيّم الأخلاقية، وتدفع النّاس إلى النهوض بالرسالة الوظيفيّة للإنسان في المجتمع، وفي الوجود ويبدأ بذلك في وضع التّاريخ، وفيه يصنع الحضارة بدافع من هذه الفكرة، وهو بهذا يخالف القائلين بأنّ الحضارة وليدة

---

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 89.

[2] المرجع نفسه، ص 89.

[3] مالك بن نبي، تأملات، طبعة دار الفكر بيروت، لبنان، إصدار ندوة مالك بن بني، ص 197 – 198.

البيئة والمناخ، والتّحدي والاستجابة، أو العامل الاقتصادي، بل تصنعها فكرة دينية ومبدأ أخلاقي يؤلّف بين العناصر الثلاث.

وللإشارة فإنّ مراحل الحضارة عند مالك بن بني تشهد ثلاثة أطوار طور الميلاد، والازدهار، والأفول أو الفساد، وفي كل هذا فإنّ الفكرة الدينية واضحة التأثير في روح الفرد أو الجماعة، ممّا يحدث الدّوافع إلى النهوض على المستوى الفردي والجماعي، وتكون وراء كل تجديد أو خلق حضاري بفعل حركة الإنسان في التّاريخ .

وأثر الفكرة الدينيّة واضح في الحضارة الإسلاميّة، والحضارة المسيحيّة، البوذيّة غيرها، وتعلّق المسلمين الّذين كانوا يعيشون حياة بدائية تملؤها العادات الفاسدة، كان أقوى من أن تقف في وجهه هذه العادات أو محاولات المشركين آنذاك، بل هذا التعلّق أدّى إلى تحريك نفوس جديدة بهمة جديدة نحو حضارة أشرقت من صحراء مكّة، وعند قوم لم يكونوا يحسنون سوى الحلّ والترحال، والتّناحر الطّويل من أجل الماء والكلأ.

وتأثير الفكرة في وعي الفرد والأمّة يخلق روحا فرديّة وجماعيّة جديدة مما يحدث الدّوافع والأسباب، إلى النّهوض والتمهيد لإنشاء حضارة على أساس حركة الإنسان في التّاريخ,

أما التّغيير: فيجعله عمليّة إنسانيّة على مستوى الفرد والجماعة والأمّ، وهو لبّ وجوهر عمليّة التجديد الحضاري، قبل الحضارة، وخلالها وبعدها فكما يكون التغيير شرطاً لازمًا لبناء الحضارة، وشرطاً لازماً لاستمرارها، فإنّه كذلك سبب في هدمها، وإزالتها، ومبدأ التغيير القرآني يمثل عند مالك بن بني قاعدة ذهبيّة في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.[1]

ويتناول مالك بن بني التغيير كمشكلة مطروحة أمام العالم الإسلامي، الّذي يعاني الجمود والتّخلّف، وحلّ هذه المشكلة مرهون بفهم المسلمين، وتقديرهم القاعدة التغيير المذكورة وإدراكهم:«بأنّ عناصر الحضارة كامنة في جوهر الدّين، وعدّة الحضارة هو الإنسان الّذي تحرّكه الفكرة الدينيّة، فيحدث تغييرا في أن نتصوّرها كقانون إنساني وضعه الله ﷻ في القرآن كسنّة من سنن الله، الّتي تسير عليها حياة البشر»،[2] ويضرب مثالا واقعيا على أنّ تغيير النّفس هو أساس

---

[1] سورة الرعد، الآية: (11).

[2] مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن 20، دار الفكر دمشق سوريا، ص 58.

كلّ تغيير هادف رشيد، بالاستعمار، الّذي لم يستطع فعل شيء أمام من كانوا يحسّون الحرية ويعيشونها داخلهم، وأنّ أحدا لن يتمكّن من سلبهم إياها مهما حاول ومهما اعتمد من وسائل.

ولئن كان التّغيير مبدأ قرآنيا ثابتا، وسنّة من السّنن الكونيّة، وضعها الله ﷻ لهداية البشر، فإنّه كذلك يمثّل حقيقة علمية؛ إذ إنّ: «الفرد لا يمكنه أن يغيّر شيئا في الخارج إن لم يغير شيئا في نفسه، وحين نقول هذه الكلمة نقولها باعتبارها علما، ولا نقولها فقط تبركا بآية، نقولها علما مقدارها من الصحة العملية».[1]

أما البناء بدل التكديس: فهو شرط آخر يراه مالك بن نبي بعد استقرائه للواقع، واعتماده على شواهد معاشة، فالحضارة تعني الإنتاج، والعمل لا الاستيراد والتكديس، كما تعني الاعتماد على النّفس لا الاتّكال على الغير، وأنّ استيراد كلّ منتجات الحضارة لا يأتي بالحضارة؛ لأنّها عمليّة بناء ونتاج حركة المجتمع القائمة على أسس فكرية ومادية في إطار منهج يحدّد الأهداف والغايات، ويفعّل كلّ الوسائل المتاحة، يقول مالك بن نبي: «وفي استخدامنا للمصطلحات البيولوجية نجد أن الحضارة مجموعة من العلائق بين المجال الحيوي «البيولوجي» حيث ينشأ ويتقوى هيكلها، وبين المجال الفكري حيث تنمو وتولد روحها، فعندما نشتري منتجاتها فإنّها تمنحنا هيكلها وجسدها لا روحها».[2]

ولحلّ مشكلة الحضارة، لا بدّ من استبعاد حل التكديس والاستيراد، بل يجب حل مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت من أساسها، بما هو أنسب وأسلم، واستغلال شروط ولوازم الإصلاح والتجديد، والبناء الحضاري بما يسمح بإنشاء حضارة رائدة.

أما التوجيه فيجعله أيضا ضربا من ضروب النّهضة، والتّجديد الحضاري الّذي لا يتمّ حسبه إلا بأداء عوالم ثلاث في عمل مشترك يبدأ طبقا لنماذج إيديولوجية من عالم الفكر تنفذ بوسائل، وأدوات من عالم الأشياء لبلوغ غاية يحدّدها الإنسان ممثّلا في عالم الأشخاص، فتتجسّد الحضارة بوجود عالم رابع هو مجموع العلاقات الاجتماعية، وتبدأ عملية التغيير من الفرد لما بداخله، ثمّ تنتقل إلى المجتمع الّذي يقوم بتوجيه الفرد وعدم تركه عرضة للتلقائية والفوضى، والتوجيه يعني: «قوة في الأساس، وتوافق في السير، ووحدة في الهدف»،[3] وباعتباره صانع الحضارة،

---

[1] مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن 20، ص 57.

[2] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 62.

[3] المرجع نفسه، ص 117.

فإنّ الإنسان يصنعها من خلال تأثيره في البيئة والمجتمع بفكره، وعمله، وماله، وضروري أنّ يوجّه التوجيه الصّحيح في هذه النّواحي الثلاث: الفكر والمال والعمل، ويتم توجيه الفّكر بتوجيه البعد الأخلاقي في الإنسان، وبإتباع أسلوب يربط الجهود بالوسائل، ويبعث فاعليّة الأعمال؛ لأنّ كثيرا من الأعمال تتميز بلا فعاليتها، وتضيع في العبث واللّهو، دون إدراك قيمتها الحقيقية، وبمقارنة بسيطة لعمل مربي المواشي في أوروبا، ومربي المواشي عندنا نجد الفّرق بينهما دليلا على قمة التحضر عندهم، وقمة التّخلّف عندما نلمسه ونراه في قطيع الأوربي من صحّة القطيع ونظافته وغزارة إنتاجه، وفي قطيع المربي عندنا من هزال القطيع، وأمارات الإهمال والتفريط فيه، وعدم القيام به كما يتطلب الأمر.

أمّا توجيه العمل فالقصد منه جعل الأعمال مفيدة ونافعة، وتضيف الجديد الدّاعم للبناء الاجتماعي، خاصّة وأنّ العمل قد عرف مع الإنسان، ووجد حيث تحركت يده، وعرف الفكر طريقه إلى الممارسة والتّطبيق، ووجهه شيئا فشيئا حتّى وصل إلى إنجازات الحضارة في مختلف مظاهرها، يقول مالك بن بني: «وكلّما تقدّم التّوجيه المثلث للإنسان تغير وجه الحياة حتما، فيكتمل ويحتل مستوى أرفع دائما».[1]

ويقصد بالمثلث توجيه كلّ من الفكر والمال والعمل، وتوجيه المال يكون بتجنب تكديس الثروة، بل يجعلها أمولا متحركة، تكون فعليا عصب الحياة، لتنطلق به الأيادي إلى الإنتاج والإبداع وفق توجيه الفّكر وتأثيره، يقول مالك بن بني: «فالقضية ليست كما بينا في تكديس الثروة ولكن في تحريك المال وتنشيطه، بتوجيه أموال الأمّة البسيطة وذلك بتحويل معناها الاجتماعي من أموال كاسدة إلى رأس مال متحرك ينشط الفكر والعمل والحياة في البلاد»،[2] ويضرب مثلا بمسألة التصحر في الجزائر، تهديد رمال الشاطئ الأطلسي، والمستنقعات سكان الناحية الجنوبية الغربية بفرنسا، أمّا في الجزائر فوقف منها الإنسان موقف الجبان، بالنّزوح إلى المدن الساحلية، والضياع فيها، وعكس ذلك في فرنسا؛ حيث قام الإنسان هناك بغرس أشجار على طول منطقة الخطر، وكانت فائدة العملية متعددة، والفرق بين الموقفين هو التّوجيه للفكر والعمل والثورة، ودوره الإيجابي ليس في حل المشكلة فقط، بل وتحويلها إلى دافع والإفادة منها بما يحقّق

[1] مالك بن نبي، شروط النهضة، ص 172.

[2] المرجع نفسه، ص 172.

الخير والنّفع، أوّلها ينعدم ويكون الفرار من المشكلة هو الحل في نظر من توقّف الفكر عنده مع، عمله ودوره في إيجاد الحلول اللازمة للمشكلات.

ولقد سعى روّاد الحركات الإصلاحية في العلم الإسلامي إلى بعث روح التجديد الحضاري في مختلف مناحي الحياة، وانصبت الجهود حول استنطاق مشكلات الأمّة من تخلف وهوان، وغياب عن أحداث العالم لإيجاد الحلول المناسبة والناجعة أوّلا، ثمّ بعد ذلك البحث في سبل ووسائل التجديد الحضاري، الّذي سيحلّ مشكلاتها المتراكمة عبر الزمان، والّتي أثّرت على الحياة كلّها ببعدها الفكري الثقافي، والاقتصادي والأخلاقي القيمي، والوجودي الحضاري.

كانت هذه شروط النّهضة والبعث الحضاري كما حددها مالك بن بني، والّتي وجدتها تدور في فلك واحد، والشّروط الّتي رآها جودت سعيد، وكذلك عبد المجيد النجار، والاختلاف بينهم في بعض الجوانب أراه تنوعا أثرى الرؤى المختلفة، وأدّى إلى تكامل التصورات لإعطاء استراتيجية عمل كاملة بأبعاد تشمل إصلاح الفرد، والمجتمع على أساس العمل والفكر والوسائل، لتخلص إلى نظرة موحّدة تجمع بين المبادئ، والغايات، ضمن خطّة شاملة عامّة يتبناها المجتمع، ويحرص على تنفيذها بأبعادها الإنسانية، التاريخية، الاجتماعية، الأخلاقية، الروحية والجمالية، ويوفر لها شروط النّهضة وعوامل بناء الحضارة وتجديد منجزاتها.

والقضية هنا قضية وجود لن يتحقق إلاّ برؤية كونيّة قائمة على التوحيد والوحي، الّذي يحمل ما يساعد المسلم على ضبط فهمه للعلاقات الموجودة، والتي بفهمها وإدراكها سيتطلع إلى غاية وجوده ووجود كل الكائنات، ثمّ إلى مكانته هو بين الموجودات، حينها سيتطلع إلى القيام بواجبه ومهمته في الوجود، وسيُفعّل الوسائل التي زوده بها الله ﷻ، لتتحرك الأمة، وتستفيد منها، وتنتج فاعليّة مفقودة مطلوبة في الوقت نفسه، يستعيد بها المسلم دافعيته إلى العمل وبذل الجهد، لتتراكم نتائج ذلك فتنشأ الحضارة بعد اكتمال شروط انبعاثها من جديد، وتستعيد الأمّة ممارسة رسالتها الحضارية الّتي من المفروض أنّها قادرة على أدائها؛ لأنّها أهل لتحمل أعبائها، كما أنّها تملك وسائل وأدوات ممارستها، لو عثرت على ما يحرك فيها روح الواجب نحوها.

الفصل الثالث:

نماذج تطبيقيّة

المبحث الأوّل: عمر بن عبد العزيز:

تمهيد:

لقد أراد الله ﷻ أن يكون الإسلام دينا خاتما، وخصّه بالكمال الّذي لا حاجة للناس بعده لدين آخر، كما خصه بالحيوية والنّشاط الّذي مكّنه من مسايرة الحياة، والتأثير فيها بإصلاحها وحفظها من الانحراف في الوقت نفسه، وهي خصائص لم تتوفر لدين قبله مما جعله ضرورة حيوية للإنسان لا يستغني عنه؛ لأنّه يساير حاجاته ويوجهه إلى ما فيه صلاحه وخيره، ويقوّم اعوجاجه إذا انحرف وسلك الاتجاهات الفاسدة.

والمتأمّل في تاريخ الأمّة الإسلاميّة الّتي خصّها الله ﷻ بالرّسالة الخاتمة، وبمهمة الشّهادة على غيرها من الأمم، كما خصّها بالخيريّة متى حقّقت أسبابها وشروط الأحقيّة بها، يجد أنّها مرّت بفترات عصيبة واجتمعت عليها محن ومواقف لم تتعرّض لها أمّة في التّاريخ امتحانا لمبادئها من حيث الثّبات والقوّة، والقدرة على الصمود، وكذلك لروحها من حيث الحيويّة والصلاحيّة للحياة عبر الزمان والمكان، ولما خرجت من هذه الابتلاءات منتصرة: كانت جديرة بالحياة وحقيقة بصلاحية قيادتها لها.

وقد مكّنها من تجاوز المحن والتقلّبات والتحديات عاملان أساسيان،[1] حيوية الإسلام نفسه، وصلاحيته للقيادة والتوجيه والتقويم في كل زمان ومكان، والثّاني أن الله ﷻ ضمن لهذه الأمّة بقاءها وخلودها بأن وهبها رجالا أكفاء يعيدون إليها الحيوية والفاعليّة عبر سعيهم إلى الإصلاح والتجديد، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مائةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِيْنَهَا»،[2] ويثورون ضدّ الفساد في كل جوانب الحياة، ويصلون بتوفيق الله ثم بإخلاصهم وإقدامهم، وما وهبهم الله من قدرة على ذلك، وما يحوزون عليه من الفهم والتحليل الى إيجاد حلول لمشكلات الأمّة بحكمة قلّ أن تتوفر لغيرها، لا لذاتها، إنّما لدورها وتأثيرها وحضورها في وضع الأحداث وإيجاد الفارق، وهي إلى جانب كلّ ما ذكرته ميزة هذه الأمّة الإسلاميّة، والّتي لم تتوفّر للأمم أصحاب الدّيانات الأخرى بتجديدها، وهو دليل على أنّ الدّيانات إذا اضمحلت وضعفت لا تعود إلى نشاطها إلاّ بجهود المصلحين المجدّدين الّذين يعيدون الحماس والحيوية لها.

والإسلام وحده الّذي لم يخل فيه عصر من العّصور الماضيّة من جهود التّجديد، ومعارضة الانحراف، والدّعوة إلى فكر جديد ينزل أحكامه في واقع الحياة، ويستجيب لمتطلباتها المتجدّدة ويحلّ مشكلاتها الدّائمة،

---

[1] أبو الحسن على الحسني النّدوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ط2 1431هـ – 2010 دار القلم دمشق، ج 1، ص 91.

[2] سنن أبي داوود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم الحديث: 4291، ج3، ص 23.

ويقف في وجه المادية الجارفة خاصّة في العصور الحديثة الّتي أصبحت فيها دينا للغرب حلّ محلّ المسيحيّة الميتة، ويبقى العبء على كاهل المؤرخين الّذين بخسوهم حقّهم ولم يذكروا منهم إلاّ البّعض، وصرفوا جهودهم للإسهاب في أحداث البلاط والملوك وحاشيتهم وأخبارهم، وإلاّ كان إنتاجهم تاريخا كاملا وشاملا للإصلاح والمصلحين، والجهود الّتي تصلح أن تكون أرضية جاهزة للانطلاق بعد وصلها ببعضها وإكمال حلقاتها

لكن هذا لا يعني انعدام البّحوث والدّراسات، بل كان قصدي أنّه لو أعطوا حقّهم من البحث لكان خيرا، وقد ذكر الكتّاب والمفكرون كثيرا من المصلحين أفرادا أو حركات، ونحوهم كانت لهم جهود مميّزة في مناهج تفكيرهم، ثم في وسائل تفعليهم لهذه الأفكار والوصول إلى إحياء الفكر، وإيقاظ الهمم، والنهوض من جديد، كل حسب وسعه، وظروفه المكانيّة والزمانيّة، وكذلك التّحديات والعقبات الّتي تتصدى لمحاولاتهم، ومهما يكن فإن المصلحين والمجددين في الإسلام بلغوا نجاحا كبيرا وحقّقوا إضافات جديدة في حقل الدّعوة والإصلاح والتّجديد.

وقد اخترتُ أن أبدأ بمن عده المؤرخون الأوّل على رأس المائة الأولى.

1. انقلاب العهد الأموي:

رغم أنّه بداية التحوّل الخطير في حياة الأمّة، إلاّ أنّني لست بصدد الكلام عن قضية استيلاء بني أميّة على الخلافة، وتحويلها من راشدة إلى ملك يورّث، إنّما أردت الإشارة إلى الحالة السائدة قبل تولي عمر عبد العزيز الخلافة، والّتي تميّزت بانتشار الفساد السّياسي والاجتماعي، وكأنّ هذا العهد قد ابتعد عن عهد الخلافة الرّاشدة بعصور، والحقيقة أنّ الفاصل ليس الزّمن بقدر ما هو ابتعاد الناس عن دينهم، وانغماس الحكّام في الشّهوات والمجون والانصراف عن الصلاح والطّاعة الّتي ميّزت سلفهم، وتحوّل مؤسسات الدّولة إلى ملك العائلة الحاكمة، مثل بيت المال الّذي أصبح ملك فرد حوله إلى موارد للإنفاق الخّاص مخالفين بذلك توجيهه ﷺ حول مصدر تمويل بيت المال من الصدقات التي: «تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم»، وانقلابها إلى «تؤخذ من فقراءهم وتصرف على أغنيائهم وأمرائهم وشعرائهم»،[1] وقد ذكر المؤرخون «أنّ الأخطل كان يدخل على عبد الملك بغير إذن وعليه جبّة خز، وفي عنقه صليب ذهب، ولحيته تقطر خمرا»،[2] وقد اجتمعت أسباب الفساد، وأفرزت طبقات من المترفين والمتنعمين.

وفي خضم هذا التّدني، يبقى وعي الطّبقات البسيطة من النّاس متعلّقا بالعلم والعلماء، ووجوب اتّباعهم وإجلالهم، والتمسّك بالاستقامة، وعدم استساغة أقوال الحكام ومن يتّصل بهم، كي يكون تربة

[1] أبو الحسن على الحسني النّدوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص 111.

[2] المرجع نفسه، ص 111.

صالحة تنتظر غراسا طيّبا، ويأتي يوم يتولى عمر بن عبد العزيز الخلافة، وهو الأمير المترف، والّذي يعرف النّاس أنّه مرّ بمكان من خلال عطره في آفاق المكان، حتّى مشيته كانت متبخترة ، وتسمى بالعمرية، وخلف هذه المظاهر يختفي رجل تقي ورع، يظهر حين تنقلب هذه الشّخصية الأميريّة وتترقى إلى نيل الخلافة، وهو في الحقيقة لم يكن له حق فيها لولا أن الله هيّأ الأسباب والظروف لحدوث هذا الانقلاب، حين حضرت الوفاة سليمان بن عبد الملك، وكان ولده صغيرا فعقدها لعمر بن أخيه، وزوج ابنته الّذي تميّز على أبناء عمومته بسلامة الفطرة، والاعتراف بالحقّ لاسيما وجده الفاروق، وأمّه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب، وجدّته لأمّة صاحبة القصة المعروفة باللبن.[1]

2. تولي عمر للخلافة:

وما إن تولى مقاليد الحكم حتّى بدأ بالإصلاح في نفسه، وأهل بيته، وفي رعيته وولاته، وبيت المال، وكلّ مظاهر الفساد الّتي كانت منتشرة، والظّلم الّذي خنق الأنفاس، فملأ الدّنيا عدلا ورخاء كما سيتّضح من خلال ما يأتي من عناصر:

1.2. إصلاحه لنفسه وأهل بيته:

إنّ الإصلاح لا بدّ أن يبدأ من النفس، وهي قاعدة قرّرها القرآن، ورتب الله تعالى نجاح التغيير على شرط البدء بتغيير النّفس أولا، فقال ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.[2]

وأرى أن أوّل تغيير كان في مثله الأعلى، الّذي أصبح عمر بن الخطاب ﷺ الّذي لا يرى أسوة له في آبائه سواه، وحقّ له أن يتأسّى بالفاروق الّذي وزنت به أمّة محمد ﷺ فوزنها، وكان بداية الاستقامة، ثمّ عهد إلى نفسه فطهرها من أدواء الغفلة، وأنزلها منزلة العبد المتواضع الفقير إلى رحمة ربه، وغيّر مجلسه الّذي كان يشبه مجالس الأباطرة،[3] إلى مجلس خادم للأمّة والرّعية، ونهى عن القيام له كما كان سابق عهد آبائه، وأصبح يبادر النّاس بالسلام، ويسمع منهم، ويطلب نصح العلماء، والوعّاظ لشدة خوفه من الله، وخشيته له، وقيل أنه: «دخل عليه رجل وبين يديه كانون فيه نار، فقال: عظني! قال: يا أمير المؤمنين ما ينفعك من

---

[1] أبو الحسن على الحسني النّدوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص 116.

[2] سورة الرعد، الآية: (11).

[3] أبو الحسن على الحسني النّدوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص 117.

دخل الجنة إذا دخلت أنت النار؟ وما يضرك من دخل النار إذا دخلت أنت الجنة؟ قال: فبكى عمر، حتّى أطفأ الكانون الذي بين يديه».[1]

وقال يزيد بن حوشب: «ما رأيت أخوف من الحسن وعمر بن عبد العزيز ! كأن النار لم تخلق إلا لهما».[2]

وما ميّز تحوله هذا، ليس زهده وتقشفه إنما دافع هذا الزّهد والتّقشّف، وهو الخوف من الله ﷻ الّذي ما ترك في نفسه مساحة للمعاصي أو التنعم أو الطغيان والظّلم، بل شغلها بالاعتدال والاستقامة، وبالتواضع والحلم، وتقدير المسؤولية العظيمة الّتي ألقيت على كاهله، وربّما يتبادر إلى الذهن أنّ الخلافة لم تكن شيئا جديدا عليه، فهو قبلها كان واليا وما تغير هو انتقاله من الولاية إلى الخلافة! أقول نعم لو أهملنا حقيقة مآل الخلافة إليه، أما وأنّها معلومة فإنها التفسير لما طرح قبل قليل، وعمر كما ثبت لم يكن ينتظر، أو يتوقّع أنّ شؤون الخلافة يوما ستؤول إليه، وهذا السبب في انقلابه إلى خليفة عادل عابد زاهد، ولو كان يطلبها وينتظرها لاعتبر ظفره بها انتصارا، لكنّه لم يجد فيها هذه المعاني، ممّا فسح المجال أمام الشّعور الفّطري الصّحيح نحو المسؤولية، وكونها تكليف، وأمانة تقصم ظهر متحمّلها، فأيقظ هذا الأمر في نفسه معاني الإشفاق، والخوف اللّذان دفعاه إلى تغيير نفسه، والاستعداد للأمانة الّتي حُمّلَهَا بما هي أهل له من تخليص النّفس والفكر واللّسان واليد من كل المهالك والمغريات، والانصراف إلى صقلها جميعا بإحكام الشّرع الحنيف والوحي الخالد.

وبعد نفسه، انتقل إلى زوجته وخيّرها بين حليّها ومصاغها، وبينه فاختارته وأرجعت كلّ ما تملك إلى بيت مال المسلمين، ولا شكّ في أنّها شربت من معين الحقّ هي أيضا، واهتدت مع هذا الرّجل الصّالح إلى غنى النّفس، وقناعتها، وطلب ما هو خير وأبقى.

وقد روى أنه: «كان يتأخّر في الخروج – بعض الأحيان–إلى صلاة الجمعة انتظارا لقميصه أن يجف، وقد يكون طعام بناته عدسا وبصلا، فيبكي ويقول: يا بناتي ما ينفعكن أن تتعيشن الألوان، ويؤمر بأبيكن إلى النار».[3]

وإذا تأملنا ما كان يضيقه على نفسه فمهنا مبلغ التقوى والورع في نفسه، وفي المقابل كان يوسّع على عماله، ويفرض لهم أجور كبيرة لبعد نظره وحكمته في إغنائهم عن الخيانة، وأن تطمع أنفسهم في مال الدّولة الّذي هو حقّ للنّاس، وامتداد اليد إليه أكل له بالباطل، وهو حرام.

---

[1] أبو الحسن على الحسني النّدوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص 136 – 137.

[2] المرجع نفسه، ص 136 – 137.

[3] المرجع نفسه، ص 117.

2.2. اصلاحاته السياسية:

لم يكن تورع عمر بن عبد العزيز مقتصرا على نفسه وأهل بيته، بل أراده سياستا عامّة تُطبّق على كلّ من يتولى أمور المسلمين، أمّا الّذي يشدّ الانتباه في سياسته الحكيمة والحازمة، أنّه رجع بأجهزة الدّولة والحكومة إلى دورها الحقيقي، والّذي تميّع في وقته؛ بحيث اقتصر على الجباية، والإنفاق على الحاشية، وترك سائر الواجبات الّتي هي قوام الدولة، وسبب وجودها كحراسة الدين والأخلاق، والأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وإشاعة العدل، والحقّ بين الناس، لكنّ عمر أعاد الدّولة إلى مهامها، وضبط المفاهيم والحقوق والواجبات، على ميزان الشّرع، وعلى ما عاش عليه الرسول ﷺ، والرّاشدون من بعده، وأبلغُ ما يوضح ما أقول ما رُوي عنه أنّه شكا إليه بعض العمال مسألة خطيرة، وهي الخوف من تناقض واردات بيت المال من الجزية؛ حيث كثر دخول أهل الذّمة في الإسلام فكتب إليه: «إن الله جلّ ثناؤه بعث محمدا ﷺ داعيا إلى الإسلام، ولم يبعثه جابيا».[1]

وقد حاول بناء الدّولة على أساس الهداية، والرّجوع إلى سيرة النبي ﷺ، وسيرة الخلفاء الرّاشدين من بعده، كما كان حريصا على إشاعة العدل في كلّ مكان؛ حيث كان يوصي عمّاله بالحرص على أحكام الشّرع، وكان إذا تعارضت المصلحة الماليّة مع المصلحة الشرعية، رجح المصلحة الشرعية دون تردد، ودون حساب العواقب إن وجدت، وقد آتت سياسته الحكيمة نتائجها، فيما عرفته الدولة من رخاء وأمن واستقرار؛ لقد كان يشدد على ولاّته أن يأخذوا النّاس باللين ويسوسوهم بالحقّ، والعدل فلا أهيب لدى الناس منهما، وقد ذكر السيوطي في «تاريخ الخلفاء» ما أخرجه ابن عساكر عن السّائب: كتب الجرّاح بن عبد العزيز: إنّ أهل خراسان قوم ساءت رعيتهم، وأنّه لا يصلحهم إلاّ السّيف والسّوط، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في ذلك فكتب إليه عمر: أمّا بعد، فقد بلغني كتابك تذكر أنّ أهل خرسان قد ساءت رعيتهم، وأنّه لا يصلحهم إلاّ السّيف والسّوط، فقد كذبت، بل يصلحهم العدل والحقّ، فأبسط ذلك فيهم، والسّلام».

وهو بذلك يطبّق ما رآه من وجوب إعلاء شأن الكرامة والإنسانية، وما استقر في ذهنه من طريق الرّشد ووسائله، والابتعاد عن الغي وسبيله، وما يؤدي إليه، تطبيقا فعليا في حياة النّاس، وعلى الجميع بدءا بنفسه، وأهل بيته حتّى يكون قدوة صالحة، ويجعل النّاس يذعنون للحقّ، ويطمئنون به، وهذا ما جاء الإسلام لأجله، وما حمل الأنبياء لواءه، وجاهدوا في الله حق جهاده من أجله، والتّحدي مع عمر بن عبد العزيز أكبر، وصعوبة تطبيق الحقّ والعدل تجعل القضاء على الجور والباطل من ضروب المستحيل لكثرة

[1] أبو الحسن على الحسني النّدوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص 120.

شيوعه، وسير حكام بني أميّة وعمالهم عليه، وما أشاعوه من فساد، وبعد عن روح الإسلام وتعاليمه، لكنّ الرجل كان على قدر هذه المسؤولية وهنا تظهر عبقريته وبعد نظره، وحسّه السّياسي الّذي أعطاه صلاحيات القائد العظيم، وقد روي أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عامل له يقول: «إن استطعت أن تكون في العدل والإصلاح والإحسان بمنزلة من كان بتلك في الظّلم والفجور والعدوان فافعل».[1]

وهذا هو التّغيير الحقيقي الّذي يُحِلُّ العدل والإحسان، محل الجور والظلم والفجور، وبدونه لن ينجح أيّ إصلاح، وتضيع الجهود دون فائدة.

كما أن ما تميز به عمر بن عبد العزيز، هو عدم محاباة أحد من قرابته في توليتهم وظائف الدّولة، فلم يقرّب قريبا كما لم يبعّد بعيدا، وكان يغيظهم منه هذا —حتّى قيل إنّه مات مسموما في بعض الرويات–وقد روى الأوزاعي: «أنّ عمر بن عبد العزيز كان جالسا في بيته، وعنده أشراف بني أميّة، فقال: أ تحبون أن أولي كل رجل منكم جندا؟ فقال رجل منهم: لم تعرض علينا ما لا تفعله؟! قال: ترون بساطي هذا؟ إنّي لأعلم أنّه يصير إلى بلى وفناء، وإنّي أكره أن تدنّسوه بأرجلكم، فكيف أوليكم أعراض المسلمين وأبشارهم؟ هيهات لكم هيهات فقالوا له: لم؟ أما لنا قرابة؟ أما لنا حق؟! قال: ما أنتم وأقصى رجل من المسلمين عندي في هذا الأمر إلاّ سواء، إلاّ رجلا من المسلمين حبسه عني طول شقته».[2] والغريب في الأمر أنّه ومع هذا العدل كلّه كان يرى نفسه مقصّرا، وأنّه يلزمه الكثير حتّى يقيم العدل فعلا فكان يقول: «لو أقمت فيكم خمسين عاما ما استكملت فيكم العدل»،[3] وهو الّذي شمل عدله كلّ المسلمين في أيّ البلاد كانوا، وإنّ أهل سمرقند شكوا إليه قتيبة بن مسلم، وظلمه لهم فأجلس لهم قاضيا، وفصل في الأمر ورضوا بحكمه، وأدّى هذا الموقف إلى التّراضي والصّلح، وهدوء نفوس النّاس هناك، وتحقّق إيمان عمر بن عبد العزيز بأن العدل هو أساس الدّولة، وسند الحاكم، ووسيلته إلى النّجاح في مهمته، وما كان هذا العدل متحققا لذاته، بل أهم أسباب تحقيقه هو ورعه وزهده في الدّنيا وشهواتها، وإشفاقه من ثقل الأمانة التي يحملها، وما كان سلفه من بني أميّة على شيء، من هذا، بل كانوا لا يتناهون عن المنكر الّذي يميز معاملاتهم، وكانوا يغضون الطّرف عن ظلم وجور، ولاتهم؛ لأنّ هؤلاء كانوا يوافوهم بما يطلبون من الأموال الكثيرة التي تشبع رغباتهم، والتي كانوا يأخذونها من أهل الذّمة بحرص وصل إلى درجة أنّه من يعجز عن دفعها يأخذون زوجته و أولاده، ويبيعونهم ويأخذون الأموال في مكان الجزية.[4]

---

[1] أحمد خليل جمعة، يوسف علي بدوي العدل، ، ط1 1420 هـ و 1999 م ، اليمامة، دمشق، بيروت ص 160.

[2] المرجع نفسه، ص 108.

[3] نفسه ، ص 108.

[4] محمد الطيب النجار، الدولة الأموية في الشرق، ط 3، 1397 هـ – 1977م ، دار الاعتصام، ص 56.

والأمر لم يتوقف عند هذه الممارسات البشعة، بل تعداه إلى أخذ الجزية عن أهل الذّمة حتّى بعد إسلامهم؛ أي مخالفة أحكام الشّريعة بهذه الجرأة، والسّبب هو فساد الولاة بفساد حكامهم من أجل جمع المال بشتّى الطرق، وهو المال الّذي كان عمر عبد العزيز يراه قوام الحياة، وحقّ المسلمين جميعا، وأمانة سيسأله الله عنها.

ومن مآثره أنّه كان يأذن بدخول المظلوم إلى مجلسه دون استئذان، فالمظلوم عنده صاحب حقّ من واجب الخليفة، أو واليه إرجاعه إليه، وهو بذلك صاحب حقّ عليهم حتّى يستعيده، وهذا هو العمل الّذي يرفع الحواجز من جهة الحكام فيزيل الاستكبار والتّعالي، ومن جهة الرّعية يزيل البغض والكراهية من القلوب، وما يبعث إحساس الوحدة بين النّاس، ويجعل تولّي المناصب تكليفا ثقيلا لا يفرح به من يقدّرها حق قدرها.

وعمر كان يقدر العدل، وينزله منزلته اللاّزمة، وقد روي أنّ والي حمص بعث إليه، يقول: «إن مدينة حمص قد تهدم حصنها، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إصلاحه، فرد عليه عمر بقوله: أما بعد، فحصنها بالعدل، ونقّي طرقها من الظّلم، فإنّه رمتها، والسّلام».[1]

وهذه الحادثة جعلت حسين أحمد أمين، وهو المعروف بذمّه السّلف الصّالح، وسخريته من الصحابة، يوجه هجومه وانتقاده لعمر بن عبد العزيز قائلا في أحد مقالاته المنشورة في «مجلة المصور» الصادرة في *1983/12/9* م في القاهرة، يقول: «لم ير الأتقياء في حكم أحد من الخلفاء الأمويين ما يوافق مثلهم العليا إلاّ عمر بن عبد العزيز الّذي أسهم جهله بالشؤون السّياسية في تدهور أحوال الدّولة ثمّ سقوطها، وانتقال السّلطة من أيدي العرب إلى الفرس!»،[2] ثمّ يواصل حول حادثة الصّور قائلا: «وإنّ المسلمين لا يزالون يمصمصون شفاههم إعجابا بموقفه من وإليه على حمص الّذي كتب إليه: إن مدينة حمص قد تهدم حصنها فردّ عمر: أمّا بعد، فحصنها بالعدل وهذا رد رغم ما فيه من بلاغة تستهوي العرب–فإنّه يستوجب المؤاخذة البرلمانية في أيّ نظام حكم ديمقراطي».[3]

وقد ردّ عليه يوسف القرضاوي بأنّ هذه افتراءات يكذّبها المنطق؛ إذ إنّ عمر ابن الأسرة الحاكمة، وكان واليا على الحجاز كلّه عددا من السنين، وأبوه عبد العزيز بن مروان، الّذي كان واليا على مصر، وعمه عبد الملك بن مروان المؤسس الثّاني لدولة بني أميّة، فلا يعقل لمن نشأ في الأسرة الحاكمة، وتقلّد هذه المناصب أن يكون جاهلا بأمور السياسة،[4] ويكذّبها الإجماع؛ حيث اتفقت الأمّة على أنّه ليس بعد الخلفاء

---

[1] أحمد خليل جمعه، يوسف علي بديوي، العدل، ص *106*.

[2] يوسف القرضاوي، تاريخيا المفترى عليه،ط*1*، دار الشّروق، القاهرة (*1425* هـ- *2005*م)، دار القلم، دمشق – سوريا، ص *34*.

[3] المرجع نفسه، ص *34*.

[4] المرجع نفسه، ص *35*.

الرّاشدين خير منه، واعتبروه خامسهم، وهو مجدد المائة الأولى، والّذي عم الخير وساد العدل في فترة حكمه القصيرة.

أمّا التّاريخ فهو الميزان العادل الّذي أنصف عمر، وأعترف له بأنّه كان سياسيا محنكا، وتقيا زاهدا من الطراز الأوّل، والعالم العامل دون منازع، والحكيم الحازم دون سواه.[1]

أمّا حادثة سور مدينة حمص فقد كان البعد السّياسي الاجتماعي واضحا في حكمة عمر، وأن المدن لا تتحصّن بالحجارة والأسوار، بل تتحصّن بالعدل الّذي يشعر أهلها بالأمن والاطمئنان، و الثّقة في ولاتهم وحكّامهم، الّتي تحبّب النّاس في أوطانهم، وتجعلهم يدافعون عنها بالأرواح والأموال، وهذا هو الحصن الحقيقي الذي يجب إقامته في القلوب وتربية النّاس عليه.

وهنا تتحقّق الفاعليّة الّتي يجب أن تتوفّر في الأمّة حكّاما، ورعية حتّى تصل بهم إلى خير الدّنيا وخير الآخرة، والّتي تمثلها عمر في حياته، وفي سياسته فوصل إلى ما يعجز الوصف عن الإحاطة به.

3.2. إصلاحاته الاجتماعية:

مازالت خطوات عمر بن عبد العزيز الجريئة الّتي خطاها نحو إصلاح الدّولة ونظام الحكم، تتوالى لتشمل المجتمع كلّه، وسط ترقب للأزمات الممكن حدوثها جراء هذه الإصلاحات، لكن السير في طريق الحق بخطى واعية وحكيمة لا يخذل أبدا. وسياسة عمر خير دليل؛ حيث كللّت بانتشار الأمن والطمأنينة بين النّاس، وأصلح الله تعالى على يديه ما أفسده أسلافه.

ومما كان من حلمه ورويّته أنّ واليا من ولاته وهو يحي الغساني قال: «لما ولاّني عمر بن عبد العزيز الموصل قدمتها فوجدتها من أكثر البلاد سرقة ونقبا، فكتبت إليه أعلمه حال البلاد وأسأله: آخذ النّاس بالظنة، وأضربهم على التهمة، أو آخذهم على البينة وما جرت عليه السنة؟ فكتب إليّ: أن آخذ الناس بالبينة، وما جرت عليه السنة، فإن لم يصلحهم الحق: فلا أصلحهم الله! قال يحي: ففعلت ذلك، فما خرجت من الموصل حتّى كانت من أصلح البلاد، وأقلها سرقة ونقبا»،[2] ويتّضح لنا من خلال هذا الدليل اعتماده على الحقّ في الإصلاح، وهو الوسيلة الوحيدة، وما عداه باطل لا يؤدي إلاّ إلى تفاقم الأوضاع، وازدياد سوئها كما أنّه كان حريصا على إنفاق الأموال العامة في النّواحي الاجتماعية، وقضاء حوائج المسلمين، ومحاولة القضاء على الحاجة والفقر، وهو ما تميّز به عن الحكام الطّامعين في أموال الأمّة، وأعوانهم العسكريين ما يجعلهم ينصرفون إلى صرفها في الأمور العسكرية، الّتي تبتلع ميزانيات ضخمة، وتجويع الشعب

[1] يوسف القرضاوي، تاريخيا المفترى عليه، 36.

[2] المرجع نفسه، ص 39.

وإرهابه حتّى ينشغل بغذائه، وأمنه عن ممارساتهم وظلمهم، و أمّا عمر فقد كفى المحتاجين حتّى أنّ أموال الزّكاة لا يجد جباتها فقراء إلا بشق الأنفس، قد روى يحي بن سعد: «بعثني عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية، فاقتضيتها، وطلبت فقراء نعطيها لهم، فلم نجد بها فقيرا، ولم نجد من يأخذها مني، قد أغنى عمر بن عبد العزيز الناس، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم، وولاؤهم للمسلمين».[1] ونستنج أنّ الولاة على فكر وسياسة خليفتهم وحاكمهم، فها هو الرّجل لما تعذّر عليه إيجاد فقير يعيطه من أموال الزّكاة، صرفها في الرّقاب، وأحسن استغلالها، وهذا هو الحكم الرّاشد العادل الذي يطبق أحكام الشّرع فيه كل فرد حيثما كان، ومهما كانت وظيفته، وتصلح به الأمّة الّتي تطمئن إلى حكامها وولاة أمورها، وتعينهم على الإصلاح والحقّ، وهي ما يعرف بالجبهة الاجتماعية الّتي يؤدي خوفها وظلم الحكام لها إلى الغليان الشعبي أمّا عمر فقد أمن الناس، وكفاهم، وضمن هدوء الجبهة، ممّا ساعده على إدارة الأمور بسلام، و أمن واستقرار، والجميع يبذل ما في وسعه لدوام هذه النعمة، وزيادتها.

وقد توصّل عمر إلى الارتفاع بالنّاس عن الشهوات، وسقط المتاع فطور بسياسته أذواقهم وأخلاقهم، وتغيرت بها ميولهم حتّى أن النّاس في وقته، كانوا إذا لقي الرجل الرجل سأله ما وراءك الليلة؟ وكم تحفظ من القرآن؟ ومتى تختم؟ وما تصوم من الشهر؟ وغيرها[2] من الأمور التي تدل على تغيّر أفكار النّاس واهتماماتهم، وانقلابها إلى الصلاح والترقي نحو أخلاق الإسلام وفضائله.

كما أنه من محاسنه، الجمع بين الحكم والدعوة والإرشاد والّتي كانت قبله منفصلة بين الحكام والعلماء، وبهذا يعيد إلى الخلافة مكانتها في الجمع بين حراسة الدّين وسياسة الدنيا، وإلى جانب كونه سياسيا ذا مستوى عالي، فإنّه مرشد وعالم من مستوى رفيع أيضا، وقد كان يتعهّد الرّعية بالزجر عن العادات الجاهلية، والعودة إلى مآثرها، بعد أن أنعم الله على عباده بالإسلام.

وقد كان يبعث إلى أمراء الأجناد يأمرهم فيها بالمحافظة على الصلاة في وقتها، وعدم إهمال حلقات الدرس والعلم، ووجوب الالتزام بأوامر الله، والانتهاء عن نواهيه، وتحكيم الشريعة في الحياة كلها، كما كان يحث عماله على الحرص على نشر الإسلام ودعوة أهل الذمة إلى الإسلام.

أما من جانب آخر فقد كان يأمر أصحاب الشرطة بالاحتياط وعدم العجلة في تنفيذ العقوبات، ويتعهدهم بالتّوضيح، كما أمرهم بعدم الإقرار بالنواح في البيوت أو الطرقات، وعدم خروج النّساء وراء الجنائز، ووجوب محافظة النّساء على الحجاب والحياء.

---

[1] أبو الحسن على الحسني النّدوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص 134.

[2] المرجع نفسه، ص 135.

وقد كان ينهى عن الخمر، والمحرمات ويحث على الحلال من الأطعمة والأشربة متمثلا قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾.[1]

وقد كانت إصلاحاته شاملة في هذه الناحية؛ حيث وصل إلى تحريم الاشتغال بالتجارة على موظفي الدولة حتّى لا تصرفهم عن واجباتهم، وتفسد عليهم حسن قيامهم بأمور الناس، وقد أقر هذه الحكمة ابن خلدون بعد ثمانية قرون فقال: «إن التجارة من السلطان مضرة بالرعايا، مفسدة للجباية»،[2] وقد أسترجع الأراضي الّتي أستحوذ عليها الأمراء، ورجال الأسرة وأعادها إلى الأمّة ملكا عاما لها،[3] وقد بلغ به الإصلاح إلى تخصيص المكافآت لمن يسعى إلى ما يصلح أمور المسلمين في دينهم أو دنياهم.

ولم تتحقّق هذه الأعمال الكبيرة، وتنجح الإصلاحات في عهد عمر إلاّ لعلو همته، وتمام استعداده، وإدراكه، وكذلك النظر وسداد الفكر، وعبقرية الشخصية الفذّة التي غمرها الإيمان فحولها إلى أعلى مراتب التزكية، وكان بأفعاله صانعا للتّاريخ، موجّها لأحداثه في عصره، وهو الّذي قلب موازين الحكم الملكي الأموّي إلى حكم راشد يشبه ما كان عليه الصحابة – رضوان الله عليهم–وإن كان هناك فرق بينهما، وربما يمنع عمر بن عبد العزيز من أن يكون خامس الخلفاء الرّاشدين بسبب انتقال الحكم إليه بالوراثة وليس بالشورى، أما ما عدا هذه النقطة فإنّه بسلوكه وتعامله، وزهده وورعه يستحق وبامتياز أن يكون خامس الخلفاء الراشدين، وهو الذي أحيا السنة، وحارب البدعة وأشاع العدل، ثمّ إنّه كان أحرص النّاس على الشّرع، وعلى تحكيمه في الحياة، وكما ذكرت من قبل أنّها نقطة ترقّب وانتظار لتعثر حياة تحكمها الشريعة، وإفلاس نظام ضيق نطاق الضّرائب والخراج، وأعفى كثيرين منه عند قلّة محاصيلهم، ورفع المكس، والعشور وأجرى أموال المسلمين في حوائجهم وضروراتهم، وكانت النتائج عكس التوقعات فكثر الخير، وعمّ الرخاء، وانحصر الفقر حتّى لم بعد أصحاب الأموال يجدون فقراء، أو محتاجين يعطوهم إياها.

كان يقين عمر بن عبد العزيز راسخا بأنّه لا خير للإنسان في غير شريعة الإسلام، ولا حياة إلاّ به، وعند التّطبيق تحقّق هذا اليقين، ووصل هذا الحاكم الزاهد العالم، العامل إلى خير الدين والدنيا والآخرة، ليثبت للإنسان أن الفساد طبع لا بدّ من الخروج منه إلى العمل الصالح، وتعمير الأرض بالخير والحقّ، وأن تغيير ما بالنفس يؤدي بالضرورة إلى تغيير الحال، ولا يشترط في تغيير ما بالنفس أن يؤدي بالضرورة إلى تغيير الحال، ولا يشترط في التغيير أن يكون من الأمّة كلّها، بل ها هو يتحقق بفرد واحد كما كان يتحقق

---

[1] سورة الحج، الآية: (41).

[2] أبو الحسن على الحسني النّدوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص 122.

[3] المرجع نفسه، ص 122.

الإصلاح بجهود الأنبياء وهم أفراد، يقودون بصلاحهم ثورات الإنسان على الانحراف، وعلى الظلم والجور، والعودة به إلى ما يحقق إنسانيته ببعدها الفردي والاجتماعي، والقيمي.

وكذلك جعلنا نستنتج أن قياس الزمن الحقيقي، والفعلي ليس بالأيام والأشهر، بل ما يقدم خلال هذا الزمن من سعي، وجهد وما يتحقق من نتائج، ومثال بسيط سيوضّح ما أريد الوصول إليه، هو الإنسان نفسه في صورتين، الأولى عندما يكون مستعجلا على شيء، ويبقى يتنظر يطول عليه الانتظار في مدّة ساعة مثلا؛ حيث تصبح عنده بمقدار مائة ساعة، والصورة الثانية لإنسان كثير المشاغل فنجده لا يحس بالزمن إلا وهو يجري، مع أن الزمن هو الزمن ويسميه علماء النفس بالزمن النفسي، وعمر بن الخطاب ﷺ قضى في الحكم ثلاثين شهرا فقط، تحقق فيها من العدل والرّخاء والأمن ما لم يتحقق في ثلاثين عاما أو أكثر، وهي الفعالية الّتي لا تقاس بالزمن ولا بالأدوات، إنّما تقاس بالإنسان ومقدار تأثيره في الأحداث، وتوجيهه للزمن، وإنجازاته خلاله.

كما جعلنا نتستنتج أيضا أنّ السياسة فنّ، وقدرة على التحكّم في النّفس أوّلا، ثمّ في الرعية والعمال ثانيا، بالرفق والحقّ لا بالسوط والترهيب، وأنّ العنف لم ينجح في أيّ مجال من مجالات الحياة، وهو لا يجتمع مع الرفق والعدل، بل يؤدي إلى الجور والظّلم، ويجعل الأمور تفلت من يد الحاكم بتسارع لا يستطيع معه استجماع قواه واتخاذ القرارات المناسبة، بينما الحكمة والرحمة تؤلف القلوب، وتنشر المودة والاطمئنان بين النّاس ممّا يساعد على النّجاح في الإدارة والحكم.

وأرى مقولة «الناس على دين ملوكهم» فعلا تحققت في التّاريخ، والرّعية لا بدّ لها من راع يكون قدوة صالحة لا يأمرهم بشيء حتّى يحققه في نفسه، ولا ينهاهم عن آخر حتّى يكون أبعد النّاس عنه، وهو السّبيل الوحيد للنّجاح، خاصّة وأحكام الإسلام وتشريعاته لم تأت لطبقة دون أخرى، أو لفرد دون أخر، أو للرعية دون الحكّام، بل إنّ سرّ صلاحها، واستمرارها، وخيريتها هو علوّها على الجميع، وانعدام الاستثناء والمحاباة فيها.

ويعلّمنا عمر بن عبد العزيز أنّ للزّهد حلاوة يحرم منها الأشقياء أنفسهم، وهو عارف حقيقة الزّهد، والّتي لا تعني الخلوة والبعد عن الخلق، بل تعني الخلوة والبعد عن المعاصي والذنوب والآثام، وأنّها تبعث في النفس حلاوة الطّاعة والتّرقي في درجات الكمال، وهو الّذي عاش الترف والتنعم في أعلى صوّره، وعاش الزّهد في مراتب كماله، والإنسان في التّرف ميّت الإحساس، عديم البصيرة غارق في تدسية نفسه، أما في الزّهد فإنّه مرهف الإحساس شديد الخوف والمراقبة لله يسعى إلى تزكية نفسه، والارتفاع بها في كمالات الإنسانية، ويرى بنور الله، وهو إلى الحق دائم النّزوع.

كما أنّ تجربة عمر تدلّ الإنسان على إمكانية التّغيير في كل زمان، وأنّ النّجاح مشروط بتغيير ما بالنّفس من أفكار وميول وأخلاق، وأنّ الأمّة تحتاج إلى هذا التغيير ليغير الله تعالى أحوالها، وأنّ الفساد مهما طال عمره آيل إلى الزوال لما تتوفر الأسباب، وأنّ الحق ظاهر على الباطل، ليس بذاته ولا بخوارق بل بتحقق عوامله، بسعي الإنسان وإخلاصه.

وإنّ من نذر نفسه لله تعالى، واستمد العون منه، وسعى بكل جهد إلى تحقيق ما يؤمن به، لا بدّ يوما من أن تظهر الثمار الطيبة لسعيه على قدر ما انطلق به من يقين وإخلاص وسعي.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: الحركة السنوسية.

تمهيد:

إنّ الفاعليّة التي دارت حولها فصول البحث الأولى، هي غاية المصلحين وعامل من عوامل النهوض بالأمّة الإسلامية، والحاضر المرير الذي نعيشه، ونعايش فيه ما عليه الأمّة من ضعف، وتمزق، وتغييب لمعاملها الحضارية، والسّعي إلى زيادة تفتتها، وتفسخ الأفراد فيها وغياب تأثير الوحي فيهم لأسباب كثيرة تتنوع بين أسباب داخلية من ضياع الأمّة من نفسها يوم ضيعت الرشد ولم تستعده بعد ذلك، إلى غياب القدرات بكل أنواعها والتي لو وجدت لساعدت على التمكين لها، ومكّنتها من محاولة الإقلاع الحضاري من جديد. والحاضر بكل مرارته.لا بد أن يكون باعثا للجهود والنيات المخلصة والإرادات الجادة على ضرورة الوقوف على الماضي، والأخذ من أمجاده الدّفاعية والأمل في عودة الأمة إلى مكانتها، واسترجاع شهودها وهيبتها، ومن كبواتها عبرا ودروسا لابد من فهمها واستيعابها، للفعل في المستقبل بإحياء وبعث الأمجاد الضائعة، واستخراج الدروس والسنن من التاريخ لتكون معالم طريق التحضر المنشود وتحقيق الفاعليّة المطلوبة، وما زلنا.

1. مؤسسها:

هو الشيخ محمد بن علي بن السنوسي بن العربي بن عبد القادر بن شهيدة بن حم بن يوسف بن عبد الله بن خطاب بن علي بن يحي بن راشد بن أحمد المرابط بن منداس بن عبد القوي بن عبد الرحمن بن يوسف بن زيان بن زين العابدين بن يوسف بن حسن بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن سعيد بن يعقوب بن داود بن حمزة بن علي بن عمران بن إدريس بن إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب الهاشمي القريشي.[1]

ولد سنة *1202* هـ صبيحة يوم الاثنين *12* من ربيع الأول عند طلوع الفجر مما جعله والده يسميه «محمدا»، ولد بمنطقة «ميثا» بواد الشلف التابعة لبلدة مستغانم في الجزائر.

وبعد وفاة والده تولت عمته فاطمة تربيته وتنشئته وكانت من فضليات أهل زمانها لما كانت تتوفر عليه من سعة وتبحر في العلوم وما كانت تمارسه من وعظ وتدريس و كان يحضر دروسها الرجال ،وقد عظم اهتمامها بابن أخيها لما أظهره من حب لتحصيل العلوم، ونبوغ ظهرت علامات مبكرة عليه، وقد تتلمذ في

[1] محمّد علي الصلابي، تاريخ الحركة السنوسيّة في شمال إفريقيا، ط*4*، (*1432* هـ - *2011*م)، دار المعرفة، بيروت – لبنان، ص *21*.

بداياته على يد شيخه محمد قعمش الطهراوي زوج عمته الذي أخذ عنه القرآن الكريم مع القراءات السبع ولما توفيت عمته في الطاعون عام *1209* هـ أكمل تعليمه ابن عمه الشيخ محمد السنوسي، وعمره لم يتجاوز السابعة، وبعد أن أتم له ما يلزمه من لوازم حفظ القران وإتقانه، وتمام حفظه، شرع في تعليمه العلوم العربية ثم الدينية، وكان في خلال ذلك يدربه على العمل بما تعلم مما كان له دور كبير في تكوين شخصيته الفذة، وبعد وفاة ابن عمه عام *1219*هـ قصد شيوخ مستغانم لاخد العلم عنهم وكانوا من جهابذة العلماء في زمانهم لمدة سنتين، ومنهم: محي الدين بن شلهبة، ومحمد بن أبي زوينة، وعبد القادر بن عمور، محمد القندوز، محمد بن عبد الله، أحمد الطبولي الطرابلسي وغيرهم.

ثم خرج من مستغانم إلى مازونا و أخد من علمائها، ثم إلى تلمسان وتتلمذ على كبار علمائها.[1]

ورغم صغر سنه إلاّ أنه كان في هذه الفترة يحب العزلة ويمضي وقتا طويلا في التفكير العميق، وتأمل حال الأمّة وما وصلت إليه من ضعف وضياع، باحثا عن عوامل النهوض، ووسائل توحيد الأمّة وبعث الدين الإسلامي وإحيائه في النفوس وفي الحياة .

وقد أحسن تصوير حال الأمة الإسلامية حين سئل عن سبب شروده ذات يوم فقال بأنّه: «يفكر في حال العالم الإسلامي الّذي لا يعدو كونه قطيعا من الغنم لا راعي له على الرغم من وجود سلاطينه وأمرائه و مشايخ طرقه».[2]

ويواصل تصوره للأسباب ذلك فيقول: «والسبب في هذا انعدام الغيرة الدينية لدى العلماء والشيوخ، وانصرافهم إلى الخلافات القائمة بينهم... فأصبحوا لا يعنون بنشر العلم والمعرفة ولا يعملون بأوامر الدين الحنيف».[3] ويصفهم بالخمول والقعود عن الواجب التبليغي العملي لتغير هذا الحال فيقول: «ما زالوا يفضلون القبوع في كلّ مسجد من مساجد المعمورة غير عاملين بعملهم، لا هم لهم إلاّ راحة أجسامهم، حرصين على لذاتهم غير قائمين بواجبات مراكزهم، لا ضمائر لهم تؤنبهم على إهمالهم إرشاد هؤلاء المساكين الوثنين»،[4] و يقصد بهم شعوب الصحراء من إفريقية الغربية على حدود السودان وليبيا والّذين مازالوا على وثنيتهم.

وتظهر هنا النّزعة الإصلاحيّة فيه منذ صغره.

---

[1] محمّد علي الصلابي، تاريخ الحركة السنوسيّة في شمال إفريقيا, ص21-22.

[2] المرجع نفسه, ص 22.

[3] المرجع نفسه، ص 22.

[4] المرجع نفسه، ص 23.

2.1. رحلاته في طلب العلم:

بعد أخذ العلم من علماء ومشايخ بلاده شد الرحال إلى المغرب الأقصى ليمكث في مدينة فاس سبع سنوات أخذ خلالها العلم عن أفاضل علمائها مثل: حمودة بن حاج، حمدون عبد, الرحمن، الطيب الكيراني، محمد بن عامر المعواني، وأبي بكر الإدريسي، ومحمد بن منصور، وإدريس بن زيان العراقي، ومحمد بن عمرو الزروالي، ومحمد البازعي والعربي بن أحمد الدرقاوي وهو من شيوخ الطريقة الشاذلية والذي دفعه الأخذ عنه إلى التبحر في معرفة الطرق الصوفية، دون إهمال جانب التفقه في الدين.

ويظهر لنا بجلاء أثر هذا التتلمذ في توسع علم بن السنوسي وتنوع مصادره الّتي أخذ عنها والتي تركت بصماتها واضحة في تكوين عالم جليل، شديد الهيبة، بعيد الهمة كما وصف، مما جمع الناس حوله خاصة لما أصبح مدرسا بالجامع الكبير بمدينة فاس ثم نيله المشيخة الكبرى بها، ثم ماكان يتمتع به من سداد فكر، وعقل ناضج إضافة إلى الصلاح والتقوى، وبعد العراقيل التي بدأت توضع في طريقه من طرف حكومة السلطان سليمان خوفا من نفوذه المتزايد رأى أن يرتحل عن فاس بعد أن نهل كثيرا من العلوم الشرعية والكونية مثل الرياضيات، الهيئة والطبيعة وعلم الأحكام والنسب، ودرّسها لكثير من طلابه ومريديه وبعد أن كوّن طريقة خاصة به عرفت باسمه، وكتب كتابه: «السلسبيل المعين في الطرائق الأربعين» وقد كان تعامله مع الصوفيّة تعامل العارف العاقل لم يرفضها كلّها ولم يقبلها كلها، بل قيد قبولها بالكتاب والسّنة.

وكذلك كانت أهم أسباب تركه لفاس، كثرة الفتن، وما تبعها من فوضى حتى وصلت إلى خروج أهلها عن السلطان، وما تبعها من تجاوزات منها سجن شيخه محمد العربي الدّرقاوي.[1]

وفي طريق الرحلة إلى المشرق مر ببلده الجزائر واستقر فيها مدة من الزمن، وقد استقر في الأغواط التي كانت ملتقى للقوافل الآتية من السودان الغربي وكان يلقي دروسا في الفقه وعلوم الشرعية، ثم ارتحل منها إلى «مسعد» ثم «الجلفة»، ليقصد بعدها مدن السودان المختلفة، ويعمل بها داعيا الى الله لأنه كان يرى الدعوة من عوامل النهوض بالأمة، ثم إن العالم الحقيقي من يفيد الناس بعلمه، فلا يكفي أن يكون في نفسه صالحا مهتديا، بل يجب أن يكون مصلحا هاديا صاحب رسالة و دعوة يرى أن شرفه منوط بأدائها وبقي في السودان ينتقل بين بواديها وزواياها لمدة سنتين وجد فيها من صفاء الفطرة وجمال الخلق، وحب التدين والبعد عن الفساد وتعقيد الحياة، وغلبة الأهواء السياسية التي تسيطر على المدن. وبعد أن تزوج إحدى بنات عمومته ارتحل إلى مكة قاصدا حج بيت الله الحرام، ومر بطريقه إليها من الجزائر إلى تونس وجامع الزيتونة، ثم طرابلس وبرقة، واجذابية وأوجلة ثم وصل ترحاله حتى وصل القاهرة، في خلال سيره كان يقيم علاقات

[1] محمّد علي الصلابي، تاريخ الحركة السنوسيّة في شمال إفريقيا، ص 28.

تعارف كثيرة ووطيدة، ثم وصل إلى مكة وبعد الاستقرار بها أخد عن الأساتذة الوهابيين، مما أوقد في نفسه روح الإصلاح وبدأ بالفعل بتطبيق ذلك،[1] وأنشأ أول زاوية له في الحجاز وباشر الدعوة بها وهي زاوية «أبي قيس» وقد استقر في الحجاز ثلاثين سنة، تلقى فيها مختلف العلوم وعرف الكثير[2] من الطرق الصوفية واطّلع عن كثب على دعوة محمد بن عبد الوهاب، وكثر حوله المريدون لاحتكاكه بالحجيج وبالكثير من المسلمين مما ساعده على اختيار مساعدين له منهم، واستقر اختياره على نظام الزّوايا في الانطلاق بدعوته إلى الله ووسيلة لنشر تعاليمه وأفكاره، وقد لاقى معارضة من شيوخ مكة وعلمائها، والسلطات الحكومية بدأت تتضايق منه لشعورها بخطره نظرا للتزايد المستمر لمريديه وأتباعه دون أن ننسى العداء القائم بينهم وبين الحركة السلفيّة، واعتباره من المؤيدين لها، ما ضيق عليه الخناق وجعله يفكر في الانتقال بدعوته إلى مكان آخر وعاد قافلا إلى الجزائر لكن قبل ذلك مر بالمدينة المنورة للوداع، ومرض بها ثم سقي حليبا به سم كاد يموت على إثره لكنه شفي، ورجع إلى بلده لمحاربة المستعمر الفرنسي وقد توقف في تونس لما سمع برصد العيون الاستعمارية لتحركاته، وعاد منها إلى طرابلس وتبنى دعم حركة الجهاد في الجزائر بالأموال والأسلحة وكان دعمه معلوما لدى الفرنسيين إلى درجة قول دوفر بيه: «إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت ضد فرنسا في الجزائر، وأنها السبب في الثورات المختلفة التي قامت ضد فرنسا كثورة محمد بن عبد الله في تلمسان، وصحراء الجزائر سنة *1848 -1861* وعصيان محمد بن تكوك في الظهرا عام *1881*م.[3]

وبعد عودته إلى طرابلس ابتنى له زاوية على جبل بالقرب من «أدرنا» عرفت بـ«الزاوية البيضاء» وكثر مريدوه مما أقلق السلطات التركية فساءت العلاقات معها مما أضطره إلى الانتقال إلى «واحة جغبوب» في صحراء ليبيا إلى الجنوب، وتوسع نشاطه هناك حتى توفي عام *1759* بعد أن انتشرت الطريقة التي أنشأها انتشارا واسعا في الشمال الإفريقي.

2.1. منهجية التنظيمي:

إنّ الطّرق الدينية ليست وليدة عصر من العصور الحديثة بل هي وليدة قرون وقد صنفت ضمن الطرق التقليدية كلها والتي تنشئ الزوايا، وعلى رأس كل زاوية ما يعرف بـ: «المقدم» وهو ذو سلطة كبيرة على كل إخوان الزاوية، وكانت منصرفة إلى شؤون الدين منقطعة للعبادة، ولا شأن لها بأمور الدنيا، وكان الإخوان داخلها حلقات على رأس كل واحدة رئيس يعرف بـ(الدرويش) ولما كانت بعيدة عن الحياة والسياسة

---

[1] محمّد علي الصلابي، تاريخ الحركة السنوسيّة في شمال إفريقيا، ص *28*.

[2] شكيب أرسلان, حاضر العالم الإسلامي, ط *1*، *1494* هـ -*1973*م، دار الفكر للطباعة والنّشر، بيروت، المجلّد (*1*، *2*)، ص *295*.

[3] محمّد علي الصلابي، تاريخ الحركة السنوسيّة في شمال إفريقيا, ص *41*.

لم يكن لها شأن يذكر، كما أنها كانت غارقة في التباغض والتعادي بينها، ولا سبيل إلى توحيد جهودها للعمل صوب هدف واحد هو خدمة الأمة وبعث مجدها وحضارتها من جديد. [1]

وفي منتصف القرن التاسع عشر تغير النظام القديم بآخر أظهر إسهام الطرق الحديثة في الحياة على جميع مستوياتها، وانصرفت جهود منشئيها إلى حمل همّ الأمّة ومحاولة النهوض بها، والطريقة السنوسية أولها حيث اتخذها صاحبها منطلقا الى الدعوة إلى الله ﷻ، وتنقية العقيدة من الخرافات والبدع، والعودة بها إلى منبعها الصافي وهو القرآن والسنة، وتفعيلهما في حياة الأمة واتخذها منبرا للعمل بالعلم واشتغل لتطوير الحياة والخروج من الجمود والتخلف ويتمثل منهاجها في الناحية الحركية التي تشمل النواحي الآتية:

3.1. المنهج الحركي:

ويشمل الجانب الإداري والتربوي والدعوي والارتفاقي (التعميري) والتكافلي.

أ–الجانب الإداري:

إنّ ما يميز الزاوية السنوسية هو كونها مؤسسة تنظيمية متكاملة: حيث نجد لها «قيّما» عليها يتولى تسيير أمورها، وله السلطة على أهل الزواية. جميعا ويمارس فيها صلاحيات الحاكم المدني، فيفصل في الخصومات، ويتولى تبليغ الأوامر الصادرة عن السيد السنوسي، ويليه وكيل الدخل حيث يتولى الأمور الاقتصادية، وهناك الشيخ الذي يتولى إقامة الصلاة في مسجد الزاوية، ويتولى التعليم فيها، وإبرام عقود النكاح وأمور الجنائز.

ونلاحظ أن هذا التنظيم الذي أسسه ابن السنوسي تنظيم هرمي نابع من عقلية تنظيمية جعلت شيخ الطريقة هو الرئيس الأعلى للزاوية ولكل زاوية مجلس إخوان مهمته شورية، وهي مهمة خالف فيها ابن السنوسي كلا من الطرق الصوفية القديمة والتي لا تعترف بالشورى بل بالطاعة والولاء التام، والحركة السلفية التي لا تعرف بالشورى إلاّ بين أهل الدعوة وأهل الحكم للنظر في شؤون الحركة أوّلا ثم في شؤون الدولة بعد ذلك، أما الحركة السنوسية فقد كان التشاور فيها منحى عاما لا تتعداه أي زاوية، وهذا المجلس يقوم بتعيين شيوخ الزوايا، وبعدهم الإخوان ومهمتهم كسب أعضاء جدد للحركة وفي آ خر عهد بن سنوسي مثلت زاوية الجغبوب عاصمة الحركة. [2]

والزاوية تتوزع بين زوايا رئيسية كزاوية جغبوب وزوايا أخرى تابعة لها تكون تحت إشرافها.

---

[1] شكيب أرسلان, حاضر العالم الإسلامي, ط 1، 1494 هـ –1973م، ص 295.

[2] محمد علي الصلابي, تاريخ الحركة السنوسية في شمال إفريقيا, ص 81.

ورغم عدد الزوايا السنوسية والّتي فاقت *120* زاوية، يقول لاو ثروب: «وقد قيدت في دفتر عندي يحتوي معلومات كثيرة على برقة، أسماء نحو *120* زاوية سنوسية في تلك الديار وما جاورها إلى السودان، وليس ذلك العدد هو كل ما عندهم من الزوايا»[1]، إلاّ أنّ ابن السنوسي استطاع بعبقريّته التنظيمية أن يربط بين جميع الزوايا برباط متين، يضمن الانضباط ووصول الأخبار أوّلا بأوّل من المناطق البعيدة، كزوايا الحجاز ومصر والسودان واليمن والمغرب الجزائر وتونس إلى بلده في زاوية جغبوب وبسرعة كبيرة.

وما ساعد ابن سنوسي على نجاحه في ذلك، عقليته التنظيمية أوّلا، ثم استفادته من الأحداث من حوله، وجعل الزوايا مراكز حيّة تسري منها الحياة إلى جسد الأمّة باعتبارها مراكز تنمية وتوجيه وتهذيب وتعلم وتمجيد العمل، وتوجيه القدرات توجيها سديدا، ثم أن ابن السنوسي قد استفاد كثيرا من سنة الأخذ بالأسباب، وقناعته في أن العمل هو السبيل الوحيد إلى النهوض، وحسن فهم التوكل على أنّه أخذ بالأسباب المادية المتاحة مع الاعتماد على الله في التوفيق والسداد والنجاح، وتنزيل هذا الفهم على أرض الواقع.

ويبدو بعده التنظيمي في حسن التخطيط واختيار أماكن بناء الزوايا وتعويد الناس على العمل، واستصلاح الأراضي حول الزوايا حتى تصبح جنة في وسط الصحراء تؤتي أكلها بإذن ربّها من كل الخيرات والنعم.

وهذه المواقع الاستراتيجية ميزت الزوايا بصفات سياسية وتجارية وعسكرية، لتحقيق أهدافها التربوية والاجتماعية والسيسية، قال ابن السنوسي في رسالة وجهها إلى مصطفى باشا حاكم فزان عند بناء زاوية هناك فقال: «إن الزاوية في الحقيقة إنّما هي بيت من بيوت الله ومسجد من مساجده، والزاوية إذا حلت بمحل نزلت فيه الرحمة وتعمر بها البلاد ويحصل بها النفع للأهل الحاضر والبادية و لأنّها ما أسست إلا لقراءة القرآن، ولنشر شريعة أفضل ولد عدنان».[2]

كما أنّ أثر الزاوية كان ممتد الأطراف، ظاهر في كل المناسبات والظروف، وقد ثبت أنّها شاركت في الفصل في نزاعات كبيرة! فذلك دليل على أهميتها وفعاليتها العالية، وقد يسال سائل عن أراضيها التي تمتلكها وهي موقوفة عليها لا تباع ولا تشترى، وقد آلت إليها عن طريق الوقف والهبّة، إذْ كان الناس لما وقفوا على دورها الواسع في المجتمع في كل الأبعاد، لم يتوانوا في التبرع والوقوف لأجلها، كما أنّ شطرا من أراضيها كان يؤول إليها بعد استصلاحه وقد كان بورا.

وكذلك الأمر في مواردها فإنها تتكون في عائدات الأعمال المختلفة، كالزراعة وتربية المواشي، وعائدات الزكاة، والهيئات الخيرية.[3]

---

[1] شكيب ارسلان، حاضر العالم الاسلامي، ص 298.

[2] محمد علي الصلابي, تاريخ الحركة السنوسية في شمال إفريقيا, ص *83*.

[3] المرجع نفسه، ص *88*.

ولا تفوتني الإشارة إلى أن الزاوية كانت تلتزم بتعليمات وعادات وأعراف التزاما تاما، والملفت أن هذه التعليمات تسري على شيخ الزاوية كما تسري على باقي أفرادها، وهو اكبر عامل لجعل أي قانون فاعل وقابل للتطبيق وأداء دوره مادام الجميع ملتزم به. وكمثال على ذلك أن شيخ الزاوية لا يتزوج إلاّ بعد استشاره رئيس النظام وأخذ موافقته، وتلتزم الزاوية بنفقات هذا الزواج، والإنفاق على الزوجة وأولادها، فإن عاود الزواج مرة ثانية فيكون الإنفاق على حسابه الخاص. كذلك تحديد ما يأخذه شيخ الزاوية سنويا يكون محددا بدقة، ولا حق له في غيره، وهي تعليمات تضبط العلاقات على وجه من العدالة وعدم التمييز، فمن تعليماتها، أنه للعمال وخدم الزاوية الحق في أكل اللحم كل يوم جمعة من الأسبوع، وأن أقارب شيخ الزاوية لا حق لهم في النفقات من الزاوية بل واجب ذلك يقع على شيخها من عمله في الزراعة أو تربية المواشي أو غيرها، وهو الانضباط الذي أضيفه إلى أسباب نجاح ابن السنوسي في تغيير ملامح الزوايا، وتفعيل دورها في المجتمع والذي خالف به ما كانت الزوايا القديمة تبثه من جمود واتكالية، واستفادة القائمين عليها من الكثير من الامتيازات، والنجاح لا يأتي دون تحقق أسبابه وابن السنوسي يحقق هذه الأسباب، ويحرز هذه النجاحات الباهرة، والانتشار الواسع لزواياه من المغرب إلى الحجاز مرورا بالنصف الشمالي للقارة الإفريقية.

ونمر إلى سبب اختيار ابن السنوسي للصحارى والبوادي بدل الحضائر، وهو ميزة ربما انفرد بها عن غيره لبعد نظره وعمق تفكيره لأسباب منها، العمل بحرية بعيدا عن السلطات العثمانية التي كانت تتضايق أكثر فأكثر من توسع وانتشار هذه الزوايا وكذلك التنازع، كما انه كان يختار طرق التجارة التي تربط الجزائر بليبيا والتشاد وبرقة ومصر والحجاز، دون أن ننسى دافعة الإصلاح والذي دفعه لاختيار البوادي لكونها تربة خصبة لنجاح دعوته، والتفاف الناس وما كانوا عليه من شظف عيش، وحاجة، فيحيل قفارهم إلى قطب حقيقي من الناحية العلمية والاقتصادية والاجتماعية بما ينشره من حب العمل ودعوة إلى صلاح الدنيا والآخرة، وسعي إلى نشر مكارم الأخلاق والصلاح في كل مكان، وكمثال على حنكته وبعد تخطيطه أن زاوية الجغبوب لما قصدها كانت وكرا للصوص وقطاع الطرق والدعارة ومنطقة محرمة على القوافل والآمنين لكن لما استقر بها حولها إلى مهد امن وطريق سلامة، ومركز عبادة، حيث بنى فيها زاويته الكبرى، وغرس حولها الأشجار حتى الغريبة عن المنطقة، ونسق بها العمران، واستنبط العيون، وأسس بها مدرسة لتكون معلم الهداية، وخرج منها مريدي الطريقة السنوسية، وأسند مهمة التدريس فيها لكبار العلماء.

ب- الجانب التربوي:

لقد استطاع ابن السنوسي أن يرسي أساس نظام تربوي متكامل يسعي من خلاله إلى بناء الشخصية الإسلامية ضمن تشكيل اجتماعي تربوي ذا صلة بالعقيدة والفقه والتصوف، داعيا إلى إعداد القوة والتأهب

الدائم لرد أي خطر كان، مما مكنه من بناء جيل من الإتباع قادر على نشر الإسلام بمفهومه الصحيح في أنحاء إفريقيا. [1]

ولقد استمد منهجه من القرآن والسنة، ومن خلاصة معرفته بالطرق الصوفية الذي درس معظمها، واستفاد من محاسنها، وانتقد أخطاءها واستفاد منها أيضا، وتمكن بذلك من تحديد معالم طريقته الخاصة به والمتقيد بالكتاب والسنة، وقد ربى مريديه على جملة من الضوابط يتدرجون فيها للارتفاع في مراتب السلوك وأهمها:

المرتبة الأولى التي يتعين عن المريد الرجوع بعقيدته إلى السلف الصالح، وسلوك منحى التأصيل للوصول إلى التوحيد الخالص للمولى عز و جل في ربوبيته أو ألوهيته أو أسماءه وصفاته، على أن ينحو بهذا العلم منحى عملي فيكون التوحيد ميزانا يزن به كل أعماله وتصرفاته وبعدا يسعى إلى بلوغه برياضته الروحية، وصلته بالقرآن الكريم والسنة النبوية، دون إهمال جانب من جوانب التوحيد لأن الناس قد يلتبس عليهم توحيد الربوبية في أمور الرزق والتدبير وغيرها فكان لابد تنقية كلّ جوانب التّوحيد والعودة بها إلى الوضوح التام، وكذلك الحال مع الجانبين المتبقيين وعلى هذا تتخلص العقيدة عندهم من كل شائبة قد تشوش على صاحبها النقاء المطلوب فيها.

أما الخطوة الثانية فتتمثل في التزام المريد بالعلم أي أن لا يقدم على فعل شيء حتى يعلم حكم الله فيه، مما جعل المريدين في الزاوية السنوسية يعكفون على رسالة أبي زيد القيرواني في العقيدة والفقه المالكي إلى جانب بعض كتب الحديث كالصحاح والموطأ، وبعض الكتب الجامعة في الآداب ليستفيد منها الطالب في الأحكام والسلوك.

أما الخطوة الثالثة التي يتوجه بها المريد إلى نفسه، محاولا تزكيتها وتصفية قلبه، وتهذيب أخلاقه مما يضمن له تنقية سريرته، والتزكية باب واسع وولوجه صعب، وموانعها قوية بحيث لا ينجح العبد في تزكية نفسه إلا بعون الله والاعتماد عليه فيما لقوله ﷻ: ﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ احَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾،[2] ولتزكية النفس لابد من تعلم العفو والصفع لما فيه ترفع للنفس وسموها نحو صفات الغفور الرحيم. وكذالك تعلم عدم محبة شيوع الفاحشة في الذين آمنوا، وعدم الخوض فيها من قريب أو بعيد. ثم إمساك اللسان عن الأعراض وترك الخلق للخالق، يحاسبهم أو يسترهم وهو شأنه وحده، لإفساح المجال لمحاسبة النّفس وإحصاء عيوبها وزلاتها. والخطوة التي تليها: وجوب التعامل بالحلال والابتعاد عن الحرام وربطه بسائر القربات والفرائض، كالصلاة والصوم والزكاة و الحج، والصدقة وغير ذلك،

[1] محمد علي الصلابي, تاريخ الحركة السنوسية في شمال إفريقيا, ص 98.

[2] سورة النّور، الآية: (21).

دون الانقطاع عن أحاديث الترغيب والترهيب لما لها من أثر في تزكية النفوس، وإحياء القلوب، وكذلك الرجوع الدائم إلى سيّر وتراجم الصالحين.

ولعل من أهم ما في هذه الخطوة المداومة على الذكر والدعاء، والإكثار من الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسارعة إلى الخيرات كلها.

ج. نقد ابن السنوسي لأخطاء بعض الصوفية:

لقد سجل التاريخ ما وقع من الطرق الصوفية من انحرافات، قلت أو كثرت وقد تعرض ابن السنوسي لبعضها بالنقد لتوضيح الأخطاء والانحرافات ففي ذكره للطريقة الصديقية يقول: «دخل الغلط في الأخلاق على جماعة من هذه الطائفة، وذلك من قلة معرفتهم بالأحوال واتّباعهم حظوظ النفس ولكنهم لم يتأدبوا بمن يروضهم ويخرجهم من الرعونات ويجرعهم المرارات ويدلهم على المناهج الرضية في علاج عيوب النفس وطريق دوائها، فمثلهم كمثل من يدخل بيتا مظلما بلا سراج إلا من أراد الله هدايته بجذب عنايته ، فالله هو الولي الحميد».[1]

كما نجده ينتقد دخلاء الصوفية وخاصة تبجحهم ومغالاة متورعيهم من الأخلاق التي لا تليق مع التواضع والزهد، كالإعجاب بالنفس والعمل والتمدّح، بما خصوا به من ينابيع التأييد والإمداد، ناهيك عن الكرامات والنظرة الدونية للغير وغيرها من الأخلاق التي لا يتمتع بها المتدين البسيط، ولم يقف عند النقد بل تعداه الى التصويب، وتصحيح مفاهيم الإسلام، وبيان حقيقة كثير من الأمور التي يقوم عليها، كالعبادة التي وضحها بمفهومها الشامل الواسع الذي يستغرق الحياة كلها، ويشمل الأعمال النافعة كلها، وجعل من السنن الحميدة المعمول بها في الزاوية السنوسية تخصيص يوم الخميس من كل أسبوع للأعمال والحرف اليدوية بمختلف أنواعها والتي تحل محل الدرس في هذا اليوم، إذ يقول ابن السنوسي لطلابه ومريديه: «يكفيكم من الدين حسن النية والقيام بالفرائض الشرعية، وليس غيركم بالفضل منكم»،[2] والّذي يشد الانتباه ويؤكد مستوى فعالية الرجل، ونضجه أنه كان يدمج نفسه بين أهل الحرف ويقول وهو يشتغل: «يظن أهل الوريقات والسبيحات أنّهم يسبقوننا عند الله، والله ما يسبقوننا».[3] ولا أدلّ على مفهومه العميق والواسع للعبادة من قوله: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصوم والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود،

---

[1] أحمد الدجاني, الحركة السنوسيّة نشأتها ونموّها, ط1، 1967م، دار الفكر، لبنان، ص 143.

[2] المرجع نفسه، ص 193.

[3] محمد علي الصلابي, تاريخ الحركة السنوسية في شمال إفريقيا, ص 111.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار.. وأمثال ذلك من العبادة».[1] كما حاول تصحيح مفهوم التوكل والذي أدى مفهومه المنحرف إلى عطالة الأمّة، وقعودها عن السعي والاجتهاد فقد كان يحب للمسلم أن يعيش من عمل يده و عرق جبينه ليحيا على التعفف، وإنّ مفهوم التوكل هو الأخذ بالأسباب ومباشرتها مع تفويض الأمر لله ﷻ، وإنّ ما هو شائع بين المسلمين هو التواكل المذموم، والّذي هو سبب من أسباب التخلف والذّل الّذي يعيشه المسلم وينعكس على أمّته، وقد كان يقول: «الذهب في الأرض فغوصوا لاستخراجه بالمحراث».[2] كما كان يقول: «الدرر في غرس الشجر او تحت ورق الشجر».[3] ولا يفوتني ذكر حكمة عظيمة قالها: «ومن مد يده متسولا قصر لسانه».[4]

أمّا الجهاد الّذي حاولت بعض الحركات الصوفية صرف الناس عنه، فقد عمل ابن السنوسي إلي تربية تلاميذه ومريديه وأتباعه على الاستعداد الكامل والدائم له، بإذكاء جذوة الجهاد في النفوس، وتدريب الصغار والكبار على تعلم فنون القتال واقتناء مختلف الأسلحة وادّخارها في أماكن خاصة ليوم الزحف، ويوم الدفاع عن الأرض وعن المقدسات والحرمات، وكان تحذيره دائم، من خطر الايطاليين والفرنسيين ووجوب الاستعداد لهم لكن بعد أن يتحقق النوع الأوّل و الأهمّ في الجهاد وهو العمل علي توحيد صفوف المسلمين وجمع كلمتهم وإصلاح أقوالهم الدينية والدنيوية وتربيتهم على العمل والشجاعة والأدب مما يعدهم إعداد جيدا ضد أي عدوان محتمل.

ج–الجانب الدعوي:

إنّ يقين ابن السنوسي في أنّ العالم الإسلامي لا يمكنه التحرر سياسيا ما لم يخرج من ربقة الجهل بدينه والتفرق الذي يمزق أوصاله، ويفرق جهود المصلحين فيه، ولن يتم خروجه من هذه المهالك إلاّ بتجديد روحاني وتهذيب للأخلاق وترقيتها في نفوس المسلمين، وتنشئتها على التربية الصحيحة والصالحة، وعلى العمل الصالح النافع في الدين والدّنيا معا، وإخراج المسلمين من هذا الفتور في العزائم، والخور والكسل الّذي طمس فيهم معالم الإسلام، وبهذه المفاهيم سارت الحركة السنوسية على جانب كبير من التؤدة نحو زيادة قوتها، واشتداد بأسها بعيدة عن المجازفة والزج بقوتها في المواجهات مع الأعداء أو مع غيرهم، يقول لوثروب: «وبينما تسير السنوسية على هذا الجد الشديد، تراها تنشر المدارس وتقيم المآوي والأكنان في جميع البلاد

---

[1] أحمد الدجاني, الحركة السنوسيّة نشأتها ونموّها, ص 193.

[2] محمد علي الصلابي, تاريخ الحركة السنوسية في شمال إفريقيا, ص 111.

[3] المرجع نفسه, ص 111.

[4] المرجع نفسه, ص 111.

الإفريقية الشمالية .. وفوق جميع هذا فإنها قد اتجهت وتغلغلت جنوبا في القارة الإفريقية مبشرة بالرسالة المحمدية، حيث هناك الملايين من الزنج الوثنيين طفقوا يقبلون أيّما إقبال على الدخول في الإسلام أفواجا»،[1] وقد زاحم جيش الدعاة المسلمين الذين خرجتهم الزوايا السنوسية، الحركات التبشيرية النصرانية، وقضوا على كل جهودها وأخرجوا الناس من النصرانية إلى الإسلام، وقد قال احد الانجليز في هذا الصدد: «إنّ الإسلام ليفوز في أوساط إفريقيا فوزا عظيما حيث الوثنية تختفي من أمامه اختفاء الظلام من قلق الصباح، وحيث الدعوة النصرانية باتت كأنها خرافة من الخرافات»،[2] وقد استطاعت أن تقود حركة للدعوة الإسلامية في مختلف أنحاء القارة الإفريقية وصولا إلى بحيرة التشاد واتخاذها مركزا للإسلام في إفريقيا الوسطى، وكذلك بلغت النيجر وغيرها من البلدان الإفريقية.

ومن مهارة ابن السنوسي في الاضطلاع بمهمة الدعوة إلى الإسلام ونشره في بلدان إفريقيا أنّ رجاله كانوا يعترضون طريق القوافل النخاسة، ويستردون الأطفال الصغار منها، ويقومون على تربيتهم وتعليمهم أصول الدّين الإسلامي وفقهه ومختلف علومه، وإن كبروا وجهزوا أعتقوا وأرجعوا إلى بلدانهم سفراء إسلاميين يدخلون مدنهم وقراهم الإسلام، وهذا يحقق قناعته بوجوب العمل وتفعيل العلم الذي يحوزه الإنسان، والقيام بواجب الدعوة المتعلق برقبة كل مسلم.

وقد اعتمد ابن السنوسي على رؤساء القبائل إذ جعل من بعضهم دعاة إلى الله بإعدادهم وتأهيلهم بطريقة غير مباشرة ليكونوا صوته إلى قبائلهم ومعاونوه في دعوة الناس إلى الإسلام وما يلقى هذا الأسلوب من نجاح واستجابة عند الناس.

وقد تنوعت أساليب بن السنوسي في الدعوة حيث إنّه كان يعتمد على كل ما يراه وسيلة نافعة تصلح للاعتماد عليها والوصول إلى إسماع صوت الإسلام في مختلف بلدان الأرض وقد كان منفردا باستعمال ذكائه الواسع في الحصول على أفضل النتائج يقول شكيب أرسلان: «انتبذ مراكز محاطة بالفيافي والقفار مأهولة بأقوام لا يزالون على الفطرة فأصبح حرا في بث دعوته لا تصل إليه يد ولا تعلو فوق كلمة كلمة وعكف على تهذيب تلك الأقوام ونشأهم في طاعة الله بعدما كانوا يتسكعون في مهامه الجهل فبدلت به الأرض غير الأرض وانقلبت به أخلاق هاتيك الأمم انقلابا حير العقول».[3]

---

[1] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي، ج (1، 2)، ص 300.

[2] المرجع نفسه، ص 301.

[3] المرجع نفسه، ص162

كما أنّ ابن السّنوسي كان يعتمد على ضرب الأمثال تأسيا بالقرآن الكريم لما فيها من فوائد في توصيل المفاهيم إلى الناس وإلى جانبها اعتمد أيضا على القصة لتنويع اسلونه وإبعاد الملل من نفوس سامعيه وبلوغ نهاياته بالوسائل المختلفة.

د-الجانب الاجتماعي:

ما كان ابن السنوسي لينجح هذا النجاح الكبير لولا دقة وعمق تحليله لحالة المسلمين، وكان هذا الاستنتاج هو الأرضية التي ارتكز عليها في الانطلاق الإصلاحي وهداية المجتمع إلى التدين الصحيح على طريقة السنة، وتنقيته من الانحرافات والبدع، مسعى أساسي في الحركة السنوسية للارتفاع بطبقات المجتمع المختلفة إلى درجة كبيرة من الفاعليّة والوعي، وقد تحقق ذلك بالفعل حيث جعل من الزاوية مصدرا للإنفاق على الفقراء والمحتاجين، والضيوف بما يقوم على كفايتهم من مؤونة الغذاء والكساء والتعليم والزواج، بحيث لا يبقى في محيطها فقير أو مسكين.

ثمّ نجده يركز على تحقيق الأخوة بين أفراد الزاوية، وبين الزوايا وأفراد القبائل لتحقيق بذلك وحدة الصف، ويقوى التلاحم بين أفراد المجتمع، لما يستقرّ في النفوس من العاطفة الصادقة والود الكبير، خاصّة إذا استقر في وعي الفرد المسلم أنّه لا يذوّق حلاوة الإيمان إلاّ بتشرب معاني الأخوة, لتحقيق الصورة لتحقيق الصورة الجميلة التي كان عليها محمّد ﷺ، وصحبه في قوله ﷻ: ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾؛.[1]

والبعد الاجتماعي في الحركة السنوسية قائم على منهج سلكه علماؤها من اجل توحيد المجتمع على كتاب الله وسنة نبيه وقد اهتم ببعد توحيد العقيدة وتنقيتها من البدع والخرافات، وكذلك بجعل مرجعية الأعمال والمناهج كلها هي المرجعية العليا وهي كتاب الله وسنة نبيه، والتي تتحقق بها أثار دنيوية كالاستخلاف والتمكين والأمن، والطمأنينة والنصر، دون أن ننسى الهداية والعزة والبركة في الأعمال والأعمار والأموال، وانتشار الفضائل، وآثار أخروية كالمغفرة، والثواب العظيم وتكفير السيئات والحياة الدائمة في النعيم المقيم، ولم يغفل ابن السنوسي عن دور صدق الانتماء إلى الإسلام والالتزام به عقيدة وشريعة ومنهاج حياة فقد كان يحرص عليه بين اتباعه، وبين كل من يبلغهم ويدعوهم، لأنّه سبب من أسباب جمع وتحقيق الوحدة المرغوبة بين أبناء الأمّة الواحدة، في مقابل التجمعات البشرية الأخرى.

[1] سورة الفتح، الآية: (29).

ولو رجعنا إلى قلب الزاوية السنوسية وجدنا في تنظيمها المحكم و رعايتها لمصالح الناس وقيامها عليهم ما يجعلها قوة اجتماعية وفكرية, وحركة إسلامية كاملة, لكونها مدرسة نموذجية لتجديد فهم الإسلام وتوحيد المجتمع وبناء شخصية المسلم على الحيوية الفكرية والعلمية التي تساعده على التمسك بالإسلام, والقدرة على إيجاد الحلول المناسبة للمشاكل المتجددة في الحياة في كل زمان.

وهي الزاوية التي كانت منطلق خطوات ابن السنوسي الإصلاحية العظيمة, وكمثال على علو همته, ونجاحه في الإصلاح في الآفاق وفي الأنفس, وإذ قبل أن يحل بمنطقة يذكر المؤرخون إنّها تكون جامعة بين الجذب والجهل, وكمثال سأذكر ما كانت عليه قبائل برقة وما كانت تتخبط فيه من بعدها عن الإسلام, الذي لم يبقى فيها إلاّ اسمه, فقد انحرفوا انحرافا خطيرا عن تعاليمه, وصلت قمتها في كون بعض القبائل من برقة اتخذت مواقع فيها لتأدية فريضة الحج بدلا من الحج إلى البيت الحرام.[1] كما ان بعضها كانت تختار في شهر رمضان ثلاثين شابا قويا, يصومون يوما واحدا, ويكونوا قد أدّوا فريضة الصوم عن المسنين, والمرضى والعجزة, وأرباب الأعمال وغيرهم من أهل القبيلة.[2] وهي أمثلة عن غياب كثير من شعائر الإسلام بين قبائلها, لكن قرار ابن سنوسي باختيارها منطقة لدعوته كان اختيارا حكيما, من رجل على معرفة واسعة بالمنطقة وبفراغها السياسي وجهلها العلمي وكونها منطقة إستراتيجية للانطلاق منها إلى أواسط إفريقيا, وفعلا خلال خمس سنوات, زكى نفوس أهلها وقوى إيمانهم ونشر العلم بينهم فأحيا به النفوس التي تخلصت من أدرانها, وانحرافاتها, وخرج منها علماء عاملون, بل وفوق ذلك اتخذها مركزا رئيسيا لدعوته وتركها بعد أن اطمأن عليها وعلى أهلها لإكمال مهامه الدعوية وتتبدى لنا هنا الفاعلية في أقصى درجات توترها وعطائها.

هـ- الجانب التعميري:

إنّ هذا الجانب من أهمّ ما تميزت به الحركة السنوسية في كونها اهتمت بإعادة المسلم إلى الحياة, وإلى ممارسة مهمته الوظيفية في الأرض بتعميرها, على خلاف الحركات الصوفية التي انزوت به إلى ترك الدنيا والاشتغال بالذكر والعبادة بمفهومها الضيق وجعلت من الزوايا خلاوي للانقطاع عن الدنيا. بينما نجد الحركة غيرت معالم الزاوية, ودورها. مغيرة بذلك حقيقة الحياة الدنيا وحقيقة العبادة وحقيقة الإنسان الذي لا يغدو إنسانا إلاّ إذا مارس خلافته في الأرض بتعميرها ونشر قيم الخير والحق فيها, فغذت الزاوية بعقلية ابن السنوسي البعملية معلما يشع بالحياة والاستقامة وقد قيل فيهم: «أينما حل السنوسية عمروا وثمروا ووجدت

[1] علي محمد الصلابي، تاريخ الحركة السنوسية في شمال إفريقيا, ص 50.

[2] المرجع نفسه، ص 50.

الأرض اهتزت وربت وانبتت من كل أنواع الفواكه والثمار وأصناف البقول والخضرة»[1]. وهذا لان ابن السنوسي كان حريصا على تربية أتباعه على تمجيد العلم والنشاط بكل أصنافه, وقد جعله مهمة أساسية من مهام الطلاب وقد كان نفسه يعمل في يوم الخميس من كل أسبوع مع كل من في الزاوية ويترك الدرس في هذا اليوم ويخرجوا للحرف والصناعات المختلفة كالحدادة والنجارة والحياكة والبناء وغيرها, وكذلك الغرس والزراعة والتنسيق البستاني وحفر الآبار واستجلاب أنواع من الأشجار والفواكه التي لم يكن أهل المنطقة يعرفونها, حتى تجد كل زاوية مكتفية وتغطي حاجات القبائل المجاورة, دون أن ننسى التجارة التي كانت لها نفس الأهمية, بدليل إقامة الزوايا على طريق القوافل ليكون لها دور في الاتجار وتكون منطقة تبادل.

وإذا نظرنا إلى طريقة تنظيم هياكل الزاوية نلاحظ هذا البعد التعميري العملي فيها, حيث يشرع أولا في بناء مسجد ثم مسكنا لشيخه, ثم تتوسع لتشمل بيوتا لوكيل الزاوية ومعلم الأطفال ومساكن للضيوف, والخدم ومخزنا لحفظ المؤن وإسطبلا وبستانا ومتجرا أو أكثر, ومساكن خاصة بالفقراء والمحتاجين, وفرنا لتوفير الخبز ومتسع من الأراضي الزراعية والآبار والصهاريج التي تحفظ المياه إلى جانب ورشة متعددة للصناعات والحرف المختلفة.

وهذا كلّه يدلّ على مكانة العمل عند السنوسية, والنّظرة الصائبة إلى العمل والعبادة والحياة والإنسان فيها وربطه بالآخرة لتكون حقًّا مزرعة لها, وماذا يجني في الآخرة من ترك الدنيا والعمل فيها؟

و-الجانب السياسي:

إن حكمة ابن السنوسي بلغت أوجها حين انصرف في الإصلاح إلى المجتمع, وبدا بالتغيير من أسفل الهرم, وهو على يقين انه لما يحين الوقت, وتصلح القاعدة بطريق التعليم والإرشاد, ويتكون المجتمع المسلم الذي يمكنه القيام بواجباته نحو الإسلام, بإقامة شرع الله ودعوة الناس إليه, ورد أي اعتداء, فلا بد أن ينتهي الأمر بإصلاح السلطة وسيكون ذلك مطلبا ضروريا, يتحقق آليا, ولذكائه لم يشأ مناقشة مسالة القرشيّة في الخلافة ورآه بابا لو فتح على المسلمين لزادت أحوالهم به تدهورا، فاخذ بأخف الضررين واعتبر الخلافة العثمانية امرا واقعا، لا بدّ من استغلاله لجمع الأمّة وتوحيدها تحت رايته والتمكن من الدفاع عن كيانها تحت لوائه وقد اخذ من تجربة محمد بن عبد الوهاب ومعاداته للدولة العثمانية عبرة استفاد منها واعتبرها خطأ لا بد من تجنبه لتقوية الحركة وتوسيع نفوذها كما انه لم يكن يفرق بين الدين والدولة بل كان يراهما لا يتجزآن وكان ماضيا في ثبات لتحقيق مشروعه الإصلاحي بالوسائل السلمية متجنبا التصادم مع الحكام العثمانيين أو مع العلماء وغيرهم، و استطاع بذكائه أن يقيم علاقات متينة مع الولاة العثمانيين الذين بدورهم سعوا إلى

[1] شكيب أرسلان، حاضر العالم الإسلامي, ج 1، ص163-164

كسب وده لما كان يقدمه للقبائل من خدمات جليلة وما كان يسعى بفطنته إلى إخماد الفتن التي كانت تنتج من حين إلى آخر عن خروج بعض القبائل عن الدولة العثمانية فكان يردها ردا حكيما ويقوي صلتها بالدولة بما يسديه لها من نصائح تلقى القبول والسماع عندهم.

ومن جوانب بعد نظره السياسي اختياره لمواقع الزوايا وابتعاده عن الحواضر وإيغاره في الصحارى حتى يكوّن قوة وحصنا في وجه القوات الاستعمارية الزاحفة علي بلدان إفريقيا الشمالية خاصة وكان بالفعل عقبة صدت محاولاتهم لما يقارب مائة عام وقد وصفه العقاد قائلا: «وكان الشيخ السنوسى بخلاف الغالب على مشايخ الطرق خبيرا بأحوال السياسة العالمية فوقر في ذهنه أن النابلطان؛ أي الإيطاليين مغيرون لا محالة على برقة في يوم قريب فأوغل بمقامه إلى واحة الكفرة على طريق السودان ليشرف من ثمة على تعليم أهل الصحراء جنوبا وشمالا وشرقا وغربا، ويهيئ في جوف الصحراء ملاذا لمن تقصيهم غارات المستعمرين على السواحل و مدن الحضارة».[1]

ولقد وصف الفرنسيون اتّباع ابن السنوسي بكل أوصاف الصلابة فقالوا أنّهم اشد صلابة من الحجر الصلد.

وقد اكتملت شمائل ابن السنوسي بعفة النفس وعزتها وقد امتدحه رشيد رضا بقوله: «استطاعت دولة فرنسا إفساد بأس جميع الطرائق المتصوفة في افريقية واستماله شيوخها بالرشوة إلاّ الطريقة السنوسية».[2]

وأختم بما قاله عنه آدمز: «وعلى أية حال فإنّ ابن السنوسي كان يتمتع بقدرة تنظيمية غير عادية وبحس عملي دقيق للأحداث».[3]

وفي هذه العجالة حاولت أن أشير إلى جوانب الفاعلية وقممها التي بلغت مبلغا مدهشا في ذهن رجل نهض بالأمّة عبر جهوده الإصلاحية منطلقا من مبدأ العمل بالعلم وجعل الدنيا مزرعة للآخرة والسعي بإخلاص لانتشال الأمّة ممّا هي فيه ومحاولة النهوض بها فكريا واقتصاديا وعسكريا عبر مشروع إصلاح جعل من الدعوة إلى الله وسيلة لإصلاح شؤونها ومن القرآن والسنة مرجعية عليا لها ومن بذل الجهود والسعي إلى تغيير النفوس وتنقيتها حتى يغير الله أحوال الأمّة وهي حركة لم تزل بزوال مؤسسها بل روي أنّها قويت في عهد ولده المهدي السائر على نهج أبيه وبلغت ذروتها في عهد ابن أخيه أحمد الشريف السنوسي الذي قيل إن عدد الزوايا في وقته فاق *320* زاوية مع ما كانت عليه من القوة والفعل.

---

[1] محمّد علي الصّلابي، الحركة السنوسيّة في شمال إفريقيا، ص *117*.

[2] المرجع نفسه، ص *117*.

[3] المرجع نفسه، ص *118*.

وإن كانت الفاعليّة تدرّجت معنا من الأفراد إلى الحركات، فهذا دليل على أنّها ممكنة التحقّق إذا ما توفّرت الظّروف المناسبة لها مع توفّر شروطها من عزم الرّجال، ووجود الوسائل الّتي باستعمالها يغيّر الله ما بالقوم، ودون أن ننسى أنّ الظّروف المناسبة لنشأة فاعليّة شاملة لحياة الأمّة في جميع نواحيها، لم تحن بعد لعوامل عديدة ومعوّقات كثيرة.

لكنّنا نستأنس بهذه النّماذج ليحصل لنا اليقين في إمكانية النّهوض من جديد، ويبقى الأمل قائما في النّفوس.

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثّالث: محمد فتح الله كولن:

تمهيد:

إنّه أحد العلماء المسلمين المعاصرين، نذر نفسه لخدمة فكره، وتفعيل تصوراته في بلده وفي العالم الإسلامي كلّه، فكان بذلك مصلحا منفردا بالجمع بين الفكرة والتطبيق، راسما حدود الإحياء والانبعاث في المبدأ والغاية، في تناسق فكري وثبات هادف إلى تحقيق النجاحات المتواصلة، في بناء إنسان يصلح ليكون محور الوجود، وحامل رسالة الخلافة، وأمانة الدّين والتّبليغ، كما كان عالما ربّانيا يدعو إلى الله ﷻ عبر التّربية والتوجيه، وزاهد روّض نفسه في زهرة العمر وريعان الشباب في مدارج الكمال، ومراتب الصالحين وقد كان مصلحا، ومرشدا استطاع أن يفرض نفسه بفكره وأعماله الجليلة، حتّى اختير على رأس مائة مصلح معاصر على مستوى العالم حسب استطلاع مجلة «فورين بوليسي» الأمريكية، وأجمعت الدوائر الفكرية والأكاديمية أنّ حركته الإصلاحيّة من أهم الحركات الاجتماعية وأكثرها تأثيرا في تركيا، وفي العالم خلال النصف الثاني من القرن العشرين، والقرن الواحد والعشرين.

وسيعرض هذا العنصر نموذجا تطبيقيا ثالثا هو العالم والدّاعية والمصلح التّركي محمد فتح الله كولن الّذي وبكلّ بساطة توصّل إلى تحويل الفكرة إلى سلوك، وتحريك الإيمان في النّفوس ليترجم إلى بناء حضاري شامخ محوره الإنسان.

1. حياته وفكره:

1.1. مولده ونشأته وتعليمه:[1]

ولد محمد فتح الله كولن في *11* نوفمبر *1938*م في قرية كوروجك بمحافظة أرضروم شمال شرق الأناضول التركية، وقد عرفت منطقة الأناضول عامّة بحُبّ أهلها للإسلام، وتشبّعهم بروحه وأخلاقه منذ دخولهم فيه في عهد عثمان بن عفان ﷺ وتأثير حكمته، وقيمه في حياتهم، وقد كانوا يحرصون على تحفيظ أبنائهم القرآن الكريم منذ الصغر، ممّا جعل والدة فتح الله كولن السيدة رفيعة هائم، وهي سيّدة فاضلة على جانب كبير من العلم والتديّن حرصت على تعليم ابنها القرآن، وهو ابن أربع سنين؛ ولأنّ بيت والده كان محط الرّجال العلماء والصالحين والزهاد في أرضروم، فقد أتيح له أن يجالس الكبار ويسمع منهم، ما ساعد في نضجه في سن مبكرة، وزيادة وعيه، وتوسع مداركه وهو صغير، فسعى إلى تعميق معارفه والتوسع في علوم

[1] ملحق مجلة حراء، فتح الله كولن، (عدد خاص)، ص: *12*.

الشريعة كلها، وتلقى علوم اللّغة على يد والده رامز أفندي، وكذلك اللّغة الفارسيّة، كما توسّع في علوم الفقه والنّحو والبلاغة، ومقارنة الأديان، ودرس فيما بعد أعلام الفكر الإسلامي المعاصر، وتابع جهود منظري الإصلاح، كما استوعب نظريات الغرب الفلسفيّة والاجتماعيّة والعلميّة والسياسيّة، وحتّى الأدبيّة الحديثة، ممّا بلور شخصية علمية متربّعة على شتى المجالات، ثمّ أشتغل إماما وهو في العشرين من عمره في جامع أوج شزفلي في مدينة أدرنة، وقضى فيها سنتين زاهدا يروّض نفسه، ويشبع روحه بكمالات الإيمان والصفاء، ويشبع فكره بالمطالعة والقراءة لكافة العلوم الشرعيّة والكونيّة، ثمّ اشتغل محفظا للقرآن في مدرسة تحفيظ القرآن بجامع كستانة بازاري في إزمير بتركيا، ثم اشتغل واعظا طوافا في كل أنحاء بلاده، يحثّ النّاس على الإخلاص في إيمانهم وفي عملهم، ويحبب إليهم الرسول ﷺ، وسيرته المجيدة وسيرة أصحابه العظماء، ويلهب في الأنفس مشاعر التّأسي بهم، والقيام بالدّور الحضاري الواجب القيام به، كما قاموا به هم، وقد كانوا قلّة وبإمكانات محدودة ، ونحن الآن أكثر عددا، وعدّة من الأموال والوسائل لكنّنا لا نفعل شيئا.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشير إلى تأثّر فتح الله كولن بالمصلحين – السابقين أو المعاصرين له، وهو أمر طبيعي؛ لأنّ الفكر الإنساني إرث مشترك، حلقاته متواصلة، لاسيما إذا اشترك المصلحون في حمل همّ الأمّة، والعمل على إيقاظها، وتحقيق الطموحات المنشودة عبر توعية الأمّة، ومساعدتها على الثبات في وجه التّحديات، ومن الّذين تأثّر بهم كولن بديع الزمان سعيد النورسي التركي، وهو الّذي كان خلال تحمّله أعباء الدّعوة مربيا ناصحا للأمّة ليخرجها من الجمود إلى الفعل، وكان ينصح بالإخلاص، والأخذ بالأسباب، محاولا إيجاد حلول لمشكلات الأمّة، ولطالما أثمرت أفكاره في محبيه أملا جديدا نحو النّهوض بدءًا بالبحث عن الذّات الإسلاميّة الغائبة وتحقيقها للتخلّص من الضياع الحضاري للمسلمين، خاصّة وأنّهم لم يضيّعوا أصالتهم، بل غابت إمّا بسبب الغفلة، أو الضّعف، أو القهر، ومهما يكن فقد كان الرّجل يهدف إلى تحويل الفكرة إلى عمل، والإيمان إلى تطبيق، والنّصوص إلى واقع حياة، كان لرسائل النور وقع كبير في نفوس طلاّبه ومحبيه، صوّر فيها واقعا يصدم العقل، لكنه في الوقت ذاته يجرّه إلى التساؤلات التي تفرض عليه البحث عن بدائل، والسّبيل إلى تغيير هذا الواقع والخروج من الجمود والتخلف، والسّعى إلى تكوين قاعدة مجتمعيّة ثابتة تهدف إلى تحقيق الحياة الكريمة، بتوفير أسّسها الثابتة: العدل والأمن، ليحيا المسلم في ظلّها بعد رفع الظلم والاستبداد عنه،[1] ووجد استجابة واسعة في المجتمع التّركي ممّن يحملون الهمّ ذاته، وكان ردّ الفعل بنّاءً؛ حيث تحوّلت الفكرة إلى تجربة ناجحة تمثّلت في السّلوك العملي لطلبة النّور في تركيا، وتجلياتها في الواقع الاجتماعي التّركي.

[1] مجلة حراء، السنة الثامنة، العدد 35 2013، مقال: موقع رسائل النور من الفكر الإسلامي الحديث، د مهدية أمنوح. ص 20 .

وقد كان لهذا الأمر صدى في عمل فتح الله كولن، والّذي حمل بدوره همّ تركيا، وهمّ الأمّة الإسلاميّة، وأراد أن يكون عالما عاملا، وانطلق من القرآن الكريم مرجعا، ومن السّنة العمليّة منهجا في تحويل الرؤى، والأفكار إلى تطبيقات عمليّة مركّزا على التربية لإخراج «الإنسان الكامل»، والوصول إلى التكامل بين الفكر والعمل، وهو ما بعث الحياة في مشاريع الخدمة الّتي ترجمت، وبطريقة ناجحة فكر كولن إلى تغيير الإنسان، وتغيير الواقع والوصول إلى إنجازات تدلّ على نفسها بنفسها.

يقول كولن في حديثه عن التبليغ والمشاق الّتي يتحملها الآمر بالمعروف: «وكأننا نرى سيدنا آدم يجمع أبناءه ويقول لهم: لقد لقيت منكم ما لقيت، وسيّدنا نوح وهود يقولان الكلام نفسه، وهكذا الأنبياء الباقون يرددون الانكسار نفسه لأقواهم».[1]

وينقل إلينا المعاناة والمكابدة بعد الأنبياء، والّتي عاناها ورثتهم وحملة دعوتهم، والتبليغ عنهم متمثّلة في قول النّورسي: «وإذا ما عصر كلام السعداء الذين تعهدوا هذه الوظيفة وأخذوها على عاتقهم من بعد عهد رسول الله ﷺ نجد الانكسار نفسه يتقطّر منه: «لم أذق طول عمري البالغ نيفا وثمانين سنة شيئا من لذائذ الدنيا.. قضيت حياتي في ميادين الحرب، وزنزانات الأسر، أو سجون الوطن ومحاكم البلاد.. وتعرضت لإهانات متنوعة، مرت على أوقات رجحت الموت على الحياة ألف مرة، ولولا أن ديني يمنعني من قتل نفسي، فربما كان سعيد الآن ترابا تحت التراب»».[2]

وهو في هذا يشير إلى معاناة النورسي في سبيل الله، عند قيامه بمهمة الإصلاح والتبليغ لا سيما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أما المصلح الثاني الّذي بدا تأثّر كولن به تأثّرًا واضحا هو المفكر والمصلح الجزائري مالك بن نبي، والّذي كانت تربطه به علاقة الهمّ المشترك، والتّصوّر الواحد، والسّعي الجاد لإيجاد سبل النّهوض، وشروط الإقلاع الحضاري للأمّة من جديد، لاسيما وهو موسوعة معرفية عميقة، وحامل مشروع فكري عالمي متميّز، ويلتقي المفكران في أساس المشكلات كلّها ومدارها، وهو الإنسان الّذي يجب أن يتحوّل من الجمود إلى الفعل، ومن الفكر إلى العمل، يقول مالك بن نبي: «ليست المشكلة أن نعلم المسلم عقيدة هو يملكها، وإنّما المهم أن نرد إلى هذه العقيدة فاعليتها وقوتها الإيجابية وتأثيرها الاجتماعي في كلمة واحدة: إنّ مشكلتنا ليست في أن نبرهن للمسلم على وجود الله، بقدر ما هي في أن نشعره بوجوده، ونملأ به نفسه باعتباره مصدرا للطاقة»،[3] وهي الإشكال الجوهري في حياة المسلمين، وما يفسّر هذا الانفصام بين واقعهم، وبين

---

[1] طرق الارشاد في الفكر والحياة، فتح الله كولن، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط1 1433هـ -2012م المناهج ، الجزائر ص 20.

[2] المرجع نفسه، ص 20 -21 .

[3] محمد بابا عمي، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، دار النيل للطباعة والنشر 2011، ص 52.

عقيدتهم ودينهم والأمر ذاته ركز عليه كولن في قوله: «لا حاجة إلى تلقين المسلم فهما جديدا للإسلام، ولا إعادة تعليم الإسلام للمسلمين من جديد، إنما المطلوب العمل على تفهيم المسلم الأهمية الحيوية لما يعرفه عن الإسلام فعلا، وقوة تأثيره، وديمومته الأبدية»،[1] ويبدو تطابق الفكرتين عندهما واضحا في أنّ السّعي لا بدّ أن يتركز على المسلم، وبعث قدراته الفهميّة الّتي تمكّنه من ربط الإيمان بالواقع، والإسلام بالحياة والممارسة والتّطبيق، وسعى كلّ واحد منهما لتجسيده بطريقته، وسط الملابسات والظروف السياسية والاجتماعية المحيطة بكلّ واحد منهما، وفي خضم المضايقات والعوائق الّتي اعترضت سبيل كل منهما.

ولمفهوم الحضارة تقارب في فكر الرجلين؛ إذ يرى كلّ منهما الدعائم ذاتها، والشّروط نفسها لقيام الحضارة، ويؤكّدان على محورية الإنسان فيما؛ إذ هو الفاعل متى توفرت له باقي الشّروط وغيابه يجعل الزمن فراغا، والتّراب عدما، والفكرة صرخة في واد .. يقول كولن: «علينا أن لا ننسى أنّ أهمّ أركان ظاهرة الحضارة هو الإنسان المؤهل، وأقوى أسسها الحيوية هو دولة حرة، ومستقلة وأثمن رؤوس أموالها هو الزمن»،[2] وهي العناصر ذاتها الّتي يذكرها مالك بن نبي، ويجعلها شروطا أساسيّة لأيّ حضارة ضمن معادلته المعروفة، وهي الحضارة = الإنسان + الوقت+ التراب، مع اتفاق الرّجلين حول دور الفكرة الدينيّة في قيام الحضارة، وإن كان كولن يذكر الدّولة الحرّة المستقلة، فإنّه يقصد بها السّيادة، وهو المعنى نفسه الّذي يرمي إليه مالك بن نبي عندما يتكلّم عن التراب؛ أي الأرض الّتي يكون الإنسان سيّدا، متحررا من الاستعباد والاستعمار عليها، وهي موافقة تامّة بينهما، وعلى كلّ حال، ومهما اختلفت التّصوّرات، وتباينت الوسائل، واشترك في ذلك تغير الزمان والمكان يبقى أنّهما أرادا الوصول إلى الغاية ذاتها، والعودة بالإنسان إلى زمن النّبوة؛ حيث لا انفصام بين القول والفعل، وبين الفكرة والعمل، وكذلك بين المنهج والتّطبيق، ومتى اشتركت الغاية، وتوحّد الهمّ، فإنّ اختلاف الوسائل والتّطبيق سيكون حينئذ تنوّع، وتوسّع في الخيارات.

ب. فكره وتطبيقاته:

إنّ المطّلع على فكر محمّد فتح الله كولن يجده شجرة طيبة أصلها ثابت، وهو القرآن الكريم وسنة وسيرة المصطفى الحبيب ﷺ، يستمد الأنوار من آيات القرآن، وسنة النبي ﷺ، وسيرته العطرة، ويستنبط مناهج التفكير، والرّشد، والعمل بالسنن من آيات القرآن الكريم، ثم يعرض هذه التجليات بأسلوب واضح بسيط، يسمح أوّلا بالفهم لكلّ من يقرأه، ويدفع على العمل والتطبيق، وفكرة الخدمة الإيمانية، هي منطلق عمل كولن الإصلاحي، والّذي يهدف إلى إيجاد إنسان جديد يفهم القرآن، ويعيش توجيهاته، ويتمثل

[1] محمد بابا عمي، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص 51.

[2] المرجع نفسه، ص 53.

أحكامه في الحياة، ليدخل في دائرة الخدمة، ويتحرك في فضائه الذي هو فيه ليقدّم خير ما عنده للنّاس، وتتّسع الدّائرة لتدخل الأمّة كلّها في دائرة الخدمة بعد أن كانت جامدة في دائرة الفراغ، وهو في هذا كلّه يستلهم منهاجه في الإصلاح من الوحي الّذي قرن دائما بين الاعتقاد والعمل، وحذر الإنسان من الانفصام بينهما؛ لأنّه يؤدي إلى الكلالة والعجز، والإسلام جاء لتجلية الفاعليّة للإنسان، وبيان سبلها له، حتّى ينهض إلى تحقيق الخلافة الّتي هي مهمته وحده في الأرض، وبها تتقوّم شخصيته، وتتحقق إنسانيته، وهو ما حقّق التوازن لحركة محمّد فتح الله كولن.

وكذلك نجد ما ميز فكر محمّد فتح الله كولن، ربط الدّين بالدّنيا، ودفع المسلم إلى التّسامي بأخلاقه وروحه عبر العقلانية، والواقعية الّتي تحول طاقات الإنسان على التعمير والبناء، ومحاربة الشر، والجهل والفقر، والتّصدي للظلم والعدوان، ما جعلها حركة بنّاءة، هادفة إلى تمثل حقيقة الدّين في الحضارة، وعرضها للآخرين حتّى يعرفوا الإسلام، ويدركوا حقيقته الغائبة عن الوجود بتقصير المسلمين في القيام بمهمة التبليغ، وذهولهم عن مواطن العظمة في الإسلام وسر نجاح فتح الله كولن في مساره الدعوي الإصلاحي التوجيهي، هو ربط الفكرة بالعمل، يقول: «يبدأ كل تقدم بفكرة معينة وتصوّر معين، ثمّ يتم قبول هذه الفكرة من قبل الجماهير، ثم تتحقق بجهود الأفراد المتكاثفين معا في هذا السبيل، لكن إن لم يكن للعلم نصيب في تخطيط هذه الفكرة، أو لم يسمح للعلم بذلك، فكل جهد وكل تعبئة عامة لإنجاحها محكوم عليها بالفشل».[1]

كما أنّ من أسرار نجاحه، وشمولية طرحه الّذي يوازن بين الفكر والسلوك، والعقل والوجدان والروح والجسد، بشكل يجعل تلازمها ضروريا في تصوير الإسلام وتقديمه للنّاس، وتخلّف أحدها يجعل هذا التّصوير منقوصا وقاصرا، لا يكاد يوصل إلى شيء، بل سيؤدي على تشويه الإسلام وعرضه بطريقة تؤدي إلى عكس النتائج بطريقة منهجية، منظمة، ذات طابع مؤسسي، متعدّد المستويات والمجالات؛ أي نقل الفكر الإصلاحي على البناء الميداني، وعدم تركه حبيس الآمال والأحلام، ما يعرضه إلى الاندثار والأفول، وتفعيله سينشئ الإنسان الجديد الّذي يريده كولن أن يحقق الانبعاث والنّهضة من جديد.

إذن فكر الرجل، إلى جانب دقّته وشموليّته، وتوسّع ثقافاته القديمة منها أو المعاصرة، واستجابته للفلسفات، وتفتحه عليها، وعلى النّظريات العلمية والاجتماعية والسياسية زاد في عمق تصوره، ومكّنه من اختراق البيئة، والتّأثير فيها بدءا بالمحيطة به ووصولا إلى الغرب الّذي قبل طروحاته وأقبل عليها، وسبق بذلك الجوار العربي لتركيا، قالت الدكتورة جيل كارول، وهي باحثة أمريكية مهتمة بفكر وحركة فتح الله كولن: «وقد حققت حركة «كولن» قدرا كبيرا من النجاح في الغرب لهذا السبب، وهو أنها تفهم أن دور الدين هو تزكية للإفراد وأن هذا يحدث فقط حينما يعيش الناس –جماعات وأفرادا– هذا الإيمان والفضيلة بشكل فعّال،

[1] محمد بابا عمي، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص 30.

ومن ثم يقوم هؤلاء «المجانين» كما وصفهم أحد المشاركين بالأمس نقلا عن الأستاذ «كولن» بتأسيس مبادرات للمجتمع المدني، وتوحيد الناس جميعا على مبادئ هي بالتأكيد فاضلة.

فهذا هو الشّاهد الحقيقي للإيمان، وهو ما يحفز الآخرين لتبني تلك القيم الإنسانية العميقة في قلوبهم وأفكارهم»،[1] وعيش الإيمان الّذي تقصده جيل كارول هو تنزيل الإيمان في واقع الحياة ليكون سلوكا راشدا يقود صاحبه إلى الفضيلة والخير، وهو ما ميز حركة كولن في كونه رجل ميدان مارس أفكاره بحركية معتدلة، متوازنة، تخاطب الإنسان من حيث كونه إنسانا مستعدا لقبول الفضيلة والاندماج في العطاء والفعل الخير الصالح.

ج. نشاطه وأهدافه:

بدأ محمّد فتح الله كولن نشاطه الدعوي في سنّ مبكرة من حياته، ففي بداية الستينات انطلق من تركية محاولا الإصلاح والنشاط في إطار الدعوة إلى الإسلام، واستنتاج الحلول منه للمشاكل المحلية الّتي كان يعانيها بلده، والّتي هي في الحقيقة مشاكل الأمّة كلّها، جمعها ثالوث الفقر والجهل والتفرّق، فكان أوّل ما حاول البداية به استنهاض همم النّاس؛ ليرفعوا عن أنفسهم هذا الغبن، ويغيّروا ما بأنفسهم من كسل وجبن وقهر متى عرفوا الطريق، وجدوا معالمه متكشفة لهم، يقول: «تعرف إلى ذاتك وبنورها استنِر، فإن عرفتها عرفت ربّك .. أما سيبؤو الحظ، فلا أعماقهم لمسوا، ولا جوهرهم أدركوا، ولا ربهم عرفوا... مثلهم كمثل حمال على ظهره كنز ينوء بحمله، لكنه لا يعرف قيمة ما يحمله... فقير يبقى وتعسيا يظل، وشقيا يموت»؛[2] ولأنّ قناعته كانت راسخة بأنّ التّغيير لا بدّ أن يمر عبر الفرد إلى المجتمع، فقد سعى إلى تربية أو بالأحرى صناعة الرجال الّذين سيكونون نماذج بشرية حيّة على أرض الواقع يمثلون الإسلام ويعيشونه ويجعلون النّاس يقتنعون بأنه الحل لجميع المشكلات، حينئذ فقط تبعث الرحمة والراحة في القلوب، وتستقر النفوس التائهة في ظل سماحة الإسلام وسعته، كان يقول: «إن العالم في أمس الحاجة على الإسلام اليوم، والإسلام في أمس الحاجة إلى من يمثله بحق».[3]

وتمثيل الإسلام يكون بتحويل تشريعاته إلى واقع حياة، ما جعل كولن يعمل من أجل تحويل تشريعاته المتعددة، والمتنوعة، ضمن مشروع حضاري شمولي عالمي، منطلقه أخلاقي تربوي ومرجعيته إسلاميّة، حاول محمّد فتح كولن ترجمته من خلال الحثّ على التضامن الاجتماعي ومساعدة الفقراء والمحتاجين، للقضاء على

---

[1] ملحق مجلة حراء، تقرير مؤتمر : مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، جامعة الدول العربية القاهرة، *19 -21* أكتوبر *2009*: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية، ص *44*.

[2] ملحق مجلة حراء' فتح الله كولن، أشواق أمة واستنهاض حضارة، ص *40*.

[3] المرجع نفسه، ص *20*.

الفقر، ثمّ دعا إلى التركيز على التّربية والتّعليم للقضاء على الجهل، وأسّس لحوار بنّاء بين الأخوة في الدّين الواحد من جهة، وبين أصحاب الدّيانات، وإيجاد نقاط الالتقاء والاجتماع، والتّركيز عليها للقضاء على أسباب الفرقة، وضرورة اتّخاذ الحوار سبيلا لحل كلّ المشكلات على جميع الأصعدة والمستويات وضرورة فهم المسلم لرسالته الوجودية الحضارية, حتّى يمارسها من خلال تمسكه بجذوره الإسلامية، وتفتحه على العالم من حوله مستوعبا لثقافاته، موازنا في ذلك بين القلب والعقل والسلوك، وهو في هذا كلّه يسعى بإخلاص لكسب مرضاة الله.

وبهذا نجحت حركته الّتي حاول فيها مخاطبة قلوب النّاس بلغة يفهمها الجميع، وبترجمة أفكاره إلى مشاريع أطلق عليها اسم الخدمة؛ لأنّها تهدف ببعدها الإنساني الشامل إلى خدمة الإنسان؛ لأنّه إنسان مهما كان فكره أو لونه أو عرقه أو مكانه، وتقديم الخدمة لمن يحتاجها خاصة في الظروف الصعبة كالإغاثة في النكبات ونحوها، وتتوزّع مراكز الإغاثة عبر العالم كلّه لضمان الخدمات الصحيّة والرّعاية الطبيّة عبر المشافي ومؤسسات العلاج، والّتي تقدّم خدمات مجانيّة في المناطق الفقيرة، وبؤر التوترات والحروب، وهي خدمات من الطراز عالي الجودة والاحترافية التّامّة، إلى جانب المؤسسات التربوية؛ حيث تميّزت المدارس المنتشرة عبر كلّ دول العالم بالجودة العالميّة، والجمع بين مواكبة التّطورات والعلوم من جهة والقيم والأخلاق من جهة أخرى، فتبوأت مراكز عالية، ونالت الحظوة عند النّاس لتميّز خدماتها، وجودة نتائجها، فزاد الاقبال عليها، حتّى درجة التنافس ليسجلوا أبناءهم فيها، سواء في ذلك النّخبة والعامّة، وقد بلغت المدارس أكثر من ألف *1000* مدرسة خاصّة، وعدد من الجامعات، ومئات من المدن الجامعية، وبيوت للطلبة، دون إهمال جانب الإعلام فقد أنشأ مؤسسات إعلاميّة من صحف ومجلات ومحطات إذاعية وقنوات فضائية ثقافية –إخبارية – اجتماعية للأطفال، إلى جانب دور النشر في تركيا أو غيرها، وجمعيات ومنتديات، والعشرات من المواقع الإلكترونية.[1]

كما أن التّأليف عند محمّد فتح كولن أخذ حيزا كبيرا؛ إذ له أكثر من خمسة وستين (*65*) كتابا، تدور حول قضايا الفكر الإسلامي ومشكلات العصر، كلّها باللّغة التركية، ترجم منها *35* إلى العربية والانجليزية والفرنسية والألمانية والروسية وغيرها من اللغات الحية،[2] إضافة إلى المقالات العديدة، كما أنّ له ديوان شعر بعنوان: المضرب المكسور.

وأهم نشاطاته وأكثرها استمرارا حلقات الدّرس، والّتي كانت محضن توليد الأفكار والطاقات العبقرية، ونلاحظ أنّها كانت النشاط الأبرز، فقد كانت حلقات يوميّة تكون عادة بين صلاتي الفجر والظهر، وقد

---

[1] ملحق مجلة حراء ، فتح الله كولن أشواق أمة وآستنهاض حضارة، ص *10*.

[2] المرجع نفسه، ص *30*.

تزيد في بعض الأحيان بساعة قبل الفجر يتناول فيها الأستاذ كولن والطلبة كتبا في شتى العلوم الشرعية منها والكونيّة، يقوم الطلبة بتلخيص الكتاب محل الدّرس بما لا يزيد عن العشر ورقات، ويتولى إلقاءه وقد حضر له جيدا ليتبعه نقاش يثري مواضيعه، ويدفع إلى التساؤل الجاد المثمر، تتخلله تعليقات الأستاذ وإثرائه للموضوع في أدب راقي من احترام العلماء وإجلالهم، واحترام آراء الطلاب التي يعرضونها بكل حرية يتم خلالها فقه التنزيل موازاة مع فقه التأويل، وصولا إلى الغاية من الحلقات، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإدراك الخير؛ لإيصاله إلى النّاس فتحيا به حياتهم.

وممّا يلاحظ أيضا الصلة الحميمة التي تجمع الأستاذ بطلبته على مائدة الحب والعشق الدائم، يشجعهم على التفاني والإخلاص، وينشر بينهم قيم الإسلام الراقية، مراعيا لأحاسيسهم، متفرسا لمداخلهم بفراسة المؤمن المخلص، وهي ليست أقساما كلاسيكية تعطى فيها المعلومات وتجرى بعدها الامتحانات وينتهي الأمر، بل هي فضاءات روحية يتم فيها شحن وشحذ القلوب، وإيقاظ العواطف للإقبال على العلم واحتضانه بفكر يقظ، وعزم على تحويله إلى عمل لتكون فائدته أعظم.

مع التأكيد على الانضباط الكبير على احترام مواعيد حلق الدرس والمواظبة عليها، والتحضير الجاد لمواضيعها بالاعتماد على القواميس والمعاجم للاستزادة في الضبط، والرّجوع بالألفاظ إلى أصولها، ويذكر أن بديع الزمان النورسي كان يحفظ من القاموس المحيط أكثر من ألفي (*2000*) صفحة عن ظهر قلب[1] حفظا متقنا.

ولحصول فوائد أكثر كان محمّد فتح كولن يوفق بين كثرة الكتب، وضيق الوقت بتكليف مجموعة من الطلاب بتخليص الكتب الهامّة غير المبرمجة، وعرض أعمالهم لحصول الفائدة دون قراءتها كاملة، وهي طريقة تثبت نجاح الأستاذ في الولوج إلى أعماق الطلبة، وتحويلهم إلى مبدعين بعد أخذهم زبدة الكتب وتدارسها، وجعلها محل السؤال والنقاش، لاسيما وهي أمهات الكتب، ومؤلفوها علماء يلقون التبجيل والتقدير من كل من يقرأ لهم، مع حرص الأستاذ على تعليمهم آداب الاختلاف، واحترام كل الآراء، وضرورة البحث عن القواسم المشتركة، وترك الرفض والاعتراض؛ إذ يقول: «الاعتراض على كل شيء، ونقد كل شيء حركة تخريبية، والإنسان عندما لا يعجب بشيء، عليه أن يأتي وينجز الأحسن منه، فمن النقد والهدم نحصل على خرائب، ومن البناء نحصل على عمار»،[2] وهذا ما عود عليه طلابه حتّى يكونوا شباب الخدمة بامتياز، وقد كانت وصيته الدّائمة لطلابه أن يواصلوا طلب العلم، ويحرصوا على امتداد حبل الدّرس والتّعليم حتّى تقبض أرواحهم.

---

[1] محمد بابا عمي، أرباب المستوى، ط*1*، *1434* هـ - *2013*م، دار النيل، ص *253*.

[2] المرجع نفسه، ص *185*.

ولأنّه من العلماء الربانيين، فإنّه لا يبدأ حلقة من حلقات الدرس إلاّ بدعاء صادق نابع من قلبه يتضرع فيه إلى الله أن يمنحه وطلابه الإخلاص، والعلم والنور والحفظ والسداد، فينقلب به المجلس إلى مكان مبارك كالمعبد الطاهر، يشعّ منه نور الحقّ، ويتألّق فيه الفكر الحر ليثمر علما جاهزا؛ ليكون فعلا وحياة في حياة النّاس، لا سيما إذا كانوا حفنة من المجانين، وهو دائما يردد: «تشبع بحب الله إلى حد الجنون .. لا يغرينك عنه حسن ولا يفتننك عنه جمال .. ارق على كل المعادلات، وتسام على كل المقاييس.. ارفع شعار الثورة ضد كل مألوف، وأهتف كما هتف الرّومي "هلم إلي يا إنسان! " ثم ادفن نفسك في غياهب النسيان.. نادكما نادى بديع الزمان: " وإنسانيتاه ! ".

ثم امض ولا تفكر بسعادتك الشخصية .. أجل: إنس رغد الحياة، إنس البيت والولد، وآسلك درب أهل السمو الواصلين لتكون من الناجين.

مجانين أريد، حفنة من المجانين .. يثورون على كلّ المعايير المألوفة، يتجاوزون كل المقاييس المعروفة، وبينما الناس إلى المغريات يتهافتون، هؤلاء عنها يفرون وإليها لا يلتفتون، أريد حفنة ممن نسبوا إلى خفة العقل لشدة حرصهم على دينهم، وتعلقهم بنشر إيمانهم، هؤلاء هم «المجانين» الذين مدحهم سيد المرسلين، إذ لا يفكرون بملذات أنفسهم، ولا يتطلعون إلى منصب ، أو شهرة، أو جاه، ولا يرومون متعة الدنيا ومالها، ولا يفتنون بالأهل والبنين.. يا رب أتضرع إليك.. خزائن رحمتك لا نهاية لها، إعط كل سائل مطلبه، أما أنا فمطلبي حفنة من المجانين.. يا رب يا رب ..».

2. مشاريع الخدمة:

حفنة المجانين الّتي يتمناها كولن ستكون فريقا عاملا بما تعلم، ومطبقا لما تشرب من فكر ونهل من معارف، وينطلق في المجتمع لينشر الحياة، ويسع الجميع مهما اختلفت أفكارهم واتجاهاتهم، ومهما تعدّدت وجهاتهم وشخصياتهم وميولهم، ليفرغ في صدورهم إلهامات الإسلام، ويقذف في قلوبهم أنواره الخالدة، ليرتفع بالإنسان من تلوّثات العصر إلى الكمالات والتجليات الإنسانية الحقّة، وستنتظم والجهود كلّها في ما يسميه كولن بدائرة الخدمة. وهو ما سأتعرض له بشيء من البيان بعد أن نستجلي أساس ومنطلق هذه الدائرة.

3. النظرة الكونية عند محمّد فتح الله كولن:

لا ينكر إنجازات العلم واكتشافاته إلا عديم النظر، بل من الواجب تقديرها والإشادة بها، لكن لا يمنعنا ذلك من القول بأنّ العلم لم يتوصل إلى الحقائق المطلقة، ولم يستطع رغم إنجازاته ضبط وتحديد حقائق الوجود: الله، الإنسان، الكون، ولا ضبط العلاقات بينها، بينما بيّنها الأنبياء منذ زمن بعيد، ولو بإجمال عند

البعض، وتفصيل عند البعض الآخر،[1] وبمقارنة الحقائق الّتي توصّل إليها العلماء، والّتي توصّل إليها الأنبياء، نجد حقائق العلماء ينسخ اللاّحق منها السّابق بظهور نظريات جديدة، أو حقائق مغايرة لما كان يقينا بالأمس، أمّا الحقائق الّتي جاء بها الأنبياء، فلطالما تميزت بالثبات، والصدق الذي يؤكده نبي بعد أخر.

والعلم حتّى اليوم أثبت عجزه المطلق على كشف الماورائيات، أو حتى القدرة على الغوص فيها، بينما الأنبياء، ولأنّهم مؤيدون بالوحي فقد أجلوا حقائق الوجود للنّاس، بما لا يدع مجالا في النفوس المؤمنة الصادقة للشك، والتردد، فهم أولى إذن بالاتباع توفيرا للجهد والعناء الفكري، والوقت، لأنهم يعرفوننا بواجبنا في الوجود، وبمنهج الإتباع الذي سيوصلنا إلى تحقيقه، وبلوغ السعادة في الدّارين.[2]

كما أنّ الوحي وحده هو الّذي ضبط العلاقات الكبرى بين الخالق والمخلوق،[3] بعد أن أخبر عن حقائق الألوهية والربوبية، وربط الأسماء الحسنى بالذات العلية، وأخبر عن الإنسان وحقيقته ووظيفته، ومأتاه ومصيره، ثمّ الكون وحقيقته وحكمة وجوده، وبعد هذا يربط العلائق بين هذه المعالم الثلاث: الله، الإنسان، الكون، وبين الله والكون، وبين الإنسان والإنسان، ثمّ بين الإنسان والكون، وتوضّحت الرؤية الكونيّة التّوحيديّة على يد الأنبياء عن طريق الوحي، وهي الوحيدة التّي تنضبط بها العلاقات، ويتحقق للإنسان – عندئذ – التّوازن الّذي يصل به إلى السعادة، وفي ذلك يقول باقر الصدر في كتابه «اقتصادنا» ردّا على من يدّعون أنّ العلم كفيل بإسعاد البشرية: «وما هذا إلا دعاء في الحقيقة يكشف الجهل بوظيفة العلم في الحياة الإنسانية، فإذا العلم وأساليبه ومناهجه ما هي إلا أدوات بحث ووسائل تحليل، إنها ليست إلا أداة لكشف الحقائق الموضوعية ، سواء في الظواهر الطبيعية أو العلوم الإنسانية»، [4] فسعادة البشرية إذن لا تتم إلا بحقائق الوحي.

هذه هي النظرة الكونية التي اتخذها محمّد فتح الله كولن أساسا ومنطلقا لحركته، مشدودا إلى شمولية الحقيقة عبر رؤية كلية لحقائق الوجود الثلاث: الله، الإنسان، الكون، والّتي بها استطاع مجابهة كلّ النظريات التجزيئيّة، الضيقة ودحضها جميعا، وقد سماها «نظرية كلّ شيء»؛ حيث يقول: «لقد أرسل حضرة سيد الأنام عليه –ألف ألف صلاة وسلام–برسالة تتعلق بكل أحد، وكل شيء وكان يوفي وظيفته حقها، ويؤديها بعمق، فتملئ بحبه الأفئدة، وتنجذب إليه القلوب»؛[5] لأنّ وضوح الرؤية بهذا المستوى يحقّق التوازن، ويربط المخلوقات بخالقها، ويضمن للإنسان النجاة من الوقوع في الحيرة، والتناقض والتيه، يقول محمّد فتح الله

---

[1] محمّد فتح الله كولن، ونحن نبني حضارتنا، ط1 1433هـ- 2012م، دار النيل ترجمة عوني عمر لطفي أوغلو، ص 136.

[2] المرجع نفسه، ص 141، 142.

[3] أرباب المستوى، محمد بابا عمي ص 103، 104.

[4] المرجع نفسه، ص 105.

[5] محمّد فتح الله كولن، ونحن نبني حضارتنا، ص 148.

كولن:«والحاصل أن الإسلام صوت كتاب الكائنات ونفسه، وتفسيره وإيضاحه، كذلك هو رسم ماضي الكائنات وحاضرها ومستقبلها، وصورها وخارطتها، ومفتاح سري لأبوابها الّتي قد تظن أنها مغلقة، الإسلام «كل» يعبر عن هذه الأمور والشؤون جميعا».[1]

ليس هذا فحسب، بل هذه النظرة دفعت كولن إلى تجسيد فكره على أرض الواقع، وتنزيل حقائق الإسلام والإيمان إلى واقع الحياة، وتعريف المسلم بواجبه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والسّعي إلى تحقيق الخير، خدمة لدينه، ولأمّته، ولنفسه، وللناس جميعا.

2-1. وسائل وغايات مشاريع الخدمة:

تعد مشاريع الخدمة، تجسيدا لقناعة محمّد فتح كولن بضرورة ارتباط الفكر بالعمل، وهو الّذي يعتبر الأفكار المعزولة عن الحياة المعيشة ميتة، والجديرة بالحياة منها هي الّتي تسري في الحياة، وتؤثرها فيها، كما أنّ الأستاذ محمّد فتح كولن تأثّر بأستاذه بديع الزمان النّورسي، لما قرر أن أعداء الأمّة ثلاثة: الجهل، الفقر، الفرقة. فانطلق من هذه الثلاثية – كما يقول مصطفى أوزجان أحد تلاميذ محمّد فتح كولن المقربين: «لنبني مشاريعنا وليس لنا فكر إقصائي أو تبريري... وإنّما فكرنا عملي بنائي حضاري... ليس هدفنا تركيا فقط، وإنّما هدفنا أن نرشد العالم كلّه إلى الفكر القرآني التربوي الأخلاقي هبة من الله تعالى، وأداء للواجب المنوط بنا ...»،[2] والشعار المرفوع ما كان يردد كولن «اليوم يوم الفعال، إن لم أنهض للعمل، فلن ينهض غيري...».[3]

كما أنّه كان ينشر ثقافة إنتاج الحل بدلا من التشكي والاستياء والبكاء على الأحوال، وتفعيل الفكر بدلا من حسبه في الكتب والمجلدات تفعيلا ينتج خدمة هادئة، مستمرة، نماؤها مطرد لحظة بلحظة؛ لأنّ المسلم في نظره يحمل مسؤولية كونية، وأمانة ربانية أساسها الإصلاح والخير، والإصلاح بالنسبة إليه لا يتأتى إلاّ عبر إصلاح الفرد المسلم، فإن نجح المصلحون في تغييره، صلحت الدنيا كلها بذلك وانطلاقا من هذه القناعة أولى الأستاذ كولن أهمية بالغة للتربية والتعليم؛ وحثّ أصحاب الحمية والقدرة – بشقيها المادي والفكري – على إنشاء المؤسسات التربوية التعليمية،[4] وكان المنطلق من إنشاء دار للطلبة على شاكلة «دار الأرقم» مركز الإشعاع النبوي الأوّل الّذي من رحمه خرجت الدعوة الإسلامية الفتية، ووضع لهذه الدّار مخططا تربويا بديعا، والفكرة الّتي انطلق منها، هي تغيير وتجديد مناهج التدريس القرآنية التقليدية، والّتي لاحظ أنّ

---

[1] محمد بابا عمي، أرباب المستوى، ص 105.

[2] محمد بابا عمي، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص 175.

[3] محمد بابا عمي، أرباب المستوى، ص 29.

[4] محمد بابا عمي، فتح الله كولن مشروع الخدمة، ص 173 – 174.

معظمها – في البلاد الإسلامية كلها- رغم إخلاص القائمين عليها، وصدق طالبيها من التلاميذ إلا أنها مدارس لا يعيش طلابها في عصرهم، بل يعيشون في العصور القديمة الغابرة، سواء من حيث المادة المقدمة لهم، أو المناهج المتبعة، وكذلك من حيث عيشهم في عزلة زمانيّة رهيبة عن عصرهم الذي يعيشون فيه، فقرر إنشاء مدارس يتولى فيها بنفسه تدريس العلوم التقليدية والعلوم العصرية معا، متبعا مناهج متطورة تتيح لطالب العلم التأهب التام للاندماج في الحياة والتأثير فيها بما في قلبه وعقله من نور العلم، ونجحت الفكرة البسيطة ، فدفعت بالأغنياء في تركيا إلى التسابق في إنشاء العشرات من المدارس على الطراز «الكولوني الأرقمي» إن جاز لي هذا التعبير، وما هذا إلا لشدة انبهاري بالفكرة أولا، وبالتطبيق ثانيا، والنتائج ثالثا؛ حيث عمّ الخير بها في كل تركية في وقت قصير، ولما أثبتت وجودها ونجاحها، تحوّلت «دور الأرقم» إلى مدارس نظامية رسمية، ذات مقاييس عالمية، وكان ذلك بالضبط سنة *1980* م،[1] وكانت مدارس متفوقة، ورائدة فرضت نفسها، وحققت غاية غاياتها بصناعة الإنسان السوي، وفق رؤية حضارية إنسانية إسلامية شاملة، إلى سنة *2010* بلغ عدد المدارس آلافا في تركية، ولم يتوقف الأمر داخل تركية، بل بلغت جهود محبي محمّد فتح الله كولن وتلاميذه إلى خارج تركية واستطاعوا في حوالي *160* دولة تتوزع على كل القارات إنشاء أكثر من *1200* مدرسة، ناهيك عن استغلال الأستاذ للعطل الصيفية بإنشاء المخيمات للعلوم الشرعية، وتدريب الطلاب على التزكية، والمعرفة، والمعاشرة، وكان أول مخيم سنة *1967* ودام ثلاثة أشهر كاملة.[2]

إنّها الفعالية في أسمى مستوياتها، والّتي فتحت الأبواب لجماعات الخدمة من اقتحام مجالات الحياة كلها سواء في البحث العلمي بإنشاء مراكز للبحوث، والجامعات الخاصة ذات التكوين العالي الّذي يشبع الروح كما يشبع الفكر، فيتخرج من هذه المراكز النورانية جيوش للخدمة والإصلاح والخير.

ومن المهم التنويه بإصلاح محمّد فتح الله كولن الّذي لم يهمل قناة مهمة من قنوات التواصل؛ إذْ نجده تفطن إلى إصلاح الصحافة التركيّة، والّتي في وقت من الأوقات كانت وقودا للمشاكل والفتن الداخلية، ولذكاء الرجل لم يواجه الجرائد والصحف، ولم يدخل معها في معارك كلامية أو ردود تستنزف الجهد، والهمم، والوقت، وتسعر نار الفتن والحقد والكراهية، بل راح ينشئ صحافة بديلة، وتكمن الإيجابية في فعله أنّه بادر إلى صنع إعلام راشد، بغايات مختلفة ووسائل نظيفة، وفكر نزيه راقي فأسّس العديد من المجلات: كمجلة حراء الّتي يخطّ افتتاحيتها محمّد فتح الله كولن، وأنشأ الجرائد والقنوات التلفزيونية، ووكالات الأنباء، لتجتمع كلّها حول مائدة الرشد وتنطلق منها إلى نشر الحق والخير، وتهدف إلى البناء والتشييد والإعمار، لتحقيق علم الله في الإنسان الّذي اتهمته الملائكة بالإفساد، لكنّ الله ﷻ علم ما لم تعلمه الملائكة فيه، من

[1] محمد بابا عمي، فتح الله كولن مشروع الخدمة، ص *174*.

[2] المرجع نفسه، ص *174*.

قدرة على تغيير نفسه نحو الصلاح لتحقيق أهلية خلافة الأرض، ووصل محمّد فتح الله كولن إلى إنشاء إعلام نظيف ونزيه يدافع عن القيم دون ولاء لجهة، أو لأحد مما أكسبه الاستقلالية التامّة وأنجب هذا العمل الجبار «زمان» و«جيهان»، أما «زمان» فجريدة يومية بدأت باللّغة التركية لكنّها الآن تصدر رقميا باللغات الإنجليزية والألمانية والفرنسية وغيرها، تطبع يوميا حوالي مليون نسخة، توظف عمال ذوي احترافية عالية، من الجنسين ومن العديد من دول العالم، أما «جيهان» فوكالة أنباء ذات صيت عالمي، تزود زمان وكل القنوات والجرائد والإذاعات، والجهات الرّسيمة بالجديد، لمصداقيتها الكبيرة ولصدقها واحترافيتها، وأخلاق وقيم عمالها، يقول مدير الوكالة واصفا حضور محمّد فتح الله كولن في المشروع: «هذا الأب المؤسس وهو صاحب الفضل، وليس للجريدة عليه فضل، فثقة النّاس فيه وتوجيهاته الحكيمة، هما سبب النجاح والتميز»،[1] وبسبب توجيهاته تنأى المؤسسات الإعلامية التابعة للخدمة عن كل ظنة في أحد، أو خدش للعرض، وليس لها مصلحة إلا مصلحة الصدق، والدفاع عن القيم، والسلم، وروح الإسلام.

ومن وسائل الخدمة الدعوة؛ حيث نجد محمّد فتح الله كولن يدعو النّاس إلى فعل الخير، والمساهمة في بناء صرح المجد هذا، بكلمات قليلة، تاركا كل إنسان يعمل عقله ليولد أفكارا من الفهم الجيد للنصوص، ويجتهد في تنزيلها على واقع الحياة حسب قدرته، وتخصصه، ومداركه، وفعلا تحولت كلماته وأفكاره والخطوط العامة التي رسمها إلى مالا يحصى من المؤسسات المنضوية تحت مشروع الخدمة في العالم كله، فمثلا بدعوته وحثه الناس على العناية بالمدارس، وإنشائها بلغت الآلاف، وأدهشت الناس في احترافيّة مناهجها وطراز موظفيها ونوعية خدماتها من إيواء الطلاّب، وإطعامهم وطباعة الكتب، والسهر على الخدمة بدوام لا ينقطع، ولا يطالب فيه القائمون عليه بالراحة والتعويض ، بل كلهم عطاء وبذل دائم.

دون أن ننسى الحوار ، فقد كان من أهم الوسائل التي اعتمدها كولن في مشاريع الخدمة، وحرصه على الكلمة الطيبة والتأليف بين جميع الأفكار والأطياف، وحتّى الديانات، وفي مؤسسة خيرية جمعويّة، أنشأها كولن سنة ***1994*** [2]في تركيا بعد أن جمع الكتاب والصحفيين والسياسيين على الكلمة السواء، وقد كانوا سبب الفرقة بين الشعب مما أدى إلى فتنة كبيرة تناحر الناس فيها، وانعدم الأمن، فشرع في محاورة كل طرف ودعوته إلى السلام والأمن ونبذ الخلاف والعنف ، ولقي استجابة فائقة بفضل ذكائه وإخلاصه؛ حيث توصل إلى كسب قلوب الناس على اختلاف دينهم، وحزبهم وسلوكهم وإيديولوجياتهم، وأدخلهم في «الخدمة» بفضل توجيهاته، وحرصه على القيم التي يشترك في حبها كل الناس من غير حقّ، وفضيلة،

---

[1] محمد بابا عمي، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص *196*.

[2] المرجع نفسه، ص *190*.

وتكلّلت الجهود بإنشاء تلك المؤسسة الوقفية: «وقف الكتاب والصحفيين وكانت تتوسع وتكبر حتى بلغ عدد منتديات الحوار فيها سبعا»،[1] هي:

1-منتدى أبانت للحوار بين الحضارات: وهو منتدى عالمي للحوار بين الحضارات.

2-منتدى الفن والثقافة: يلتقي فيه كبار الشخصيات لمناقشة قضايا التّسامح والحوار، وغرس القيم، والصداقة والمعاشرة الحسنة والكلمة الطيبة، ونبذ العنف والإقصاء والتصادم.

3-منتدى الصحافيين: وهو خاص بالصحافة وكل وسائل الإعلام، من كلّ الاتجاهات، ينتهجون أسلوبا صحفيا هادئا، ويتركون مل ما يشوش على القيم والأخلاق وعلاقات المواطنة

4-منتدى حوار الأديان والثقافات: وهو شبيه بمنتدى «أبانت» لكنه متخصص بداخل تركية، ويجمع بين المسلمين والمسيحيين، وبين المسلمين والموسويين، وبين المسلمين فيما بينهم.

5-منتدى المرأة: للحوار بين النساء حول قضاياهن المختلفة.

6-منتدى البحث العلمي: ويختص بالبحث العلمي ومختلف الطروحات النظرية والفكرية والعلمية ومناقشتها بكل موضوعية بعيدا عن الخلفيات والإيديولوجيات.

7-منتدى اوراسيا: ويعالج قضايا (روسيا، بيلوروسيا، كازاخستان، قرغيزيا، طاجيسكتان، وأوزبكستان) لنزع فتيل الخلاف؛ ولأجل سلام دائم بين أبناء الأرض الواحدة، والتاريخ الواحد، والحضارة الواحدة.

هكذا كان تمثل الرجل للإسلام، بأفكار كبرى ترجمها إلى مشاريع كبرى، برجال كبار، فتحققت إنجازات يقصر المقام على حصرها أو الإحاطة بها، وما ذكرته غيض من فيض من إنجازات شباب الخدمة، الّتي ألهب الأستاذ محمّد فتح الله كولن روح الإسلام فيها فتحول اللهب إلى طاقة متحررة دافقة لا تهدأ ولا تخبو، بل تزداد لهيبا وعزما لدى شباب كان تائها ووجد ضالته في هذه المشاريع.

والملاحظ أنّني ركّزت على مشاريع الخدمة من الناحية التربوية، وذلك لأن فتح الله كولن يرى أن الإصلاح الناجح لابد أن يركز على صناعة الرجال، ولا يكون ذلك إلا بتربية جادة صالحة شاملة وهذه هي الفعالية المنشودة ، والتي تتراكم حتّى تسمع بإقلاع حضاري يصبح المسلم فيه هو قائد قاطرة الحضارة؛ حيث ينبغي أن يكون.

ومشاريع الخدمة شملت كلّ نواحي الحياة؛ إذ نجدها في النشاط الاجتماعي بمختلف الجمعيات الخيرية والّتي لم تخلف موضع تقديم خدمة أو مساعدة صغيرة أو كبيرة إلاّ كانت السباقة، ومواردها مباركة لأنّها من الوقف، ومن الصدقات، ومن سخاء رجال الأعمال وذوي الأيدي العليا، وقد تنوعت الخدمات الاجتماعيّة

[1] محمد بابا عمي، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص 191 – 192.

بين الإغاثة وتقديم العون للإنسان من حيث كونه إنسان في أي ظرف كان، ولهم في أدغال إفريقيا أيادي بيضاء تغيث ضحايا العنف، وضحايا المجاعات والأوبئة، وكذلك في كل القارات، يتوزعون كالدواء الشافي لكل العلل، ومشروع «الخدمة الإيمانية»، هو القناعة الّتي ينطلق بها حفنة المجانين الّذين كوّنهم محمّد فتح الله كولن، ثمّ اتّخذوا من الهجرة منفذا لهم إلى حيث يستطيعون الإفادة، وتغيير الأوضاع السيئة أينما حلوا.

ومن المجالات الّتي ركّزت عليها مشاريع «الخدمة الإيمانية» مجال الصحة، ومستشفياتها، ودور الصحة التابعة لها متوزعة في داخل تركية كما في خارجها، وتتفنّن في تقديم خدماتها باحترافية عالية وإخلاص كبير، يجعل أسقام الروح تختفي قبل أسقام الجسد، من حسن معاملة طواقمها، وتوفرها على كل ما يحتاجه المريض، ومن تركيا وفي إسطانبول أحد مظاهر نجاح فكر كولن، وفاعليّته، في مجال الصحة إنه مستشفى «سما»،[1] يتربع على مساحات شاسعة، وتطل إحدى جهاته على بحر البوسفور، وعلى «جزر الأميرات» الشهيرة، ويتوفر على طواقم توفر خدمة صحية عالية، يديره الأستاذ مصطفى أوزجان، خريج كلية «الإلهيات»، وأحد أبرز تلاميذ الأستاذ محمّد فتح الله كولن المقربين، كان واعظا في أكبر مساجد تركية، وهو الآن مسير ومدير المستشفى إلى جانب إدارة أربع جامعات داخل وخارج تركية،[2] وقد بدأت أدرك تمام الإدراك لماذا يسأل محمّد فتح الله كولن الله أن يمنحه حفنه من المجانين، يعطون أقصى ما عندهم في غير تعقل أو تردد أو تراخي بل يكون عطائهم كالسيل العرم، وإلا فكيف نفسر أن يتولى إدارة مستشفى خريج كلية الشريعة، وفوق هذا يجمع مع إدارته إدارة أربع جامعات، ومستشفى «سما» له في العراق في بلدة أربيل وحدها أربع وحدات، تعمل بها منذ *2006*، وتستقبل المرضى من شتى المدن العراقية، وتعمل على هيئة مجمعات صحية تقدم خدمات راقية أكسبتها قبولا واسعا وشهرة كبيرة .

وقد توسع نشاط «الخدمة الإيمانية» إلى أفريقيا؛ حيث لاحظ الأطباء الأتراك نقص الخدمات الطبية، وخاصة منها المتخصصة، ففي *2009* قدم الدكتور نجاتي جان إلى تنزانيا[3] متطوعا، وهو طبيب أسنان، فلاحظ النقص الرهيب في هذا المجال واغتنم الفرصة، وهو من شباب الخدمة لتوجيه ندائه إلى كافة الأطباء الأتراك والمسلمين بإقامة مراكز طبية في إفريقيا مؤكدا حاجة هذه المناطق الملحة إلى مثل هذه الخدمات، وقد تمكن بمساعدة أطباء آخرين من إنشاء أول مستشفى لطب الأسنان في تنزانيا يتربع على *7002* م، وزوّده بأحدث المعدات، ليقوم بكل التخصصات في طب وجراحة الأسنان مثل التقويم، الصيانة، وزراعة الأسنان.

---

[1] محمّد بابا عمي، محمّد فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص *170*.

[2] وكالة جيهان *http//www.cihanmedia.com*

[3] محمّد بابا عمي، محمّد فتح الله كولن ومشروع الخدمة، ص *170*.

أما الجريحة «غزة» فقد جهزت لها الجمعيات الخيرية التركية، وعلى رأسها جمعية «هل من مغيث؟ !» مستشفى متحرك تحمله 32 شاحنة، ويشمل 192 غرفة عمليات مجهزة أحدث تجهيز توجهت إليها عبر ميناء العريش.

ومن مظاهر «الخدمة» الناحية الاجتماعية، والّتي امتدت في تركية كما في غيرها إلى مجالات، حاول من خلالها محمّد فتح الله كولن القضاء على مرض يفتك بتركيّة والعالم الإسلامي وهو الفقر، من خلال الحثّ والبذل والتضامن ومساعدة الفقراء، وكانت الاستجابة كبيرة من رجال الأعمال، ظهرت في مشاريع الإسكان، للقضاء على أزمات السكن، وعجز الفقراء عن إيجاد مأوى لائق، وإنشاء مقاولات يتم خلالها تشغيل العاطلين عن العمل والإنفاق منها على مشاريع خيرية أخرى، وهكذا تجسدت أفكاره ونجحت في استنهاض الهمم لفعل الخير، وعيش تعاليم الإسلام في واقع الحياة ، كل حسب موقعه، وتخصصه، وقدرته، ومظاهر «الخدمة» في هذه الناحية تعدت تركية إلى بلدان الجوار، مثل دولة باكستان عندما اجتاحتها السيول، سنة 2012 بادرت جمعيات خيرية تركية كثيرة منها، جمعية «هل من مغيث؟ !» بجمع لحوم الأضاحي، والّتي فاقت 70 ألف أضحية لفقراء الشعب الباكستاني، إلى جانب حملات الإغاثة والمساعدة للمنكوبين في عمليات الإجلاء، أو إعادة الإعمار، والتكفل الجيد بهم وكان عدد المناطق المتضررة 17 منطقة أحصيت بها أكثر من 60 ألف أسرة فقيرة.

وفي مجال الإغاثة دائما ومساعدة المحتاجين وإطعام الجياع وإيواء المتشردين، بادرت جمعية «هل من مغيث ؟ !» إلى جانب رجال الأعمال الأتراك المغتربين بألمانيا، بتوزيع لحوم الأضاحي في عيد الأضحى من سنة 2010 بتشاد، وفي أوغندا مست العملية نفسها 6000 عائلة فقيرة بمشاركة وكالة النيل للتنمية البشرية وشملت عملية توزيع اللحوم: المساجد، المستشفيات، المدارس، الكنائس، السجون، دور الأيتام، مخافر الشرطة. أمّا بجمهورية الكونغو فقد قامت 14 شخصية من «هل من مغيث؟ !»، وهم رجال أعمال أتراك من مدينة أضنة إلى حضور عيد الأضحى بالكونغو، ومباشرة ذبح الأضاحي وتوزيع لحومها من مرافق تركية بكنشاصة على غرار 'مدرسة شفق'، خاصة بعد السعادة الغامرة التي لمسوها عند الأهالي ، ومنهم من قال بأنهم لم يذبحوا أضحية في حياتهم.

وأختم أعمال الخدمة الإيمانية الجليلة بجهود محمّد فتح الله كولن عندما دعا إلى حملة تبرعات لفائدة الشعب الياباني بعد الزلزال والتسونامي الّذي ضرب البلاد ، وكان هو أوّل المتبرعين بمبلغ 15 ألف دولار والتي كانت مجموع إيرادات[1] مؤلفاته الدينية والفكرية.

[1] وكالة جيهان http//www.cihanmedia.com

وكذلك «أسطول الحرية» التركي الّذي كان ملحمة عظيمة نسج خيوطها الأستاذ كولن، لفك الحصار على غزة المحاصرة، وامتزجت الدماء التركية الطاهرة لشباب الخدمة ومن حذا حذوهم من الأبطال، بأرض غزة ومياهها ليكونوا شاهدا على إباء المسلم، وعلى أثر الفكرة الصادقة لما تخالج النفس، وتجعلها رخيصة في سبيل الله، ونصرة الحق وأهله.

وفي هذه العجالة حاولت عرض شيء يسير أمام إنجاز رجل عظيم، بفكره وبعلمه، وبعمله وإنجازاته، وقد نجح لأنه يؤمن أن كل فكر إذا لم يقبل لن يكتب له النجاح، وأن أي فكر إذا لم تكن فيه إمكانية التطبيق لن يحقق شيئا.[1] فانطلق منذ بداياته الأولى إلى تحقيق هذه القناعة وتفعيل العلم الّذي توصل إليه، وخرج إلى الواقع ليعالجه بالإسلام، والّذي أثبت التاريخ أنه العلاج الوحيد لمشكلات الإنسانية، ولا يظن أحد أن محاولة محمّد فتح الله كولن لم تسبقها حركات تغيرية ناجحة، بل لم تنقطع المحاولات في أيّ زمان من الأزمنة، ونجاحها أو فشلها رهين بميزان التاريخ، الّذي يحفظ أعمال الإنسان وانجازاته، ويزنها لاحقا ويعطيها حقّها، وتاريخنا حافل بمحاولات المخلصين لكن ما يميز حركة كولن الإصلاحية هو امتدادها في العالم كلّه، واستيعابها للنّاس جميعا على اختلاف أفكارهم وأديانهم وانتماءاتهم في طابع الخدمة الإنسانية، وإسداء المعروف للنّاس جميعا، وربما كان محظوظا أكثر من سابقيه؛ لأنّه لم يطل الوقت في التنظير والتفكر، بل بدأ بالتنفيذ ونشر الأفكار، وتركها تعمل ثمّ لا ننسى وسائل الاتصال المتطورة التي ساعدت أفكاره على الانتشار، مما سارع في نجاحها وتلقي الناس لها بهذا القبول والنجاح.

وأيا كانت العوامل، فالرّجل يستحق هذا النّجاح الباهر، والّذي – وحسب المقربين منه- لم يكن يطلبه أو يسعى إليه، إنّما الإخلاص والسعي الجاد، واستثمار الطاقات، ومخاطبة العقول والأرواح، هو ما سارع وثيرة الإنجاز، وما ساعد على التوفيق والسداد.

ولقد اخترته نموذجا للفاعليّة، وأتمنى أنّني وفقت في اختياره؛ لأنّي باطّلاعي البسيط على بعض المراجع التي توفرت لدي، وعلى بعض أعماله، أدركت أن سر النجاح المفقود، والّذي أدركه محمّد فتح الله كولن، هو عدم فصل الفكرة عن التطبيق وعدم إغفال العلم والعمل معا، ولا الانشغال بأحدهما دون الآخر، والفعالية المطلوبة، إنّما تبلغ ذروة توترها عند الأمّة من هذا الأمر، و محال الامة و ما تعانيه إلا نتاج غفلتها عن كتاب الله الّذي ما فتئ يقرن بين الإيمان والعمل الصالح، وأنّه لا مجال للفصل بينهما، وهو في المقابل ما أدركه محمّد فتح الله كولن وعمل به ليجد الدليل على أنّ الفكرة لا تكون جديرة بالحياة إلاّ بقدر التطبيق فيها، وأنّ الفكرة الّتي لا يسعى صاحبها إلى تجسيدها في حياة النّاس فكرة ميتة لاحظ لها في الحياة.

[1] محمد بابا عمي، فتح كولن ومشروع الخدمة، ص 173.

خاتمة

كانت الغاية من وراء هذا البحث إظهار الصلة بين الفكر و التطبيق, وإحياء الفاعليّة عند المسلم بوصل الإيمان بالحياة مما دعا إلى ضرورة البحث في مجموعة من العناصر علّها تفي بالغرض, وبعد الدّراسة المتأنيّة لها, توصّلت إلى مجموعة من النتائج :

أوّلا: من خلال ما تقدّم توصلت إلى أنّ ظاهرة الكلالة الّتي تعيشها الأمّة كانت نتيجة لمجموعة من الأسباب تتلخص في:

1. الفصل بين الإيمان وسلوك الفرد المسلم، وعيشه بعيدا عن تعاليم الدّين، مما جعلها أفكارا بلا روح.

2. غبش الرؤية الكونية لدى المسلم بما دَاخَلَ فكره من فلسفات مادية، وثقافات غربية ضالة انحرفت به عن الصّراط المستقيم.

3. غياب تصوّر واضح لحقيقة الإنسان في ذهن المسلم, وذهوله عن نفسه، وعن وظيفته في الحياة.

4. من أهم ما يعترض نهضة الأمّة في وقتنا الرّاهن هجرها للقران الكريم؛ إذ أصبحت قراءتها له قراءة للحروف دون المعاني، والتغني بترتيله دون الانتباه إلى أسرار، ومفاتيح أزمات البشر الّتي يزخر بها عبر آياته، وصوره.

هذه الأسباب نتج عنها غياب الفاعليّة عن حياة المسلم، وجعلته يعيش خارج الأحداث على هامش الحضارات المتتالية.

ثانيا:

استنتجت ضرورة الإفادة من القران الكريم، والسنة النبوية إفادة واعية تتجلى في تنقية التراث الفكري مما شابه من سوء فهم لقضايا كرست سلبية المسلم، كالفهم الخاطئ لمسالة القدر، ومسؤولية الإنسان في صنع التّاريخ، وتحديد مكانة أمّته من خلال منهج الرشد الّذي هو منهج جميع الأنبياء.

والتركيز على الاعتبار من أحوال السّابقين أفرادا وأمّما؛ لأنّه لو لم تكن لنا به حاجة لما ذكر لنا القرآن قصصهم مفصلة.

ثالثا:

توصلت من خلال عرض موضوع الفاعلية عند **جودت سعيد** إلى ضرورة الخروج من رحم التاريخ، ورحم الآباء والانطلاق بالعقل في فهم الوحي فهما تنزيليا لأحكامه في واقع الحياة

بكل تغيراتها, وإعادة التجربة المحمدية في بناء إنسان جديد قادر على بعث الحضارة السلامية بفكره وعمله.

وضرورة الإفادة من تجارب الأمم الّتي نعاصرها، ونرى أنّها حقّقت نجاحات باهرة لما أخذت بسنن النجاح والتقدم مع أنّها لا تملك ما نملكه من حق, فقط لأنّها ملكت الإرادة والقدرة فتولد منهما عمل ناجح حقق الخير للإنسانية وخير مثال المجتمع الياباني.

رابعا:

كما اتّضح لي أنّ الأمّة لم تعدم المبادرات الناجحة، والّتي بتتبعها وإظهارها يحيا الأمل في النفوس بإمكانية الانبعاث من جديد، والنهوض بعد الكبوة، والشهود بعد الغياب, ولتحقيق ذلك أرى أنّه لا بدّ من:

1. إعادة الوعي بالذات للمسلم، وإقناعه بأنّه من واجبه الاضطلاع بدوره في الفعل الحضاري وتعمير الأرض بالعمل الصالح واستثمار طاقاته للإبداع.

2. لا بدّ من فقه حضاري يضع أمام المسلم منظومة متكاملة للنّهوض بالحياة في كل جوانبها يشكل الوحي مرجعيتها التشريعية والقيمية والفكرية, ويشكل العقل المتحرر المستنير أداتها ووسيلتها.

3. استغلال قضية العولمة والتطور التكنولوجي لتوحيد جهود المصلحين وتنسيقها والبناء عليها للوصول إلى تراكم معرفي عملي شامل متزايد التوتر كفيل باستكمال شروط، وعوامل النهوض لتحقيق الأمل الّذي مازال يخالج النفوس.

قائمة المصادر والمراجع

أوّلا:

القرآن الكريم: رواية ورش عن نافع.

ثانيا:

كتب السّنة:

1. صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من سأل وهو قائم عالما جالسا.
2. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة النّاس والبهائم.
3. صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المؤمن من جحر مرّتين.
4. صحيح مسلم، كتاب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة.
5. صحيح مسلم، كتاب القدر، باب كلّ شيء بقدر.
6. صحيح مسلم، كتاب البرّ والصّلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم.
7. سنن أبي داوود، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة.
8. السنن الكبرى للنسائي، كتاب الجهاد ، باب وجوب الجهاد.
9. سنن الترمذي، كتاب العلم، باب ما جاء في ذهاب العلم.
10. سنن الترمذي، كتاب الجنائز ، باب ما جاء فيمن أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه.

ثالثا: كتب جودت سعيد.

1. جودت سعيد، محمّد عنبر: الإنسان والحق، ط*1*، دار الآفاق والأنفس، دمشق (*1417* هـ – *1997*م).
2. جودت سعيد، الإنسان كلا وعدلا، ط*1*، (*1414*هـ–*1993*م)، دار الفكر المعاصر: بيروت، لبنان.
3. *جودت سعيد: حتى يغيروا ما بأنفسهم، ط1، 1990م –1411هـ، المطبعة العربيّة، الجزائر.*
4. جودت سعيد، مذهب ابن آدم الأول، ط *1414*هـ –*1993*م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.
5. جودت سعيد، كن كابن آدم، ط*1*، *1997*، دار الفكر، دمشق.
6. جودت سعيد، العمل قدرة وإرادة، ط*2*، *1414* هـ – *1993*م، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان.

المراجع:

1. أحمد الدجاني, الحركة السنوسيّة نشأتها ونموّها, ط*1*، *1967*م، دار الفكر، لبنان.
2. أحمد شاكر، عمدة التّفسير عن الحافظ بن كثير، ط*9*، (*1429* هـ – *2008*م)، دار الوفاء للطباعة والنّشر والتّوزيع، مصر، ج*1*.
3. أحمد خليل جمعة، يوسف علي بدوي العدل، ط*1* *1420* هـ و *1999* م ، اليمامة، دمشق، بيروت.

4. أديب إبراهيم الدباغ، مطارحات في المعرفة الإيمانيّة عند النّورسي، ط 1، (1417 هـ -1997م)، مركز الكتاب للنشر، مصر.

5. أبو الحسن على الحسني النّدوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ط2 1431هـ – 2010 دار القلم دمشق، ج 1.

6. يوسف القرضاوي، تاريخيا المفترى عليه،ط1، دار الشّروق، القاهرة (1425 هـ- 2005م)، دار القلم، دمشق – سوريا.

7. مالك بن نبي، دور المسلم ورسالته في الثلث الأخير من القرن 20، دار الفكر دمشق سوريا.

8. مالك بن نبي، وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ط 5.

9. مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي، وعبد الصبور شاهين، ط 3، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1969، ص 61.

10. مالك بن نبي، تأملات، طبعة دار الفكر بيروت، لبنان، إصدار ندوة مالك بن بني، ص 197 – 198.

11. محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي، التّذكرة في أحوال المولى وأمور الآخرة، طبعة المكتبة السّلفيّة، المدينة المنوّرة.

12. محمد بابا عمي، أرباب المستوى، ط1، 1434 هـ – 2013م، دار النيل.

13. محمد بابا عمي، فتح الله كولن ومشروع الخدمة، دار النيل للطباعة والنشر 2011.

14. محمّد الطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير، ط1، 1420 هـ-2000م، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان.

15. محمد الطيب النجار، الدولة الأموية في الشرق، ط 3، 1397 هـ – 1977م ، دار الاعتصام، ص 56.

16. محمّد علي الصلابي، تاريخ الحركة السنوسيّة في شمال إفريقيا، ط4، (1432 هـ – 2011م)، دار المعرفة، بيروت – لبنان.

17. محمّد فتح الله كولن، ونحن نبني حضارتنا، ط1 1433هـ- 2012م، دار النيل ترجمة عوني عمر لطفي أوغلو.

18. محمّد فتح الله كولن، طرق الارشاد في الفكر والحياة، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، ط1 1433هـ – 2012م المناهج ، الجزائر ص 20.

19. محمّد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانيّة في القرآن، ط7، 1426 هـ – 2005م، دار الفكر، دمشق/ سوريا.

20. محمّد رشيد رضا، الوحي المحمّدي، ط9، 1399 هـ – 1979م، بيروت.

21. مرتضى مطهري، نقد الفكر الدّيني، جمع وتصنيف: مهدي جهرمي ومحمّد باقري، ط1، 2011 – 1432 هـ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن – فرجينيا، الولايات م. أ.

22. سيّد قطب، في ظلال القرآن، ط3، 1397 هـ -1977م، دار الشّروق، بيروت، ج1.

23. سعيد حوى، الأساس في التّفسير، ط7، 1430 هـ – 2009م، دار السّلام للطباعة والنّشر والترجمة، مصر، ج 2.

24. عبد الحميد أحمد أبو سليمان، الإنسان بين شريعتين، ط2، 1428 هـ – 2008م، دار السّلام، مصر.

25. عبد الحميد أبو سليمان، العنف وإدارة الصراع السياسي في الفكر الإسلامي، ط2، 2008، دار السلام للطباعة، مصر.

26. عبد المجيد النجار، فقه التحضر الإسلامي، ط 1، 1999م ، دار العرب الإسلامي، بيروت.

27. عبد المجيد النّجار، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ط3، 1428 هـ -2005م، طبعة دار الغرب الإسلامي.

28. فاروق الدّسوقي، استخلاف الإنسان في الأرض، ط2، (1406 هـ – 1986م)، المكتب الإسلامي، بيروت، ص 6.

229. الرّاغب الأصبهاني، تفصيل النّشأتين وتحصيل السعادتين، تحقيق: د. عبد المجيد النجار.ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت –لبنان، (1407 هـ -1988م).

30. شكيب أرسلان, حاضر العالم الإسلامي, ط 1، 1494 هـ -1973م، دار الفكر للطباعة والنّشر، بيروت، المجلّد (1، 2).

المجلات والدّوريات:

1. **مجلة حراء**، توزيع دار النّيل، مصر، تصدر في تركيا. العدد: 32، والعدد: 35، 2013.

2. **ملحق مجلّة حراء**، فتح الله كولن، (عدد خاص)،

3. **ملحق مجلة حراء**، تقرير مؤتمر: مستقبل الإصلاح في العالم الإسلامي، جامعة الدول العربية القاهرة، 19-21 أكتوبر 2009: خبرات مقارنة مع حركة فتح الله كولن التركية.

4. **ملحق مجلة حراء**، فتح الله كولن، أشواق أمة واستنهاض حضارة.

مواقع الأنترنت:

وكالة جيهان http//www.cihanmedia.com

فهرس الآيات القرآنيّة

الآيات	الصفحة
سورة البقرة	
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيْهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيْهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾. الآية: 30.	3-5-9-32-41-43
﴿وعَلَّمَ آدم الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى المَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيْمُ الحَكِيْمُ، قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ ومَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. الآيات: (31 – 32 – 33).	5-67
﴿فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ﴾، الآية: (37).	40
﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهُمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، الآية: (38).	65
﴿فَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيْقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾، الآية: (87).	71
﴿وكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، ويَكُونَ الرَّسُول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾، الآية: (143).	2-96
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ إِلاَّ الذِينَ تَابُوا وأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾، الآيتان: (159 – 160).	65-74-75
﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِ﴾، الآية: (256).	77
سورة آل عمران	
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينْ﴾. الآية: (22).	29
﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾، الآية: (59).	17

﴿تَعَالَوا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدُ إِلاَّ اللهِ، ولاَ نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، ولاَ يَتَّخَذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ﴾، الآية: (64).	50
﴿ وللهِ عَلَى النَّاسِ حجُ البَيْتِ لِمَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾؛ الآية: (97).	66
﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ اخْرِجَتْ للنَّاسِ تَامُرُونَ بِالمعْرُوفِ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ المنْكَرِ، وَتُومِنُونَ بِاللهِ﴾؛ الآية: (110).	ب
﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الارْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ المكَذِّبِينَ﴾. الآية: (137).	69
﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمومِنِينَ﴾، الآية: (152).	85
سورة النساء	
﴿وإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللهِ وإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيْثاً﴾، الآية: (78).	42
سورة المائدة	
﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِيْنَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيْنًا﴾، الآية: (03).	45
﴿واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ (27)	37
﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيْهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِيْنَ﴾، الآية: (30)	37
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، الآية: 67.	66
سورة الأنعام	
﴿هُوَ الّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِيْنٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً ﴾، الآية: (02).	17
﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيءٍ﴾، الآية: (38).	9
﴿وَكَيْف أَخَاف مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقّ بِالامْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، الأية: (81).	74

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيم﴾؛ الآية: (83).	73
سورة الأعراف	
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِين﴾، الآية:(11).	7
﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُم صِرَاطَكَ المسْتَقِيمَ. ثُمَ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ ومِنْ خَلْفِهِمْ وعَنْ ايْمَانِهُمْ وَعَنْ شَمَائِلِهُمْ ولاَ تَجِدَ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾. الآية: (16 – 17).	35-23
﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾، الآية: (23).	12
﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الارْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِيْنٍ﴾؛ سورة الأعراف، الآية:(24).	12
﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾، الآية: (34).	82
﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾، الآية: (99).	114-113
﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الارْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ﴾، الآية: (146).	76-49-45
سورة التوبة	
﴿ولاَ عَلَى الذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حُزْنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾، الآية: (92).	65
﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الّذِينَ يَسْتَاذِنُونَكَ وَهُمُ أَغْنِيَاءَ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الخَوَالِفِ﴾، الآية: (93).	65
﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية: (111).	110
سورة يوسف	
﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، الآية: (87).	114

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الارْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الّذِيْنُ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾.الآية: (109).	69
سورة الرّعد	
﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾، الآية: (11).	-82-81-79 -122-108 129
﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الارْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾، الآية: (17).	74
سورة إبراهيم	
﴿ومَا كَانَ لَنَا أَنْ نَاتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ الاَّ بِإِذْنِ اللهِ، وعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المومِنُونَ، ومَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا﴾، إبراهيم الآيتان : (11 - 12).	71
سورة الحجر	
﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ﴾. سورة الحجر، الآية:(26).	17-6-4
﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيْهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾. سورة الحجر، الآية: (29).	5
﴿رَبِ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لهم في الارْضِ ولأَغْوِيَنَّهُمُ أَجْمَعِينَ﴾، سورة الحجر، الآية: (39).	34
سورة النّحل	
﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ﴾، الآية:(30).	29
﴿وَللّه الْمَثَلُ الأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، الآية:(60).	106
﴿وضَرَبَ اللهُ مَثَلاً رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لاَ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلاَه أَيْنَمَا يُوَجِهُهُ لاَ يَاتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَامُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ﴾. ، الآية: (76).	89-54
﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ﴾، الآية: (82).	74
﴿كَالّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ انْكَاثًا﴾. الآية:(92).	25

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾. الآية: (97).	61
سورة الإسراء	
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا كُلا نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾، الآيات: (18 – 19 – 20).	106-58
﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ والْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيْرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾. الآية:(70).	18-5
﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾، الآية:(62).	35
سورة الكهف	
﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُوْلَئِكَ الّذينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا﴾. الآيات:(103، 104، 105).	24
﴿إِنَّ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾، الآية: (107).	24
سورة طه	
﴿ولَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ولَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، الآية: (115).	36
﴿فَقُلْنَا يَا آدمُ إنّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ ولِزَوْجِكَ﴾، الآية: (117).	37
﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلَ ادُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لاَ يَبْلَى﴾، الآية: (120).	36
﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُ ولاَ يَشْقَى. ومَنْ اعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى﴾، الآية: (123 – 124).	49

سورة الأنبياء	
﴿ولَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الارْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ الآية:(*105*).	52
سورة الحجّ	
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرَ مخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الارْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا اشُدَّكُمْ وَمِنْكُم مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ الَى أَرْذَلِ العُمْرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا﴾. الآية:(*05*).	5-4
﴿أُذِنَ لِلّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنّهُمْ ظُلِمُوا وإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ، الّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ﴾،الآية:(*28*).	72
﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾. *الآية: (41).*	136
سورة النّور	
﴿وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاء وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، الآية: (*21*).	146
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، الآية: (*55*).	96
سورة الفرقان	
﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالانْعَامِ بَلْ هُمُ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾، الآيتان: (*43* و*44*).	10
سورة الشّعراء	
﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ، أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ، قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ،	73

قَالَ أَ فَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ، أَنْتُمْ وآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ، فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلاَّ رَبِّ العَالَمِينَ، الذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ، والذِي هُوَ يُطْعِمُنِي ويَسْقِينِ، وإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ﴾ الآيتان: (70 -81).	
سورة العنكبوت	
﴿قُلْ سِيرُوا فِي الارْضِ وانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقُ﴾، الآية: (20).	37
﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونْ﴾، الآية:(57).	12
﴿وَمَا هَذِهِ الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾، الآية: (64).	28
سورة لقمان	
﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الامُورِ وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الارْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، الآيات: (17، 18، 19).	92
سورة السجدة	
﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الانْسَانِ مِنْ طِيْنٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ﴾. الآيات: (7 -8).	4
سورة الأحزاب	
﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والارْضِ والْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الانْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾؛ الآية: 72.	5
سورة يس	
﴿والشَّمْسُ تَجْرِي لمسْتَقَرٍ لَهَا﴾، الآية: 38.	61
﴿وكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾، الآية: 40.	61

سورة الصافات	
﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِيْنٍ لاَزِبٍ﴾، الآية: (11).	17
سورة ص	
﴿أَمْ نَجْعَلُ الّذِيْنَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالمُفْسِدِيْنَ فِي الارْضِ أَمْ نَجْعَلُ المُتَّقِينَ كَالفُجَّارِ﴾. الآية: (28).	14
﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِين فَإِذَا سَوّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ من رُوحي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾، الآية: (71 -72).	7-4
﴿مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾، الآية:(75).	16
﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِيْنٍ﴾، الآية: (76).	34
سورة الزّمر	
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾، الآية: (53).	113
﴿أَلَمْ يَاتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾، الآية: (71).	65
سورة غافر	
﴿وقَالَ رَجُلٌ مُومِنٌ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيْمَانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالبَيِّنَاتِ﴾، الآيتان: 28 – 29.	72
سورة فصلت	
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾؛ الآية: (53).	104-60
سورة الجاثية	
﴿وسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ والارْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ الآية:(13).	68

سورة محمّد	
﴿إِنَّ اللهَ يُدْخِلُ الّذِينَ آمَنُوا، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الانْهَارُ والّذينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَاكُلُونَ كَمَا تَاكُلُ الانْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾. الآية: *12*.	28
سورة الفتح	
﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾؛الآية: (*29*).	150
سورة الحجرات	
﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الايمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُون﴾، الآية:(*7*).	76
﴿*يَا أَيُّهَا النَّاسُ* إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾. الآية: (*13*).	98
سورة الذّاريات	
﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالانْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُون﴾، الآية:(*56*).	21-9
سورة القمر	
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآن لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِر﴾، الآية: (*17*).	83
سورة الرحمن	
﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْارْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾. سورة الرّحمن، الآية: (*33*).	90
سورة الصف	
﴿وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾، الآية: (*08*).	114
سورة الملك	
﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾، الآية: (*2*).	61

﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، الآية: (22).	83
سورة القلم	
﴿أَ فَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، سورة القلم، الآيتان: (35 و36).	13
سورة الشّمس	
﴿ونَفْسٍ ومَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾، الآية: (7 -8).	48
﴿قَدَ افْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾. الآية: (9-10).	48
سورة العلق	
﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الانْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، سورة العلق، الآيتان: (1 و2).	20
﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ. إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الاكْرَمُ. الّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ. عَلَّمَ الانْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. كَلاَّ إِنَّ الانْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى. إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾. سورة العلق، الآيات من: (1 -8).	20-3

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الأحاديث النّبويّة الشّريفة

الحديث النّبوي الشّريف	الصّفحة
قال ﷺ: «خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الْجُمُعَةِ، فِيْهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيْهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيْهِ أُخْرِجَ مِنْهَا وَلا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلاَّ يَوْمُ الجُمُعَةِ».	13
قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللهِ، أَحَبَّ اللهُ لِقَاءَهُ».	25
قال ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين».	38
قال ﷺ: «إنّها ستكون فتنة، القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من السّاعي قال: أفرأيت إن دخل علي بيتي فبسط يده إليّ ليقتلني فقال: كن كابن آدم».	39
قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله عز وجل».	64
قال ﷺ: «يا نبي الله كنا في عزّة ونحن مشركون فلما آمنا صرنا أذلة؟ قال: إني أمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم».	71
قال ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».	80
«إنّ المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ثمّ شبك بين أصابعه».	80
قال: «ذكر النبي شيئا فقال.. وذاك عند ذهاب العلم, قلنا يا رسول الله وكيف يذهب العلم ونحن نقرا القرآن و نقرئه أبناءنا وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟فقال:.. ثكلتك أمّك يا ابن لبيد, إن كنت لأراك من أفقه رجل بالمدينة, أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرؤون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون مما فيهما بشيء».	84
قال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».	99
قال ﷺ: «كل شيء بقضاء وقدر حتّى العجز والكيس».	105

قال ﷺ: «ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها. قالوا: يا رسول الله كيف تأمر من أدرك منا ذلك؟ قال: تؤدون الّذي عليكم وتسألون الله الذي لكم»	115
قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهذِهِ الأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مائةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِيْنَهَا».	127

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

فهرس الموضوعات

المحتويات	الصّفحة
مقدمة.....	أ-ز
الفصل التّمهيدي: الإنسان في القرآن الكريم والفكر الإسلامي.....	02
المبحث الأوّل: الإنسان في القرآن الكريم.....	02
تمهيد.....	02
1.1. أصل ومبدأ الإنسان.....	03
2.1. وظيفة الإنسان.....	08
3.1. مصير الإنسان.....	11
المبحث الثاني: الإنسان في الفكر الإسلامي.....	15
1.1. أصل ومبدأ الإنسان.....	16
2.1. وظيفة الإنسان.....	19
3.1. مصير الإنسان.....	24
الفصل الأوّل: الإنسان عند جودت سعيد.....	31
المبحث الأوّل: حقيقة الإنسان.....	31
1. موقف الملائكة.....	32
- علم الله والرّد على الملائكة.....	33
2. دور إبليس.....	33
أ. الامتناع عن السّجود.....	33
ب. إغواء آدم.....	34
ج. آدم وإبليس والخطأ.....	35
3. الإنسان والمعصيّة.....	36
1.3. آدم والمعصية.....	36
2.3. ابني آدم والخطأ.....	37
4. الإنسان والطّاعة.....	39

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1.4. استحقاق آدم للخلافة.....	40
2.4. سبيل الإنسان إلى الصواب.....	41
5. الإنسان والوحي.....	44
1.5. كيف نتعامل مع النّص؟.....	44
2.5. انقطاع الوحي.....	45
3.5. طريق الحقّ ودعوة الأنبياء.....	47
4.5. الاستعداد العجيب.....	48
5.5. هل إلى خروج من سبيل؟.....	49
5.6. علاقة الانسان بالإنسان	50
المبحث الثاني: فاعليّة الإنسان كما يراها جودت سعيد.....	53
تمهيد.....	53
1. مفهوم الفاعليّة.....	54
2. الإنسان والتّسخير.....	57
1.2. ما السّبيل إلى التّسخير؟.....	58
2.2. إمكانيّة توجيه الإنسان.....	59
3. الإنسان والعمل.....	60
4. منهج الرّسل.....	70
1.4. الأنبياء والإبداع.....	73
2.4. الأنبياء والفكر وكتمان الحق.....	74
3.4. مهمّة تزيين الرّشد.....	75
4.4. كيف يتبيّن الرّشد من الغي من جديد.....	77
4.5. ما السبل الى بناء الرشد بعدما تبين؟	77
5. الإنسان والتغيير.....	79

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

1.5. طبّ الجسد وطبّ المجتمع.....	79
2.5. قاعدة التغيير عامّة.....	81
3.5. مجال التّغيير.....	82
4.5. علاقة الاعتبار بالتّغيير.....	83
5.5. الإسلام وتاريخ المسلمين.....	84
الفصل الثاني: مستويات الفاعليّة وشروطها.....	86
المبحث الأوّل: مستويات الفاعليّة.....	86
1. على مستوى الفرد.....	89
2. على مستوى الأسرة.....	91
3. على مستوى المجتمع.....	93
المبحث الثاني: شروط الفاعليّة.....	104
1. التّاريخ وجسد الإنسان.....	407
1.1. الشّعور بالذّات.....	110
2.1. التّوازن.....	112
3.1. الشّعور بالمسؤوليّة.....	115
2. شروط الفاعليّة عند عبد المجيد النّجار ومالك بن نبي.....	116
الفصل الثالث: نماذج تطبيقيّة.....	127
المبحث الأوّل: عمر بن عبد العزيز.....	127
1.انقلاب العهد الأموي.....	128
2. تولي عمر بن عبد العزيز الخلافة.....	129
1.2. إصلاحه لنفسه وأهل بيته.....	129
2.2. إصلاحاته السّياسيّة.....	131
2.3. إصلاحاته الاجتماعيّة.....	134

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

المبحث الثاني: الحركة السّنوسيّة.....	139
1.مؤسسها.....	139
1.1. رحلاته في طلب العلم.....	141
2.1. منهجه التّنظيمي.....	142
3.1. منهجه الحركي.....	143
أ.الجانب الإداري.....	143
ب. الجانب التربوي.....	145
ج. نقد ابن السنوسي لأخطاء بعض الصوفية.....	147
د. الجانب الدّعوي.....	148
هـ. الجانب الاجتماعي.....	150
و. الجانب التّعميري الارتفاقي.....	151
ز. الجانب السياسي.....	152
المبحث الثالث: محمّد فتح الله كولن.....	155
1.حياته وفكره.....	155
1.1. مولده ونشأته وتعليمه.....	155
2.1. فكره وتطبيقاته	158
3.1. نشاطه وأهدافه.....	160
2. مشاريع الخدمة.....	163
1.2. النّظرة الكونيّة عند كولن.....	163
2.2. وسائل و غايات مشاريع الخدمة	165
خاتمة.....	173
قائمة المصادر والمراجع.....	176
الفهارس.....	180
فهرس الموضوعات.....	197

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية